المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ناتانييل هووثورن

الحرف القرمزى

1349

ترجمة وتقديم : عبد الباقى بركات

الإبداع القصصى

الحرف القرمزى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٣٤٩
- الحرف القرمزى
- ناتانييل هووثورن
- عبد الباقى بركات
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

The Scarlet Letter
By: Nathaniel Hawthorne

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الحرف القرمزى

(رواية)

تأليــــــــف: ناتانييل هووثورن

ترجمة وتقديم: عبد الباقى بركات

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هووثورن، ناتانييل
الحرف القرمزى/ تأليف: ناتانييل هووثورن، ترجمة وتقديم: عبد الباقى بركات.
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩م.
٣٧٢ص؛ ٢٠سم
١- القصص الإنجليزية - تاريخ ونقد
أ- بركات؛ عبد الباقى (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٢٣.٠٩

رقم الإيداع: ٤٧٤٨ /٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 978-977-479-092-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة إلى القارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم 7

دائرة الجمرك - مقدمة 19

١- باب السجن 75

٢- ساحة السوق 77

٣- التعارف 91

٤- المقابلة 105

٥- هيستير وشغل الأبرة 115

٦- بيرل (لؤلؤة) 129

٧- قصر الحاكم 143

٨- الطفل الجنى والقس 155

٩- الطبيب 167

١٠- الطبيب ومريضه 183

١١- أعماق قلب 199

١٢- قيام ليل قس 209

١٣- صورة أخرى من هيستير براين 225

١٤- هيستير والطبيب 237

١٥- هيستير وبيرل 247
١٦- جولة فى الغابة 257
١٧- القس وابنة أبرشيتة 267
١٨- دفق من ضياء الشمس 283
١٩- الطفلة على ضفة الغدير 293
٢٠- قس فى حيص بيص 303
٢١- احتفالية نيو إنجلاند 319
٢٢- الموكب 333
٢٣- آية الحرف القرمزى 349
٢٤- خاتمة 361

مقدمة المترجم

ولد الكاتب الأمريكى الكبير "ناتانييل هووثورن" فى مدينة "سالم" "بماساشوستس"، فى العام ١٨٠٤ لأب يعمل بالبحر، وجدّ يعمل بالتجارة. يصاب وهو فى سن التاسعة بجرح يمنعه منْ اللعب مع رفاقه من الأطفال، فينكب على القراءة خاصة القصص. يذهب إلى "مين"، مع أسرته ثم لا يلبث أن يعود إلى "سالم"، فيفتقد الحريّة والتجول فى الأحراش اللذين أستمتع بهما فى مين.

يدخل فى العام ١٨٢١ كلية "بوداين" فى "برونسويك" ويصاب بخيبة أمل كبيرة لدى عودة أمّه وأختيه إلى "سالم". يتخرج من الكلية فى العام ١٨٢٥ ويعود إلى مسقط رأسه بمدينة "سالم"، فيعيش مع أسرته الصغيرة والكبيرة على السواء، أخواله وعماته وخالاته.

يقرر أن يصبح كاتبا فيبدأ العمل بالكتابة عام ١٨٣٧، ويتوسّع فى قراءة المراجع والحوليات التاريخية ونشأة "نيو إنجلاند" فيتعرّض لتاريخ المدينة فى رواياته، خاصة تلك التى لاقت نجاحا. كان يبعث أخته إلى مكتبة "سالم" لاستعارة الكتب والمجلات التى يرغب فى مطالعتها.

أصدر عام ١٨٢٨ رواية قصيرة بعنوان (فانشو) ولم يضع عليها اسمه ولم يذكر فيما بعد أنه كتبها. يبدأ نشر الروايات فى الإصدارات الدورية والتى لم تكن تحمل اسمــــه بين عامى (١٨٣٠ –

١٨٣٧). أصدر مجموعة من الروايات والصور الأدبية تضم ماسبق نشره ووضع عليها اسمه. أصدر كتابه الذى لم يلق رواجا إلاّ بعد نقده بعنوان (قيل مرتين) وهو عبارة عن مجموعة من القصص.

تسعى إليه إحدى سيدات الحركة النسائية وتدعى "إليزابيث بالمر بيبودى"، ارتبط بها بعلاقة ما وقدمته للناس ككاتب فى محيطها الاجتماعى كما قدّمته إلى أختها صوفيا. يبدأ فى إصدار مجلّة سياسيّة، بعنوان (مجلّة الولايات المتّحدة الأمريكية – إطلالة على الديموقراطية) نشر فيها معظم أعماله التى كتبها ما بين عامى (١٨٣٨- ١٨٤٥).

يخل نشر أعماله بمركزه المالى فيقبل بوظيفة يدبرها له الحزب الديمقراطى للعمل كوزّان للملح والفحم فى دائرة جمرك "بوسطن"، ينشر مجموعة تاريخية بعنوان (كرسى الجدّ) عن أطفال "نيو إنجلاند" فى المستعمرة البيوريتانية أثناء الثورة، كتبها خلال عمله بدائرة الجمرك.

يتزوج من "صوفيا بيبودى" فى يوليو ١٨٤٢ وينتقل إلى "كونكورد"، "ماساشوستس"، ويعيش فى "أولد مانس". صدرت الطبعة الثانية من مجموعته (قيل مرتين). يفترق عن زوجته بعد أن ينجب ابنته "أونا" بسبب فاقة العيش، فتذهب هى إلى والديها ويعود هو إلى أمّه وأختيه فى "سالم".

يعود مجدّدا إلى زوجته وينجب ابنه "جوليان" فى يونيو ١٨٤٦ وينشر مجموعة قصصيّة جديدة وتستقر العائلة فى "سالم" فى فصل الخريف.

يفصل من عمله فى دائرة الجمرك بعد تسلّم إدارة سياسية جديدة لزمام السلطة فى البلاد فى العام ١٨٤٩، وهو نفس العام الذى توفيت فيه أمّه وفيه أيضا بدأ كتابة روايته الشهيرة، بل أشهر رواياته جميعا: (الحرف القرمزى).

تصدر روايته (موبى ديك) فى العام التالى. أصدرت شركة بوسطن للنشر رواية (الحرف القرمزى) بعد صداقته لأصحابها "تيكنور"، "ريد"، "فيلدز" وهم ناشرو أعمال "هاوثورن" حتى وفاته.

يرزق عام ١٨٥١ بابنته "روز" وهى الطفلة الثالثة له والأخيرة وينشر روايته (البيت ذو السبع جمالونات) وقصص أخرى ومجموعة من السير الذاتية وكتابات للأطفال. ينشر عام ١٨٥٢ رواية (العرس السعيد)، و(الكتاب العجيب) للأولاد والبنات؛ وهو إعادة جمع الأساطير القديمة للأطفال، وسيرة ذاتية للرئيس "فرانكلين بيرس" الذى كان قد عينه قنصلا فى "ليفربول" بإنجلترا . تغرق أخته "مارى لويزا" فى حادثة تحطّم أحد القوارب النّهريّة. فيحزن عليها كثيرا.

فى عام ١٨٥٣ يعيّن قنصلا فى "ليفربول"، إنجلترا، من قبل الرئيس "فرانكلين بيرس" فيتحقق له فى النهاية أمله فى تأمين حياته من الناحية المالية.

لم يُعَد انتخاب الرئيس "بيرس" فتنتهي مدّة بقائه كقنصل. يعيش في روما وفلورنسا.

يعود إلى إنجلترا بعد تعافي ابنته "أونا" من مرض الملاريا، يحاول أن يكتب عملا روائيا طويلا بعد روايته الأخيرة The marble faun وهي عن أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرّومان، لكنّه لم ينجح، يصدر بعد ذلك مقتطفات لثلاث صور الحبّ، ويعدّ وينشر مقالات عن إنجلترا، وتبدأ صحّته في التدهور.

يصدر مجموعة من المقالات بعنوان (بيتنا القديم) عن عهد الرئيس "فرانكلين بيرس" دون تدبّر منه، فيه لمحة شخصية منه بالولاء له، وذلك وسط الحرب الأهلية مع عدم فوز الحزب الديمقراطي في الشّمال.

يموت في ١٩ مايو عام ١٨٦٤ بعيدا عن بيته حيث كان في رحلة قصيرة مع الرئيس "فرانكلين بيرس". وتم دفن جثمانه في ٢٣ مايو.

الحرف القرمزي

حول ملابسات ظهور رواية "الحرف القرمزي" يقول هنري جيمس عام ١٨٧٩:

ربط ناشره السيّد فيلدز (جيمس توماس فيلدز) في كتاب بعنوان "مع كتّاب الأمس" بين الأحداث التي أخرجت رائعة هووثورن

(الحرف القرمزىّ) إلى النّاس. قال أنه "بعد طرده من دائرة الجمرك شتاء عام ١٨٤٩، ذهبت إلى "سالم" (مسقط رأسه) للقائه، ولأتحرّى عن صحته، لأنّنا سمعنا أنّه كان يعانى من المرض. كان آنئذ يعيش فى بيت خشبى متواضع. ....وجدته في غرفة نوم، تعلو قاعة الاستقبال فى البيت، كان يستدفئ بالمدفأة لبرودة الجوّ. استغرقنا الحديث عن طموحاته المستقبلية، وكنت أخشى أن أجده فى حالة قنوط، وهذا بالفعل ما حدث. حفّزه الضيف على التفكير فى نشر شىء، وأجابه هووثورن بلفت انتباهه إلى قلة ما اكتسبه من صيت من أعماله المنشورة، وأوضح أنّه لم يحقق شيئا يذكر منها، وليس لديه الدّافع لعمل شىء ما. استحثّه راوى الحدث على ضرورة أن تكون لديه نظرة تفاؤلية لدى حالته هذه، واستأذن فى الانصراف. لم يكد يصل إلى الشارع حتى لحق به هووثورن، ووضع في يده لفافة من الصفحات المكتوبة، وطلب منه أخذها معه إلى بوسطن، وقراءتها، ثم يحكم من ثمّ على ما ورد بها. قال الكاتب "ما كنت أدرى أكانت جيدة، أم رديئة؟" يقول السيد فيلدز: "خلال عودتى إلى بوسطن، قرأت أصل الحرف القرمزى، وقبل أن أنام فى تلك الليلة، كتبت إليه أعبرعن أعجابى الشديد بالقصة الرائعة التى وضعها فى يدى، وأخبرته بأنّنى سأعود ثانية إلى "سالم" فى اليوم التالى وأننى أرتب للقيام بنشرها، ذهبت وأنا فى حالة عجيبة من الانفعال، حين التقينا مجددا فى البيت الصّغير، وهو لا يصدق قدر جديتى. بدا وكأنه يفكر فى أننى فى غير حالتى الطبيعية، وضحك فى أسى من فرط حماسى. "ومع أن هووثورن قد واصل كتابة القصة وانتهى منها إلاّ أنها لم تظهر إلاّ بعد ذلك بعام. دقق كاتب سيرته فى فقرة من خطاب، كتبه فى فبراير

١٨٥٠ إلى صديقه هوراتيو بريدج. "لقد انتهيت من قصتى بالأمس فحسب، وضعت النهاية لها، وظهرت فى إحدى صحف بوسطن، ونهاية أخرى فى رأسى هنا فى "سالم"، حتى أنّ قصتى وهى على مسافة أربعة عشر ميلا على الأقل. ...... لن ترى النور قبل أبريل. إنّه (النّاشر) يتحدّث عنه فى عبارات ضخمة مليئة بالاستحسان، وكذلك السيّدة هووثورن التى قرأت لها الخاتمة فى الليلة الماضية. لقد انفطر قلبها، وتسببت لها القصة فى الشعور بصداع رهيب لدى عودتها إلى الفراش، بينما أعتبرته أنا نجاحا كبيرا. واستنتجت من تأثرها بها ومن أثرها على النّاشر، أنّنى سأحصد ما يدعوه لاعب البولنج، "ضربة بعشرة". لكننى لم أحصد أيًّا من هذه الضربات. شدت هذه الفقرة انتباه السيد لانثروب (صهر الكاتب وكاتب دراسة عنه) فألمح إليها فى "مـذكرات إنجلـيزية" فى ١٤ سبتمبر ١٨٥٥: "فى الحديث بشأن ثاكراى، لا يمكننى سوى أن أبدى استغرابى من فتوره لشعوره بالرثاء، ومقارنته ذلك بما شعرت به، وأنا أقرأ المشهد الأخير فى الحرف القرمزى لزوجتى، بعد كتابتها مباشرة، حاولت قراءة : "بل، لأنّ صوتى كان يعلو وينخفض، وكأنّ المحيط يتقاذفنى فى علو وهبوط، فى هدوء بعد عاصفة، ولكننى كنت آنئذ منفعلا، ومندفعا فى نوبات عصبية رهيبة ، وأنا أكتب ذلك فى أشهر عدة".

فالعمل يحمل اتجاه الأحداث التى أخرجته إلى الوجود. وإن كان هووثورن فى حالة حزن، وإذا كان متلقيه قد تأكد إحساسه بالغموض، فإن الحرف القرمزى يكون قد حمل له مشاعر البهجة، أو الأمل. إنّها (قصّة) سوداوية، ليس فيها سوى بقعة فاتحة اللون، يمكن

أن تظل أكثر روايات الطراز الأول فى اللغة الإنجليزية، إثارة للهموم. لكننى الآن أطلق عليها، رائعة كاتبها، وأعتقد أننى سأتمسك بأنها، ولأجيال غير أجيالنا، تحمل عنوانا كبيرا كان بسببه إلى الذيوع. ربما كمن موضوع القصّة فى ذهنه لمدة طويلة، كما تنزع إلى ذلك كل موضوعات قصصه، حتى يظهر له أنه امتلك ناصيتها، لمعرفته إياها وإحساسه بها. إنها تعد أبسط وأكثر كمالا من قصص أخرى، و تحقق كل ما تنشده، وإنّها لمحوطة بسحر يصعب التعبير عنه، ولا نعثر عليه إلاّ حين يحصل عمل الفنان درجاته العالية بنوع من المباشرة والتلقائية فى الأداء، وهو لايدرك قدر موضوعه عامة وقدر طزاجته. لقد كان نجاحا عظيما، لأنّه وجد نفسه بعد ذلك ذائع الصيت. كان من الصّعب تفسير قدر أهميّة الحرف A لهنري چيمس (كاتب هذه السطور) وهو لم يزل بعد طفلا. لكنّ اللغز زال فى النّهاية جزئيّا لديه، كونه قد أخذ ببعض الصور المعروضة فى معرض الأكاديمية الوطنية، حين التقى بصورة لامرأة أنيقة بدا عليها الشّحوب، تضع عليها ثوبا غريبا أسود، وعلى رأسها قلنسوة، تمسك بين ركبتيها بطفلة صغيرة، أشبه بالجنى الصغير، وقد وضعت على رأسها تاجا من الزّهور. حيك على صدر المرأة الحرف A الكبير باللون القرمزى، كانت الطفلة تنظر خارج إطار الصورة نظرة غريبة، وتعبث بالحرف الذى على صدر الأم بطريقة تنم عن مكر ودهاء. قيل لهنرى چيمس الطّفل أن المرأة هى هيستير براين والطفلة هى بيرل، لكن الصورة التى كانت قد انطبعت فى ذهنه، سببت له خوفا شديدا وقلقا، وبعد أن كبر وقرأ القصة، كان وكأنّه قرأها من قبل، و يعرف جيدا بطلتيها.

كان هووثورن نفسه يشعر بالتواضع إزاء الحرف القرمزى، فكتب إلى ناشره أنّ ما أعطى هيستير براين هذا الغموض كان فصل المقدّمة. كان نشر الحرف القرمزى فى الولايات المتّحدة حدثا بالغ الأهمية، فى عالم المكتبات. وكان الكتاب من أروع ما كتب فى فن الرواية التى تعتمد على الخيال، وقد وضح هذا من الحفاوة التى قوبل بها، بمنطق أنّ أمريكا قد دخلت فنّ الرواية الذى ينسب إلى عالم الأدب، أو بلغت مكانة مرموقة فيه، وأن شيئا من ذلك قد أرسل إلى أوروبا يكفى بالضرورة الملّحة من حيث الكيف، كأى شيء كانت تتلقفه، وكان أحسن ما فيه أنّه أمريكى خالص، ينتسب إلى تربتها وهوائها، بل إنه جاء لها خصّيصا من نيو إنجلاند. هنالك كمّ لا بأس به من الرمزيّة فى الحرف القرمزّى، أحيانا يأتى مبالغا فيه، فيقترب من التلقائية، ثمّ يتوقّف تأثيره ويذهب كالزّبد جفاء. إنّ فكرة العثور على القسّ وقد دمغ حرفا فى لحمه، تبدو لى بمثابة مشاركة وجدانية منه للرمز المحاك على صدر هيستير، والمقدّر لها أن تحمله، تستحق البحث. كان الإيحاء الذى نشأ، ثم أطيح به ثمّ زج به مرة أخرى، هو الجانب الأضعف فى الموضوع. يعود هووثورن إليه دائما، ويعبث به، ويبدو أنّه قد فتن به، حتى يشعر القارئ فى النّهاية أنه وقع فى الغواية بالإعلان عن أن استمتاعه به كان طفوليا. فى مشهد قيام ليل القسّ، أحس القس خلاله أنه مجبر على الذّهاب والوقوف فوق السارية، التى سبق أن نالت هيستير فوقها عقوبتها الرهيبة، فيراها سائرة على الطريق، ومعها الصغيرة بيرل، فيدعوهما إلى الصعود

والوقوف إلى جانبه، تبدّى هذا المشهد الدّال على براعة الكاتب، باصطناعه صورة خيالية، (تعد مقدّمة هذا المشهد من وجهة نظر هنرى چيمس بالغة الرّوعة حتى أنه لم يستطع سوى الاستشهاد به، لكنه انتقد فيه الحاقه بأفكار مصطنعة) فقبل أن يشرع ديميسديل فى الكلام يظهر بريق ضوء يشمل صفحة السّماء. صدر ولاشك عن أحد النيازك التى يراها طارق الليل، وهى تتقشع فى الفضاء الجوى، لقد أضاء من شدّته كل ما بين السماء والأرض فى الأفق، كما تضاء قبّة قنديل، فظهر الشّارع وكأنه فى وضح النّهار بكل ما فيه من دمامة وقبح ونفور، قد ألفه من قبل، ببيوته الخشبية، وخزينها البارز، وجمالوناتها المدببة، ودرجها وعتباتها، والأعشاب المتناثرة حولها، وحدائقها الصّغيرة، بتربتها السّوداء المخصبة، وممرات حدائقها الداخلية المهملة، وقد أحاطت بها الخضر من كلّ جانب، وحتى ساحة السوق قد انتشرت فيها الخضرة، ظهرت الموجودات كلها لتعطى مضمونا جديدا لها، فى هذا العالم، يختلف عن السّابق، هنالك وقف القس، ويده على قلبه وهيستير براين والحرف المطرز يلمع على صدرها، ومعهما الطفلة بيرل، وقفوا جميعا وسط تجلّيات هذا النّور الرهيب، وكأنّه النّور الكاشف للأسرار كلّها، وذلك الفجر الذى سيجعل كلا منهما منتميًا إلى الآخر، كان ذلك له أثر بالغ، وهو من وحى الشّعر والخيال، ولكن يلى ذلك مباشرة أنّ يتطلّع القسّ فى الأفق، فيرى حرفا ظاهرا، على صفحة السّماء هو الحرف A مرسوما بخطوطه الحمراء القاتمة المضيئة، إننا هنا نميل إلى أن

الكاتب يشتط في مغالاته. إنّه يدفعنا إلى القول بأنّ هذه ليست مأساة سوداء بل هي كوميديا أرضية، واتبع نفس النّهج في تلميحه إلى أنّ شارة هيستير، تحمل خاصيّة الخلود، وأن أحدا إذا لمسها بيده يتراجع مجفلا في الحال. يبحث هووثورن دائما عن صور لابد أن تزج بنفسها مع الحقائق الرّوحية وتتوحد معها في تطابق مثير، تلك الحقائق يضعها في اعتباره، ولا يتوفر ذلك بالطبع إلاّ في مجال الشعر ذي الأريج الفواح. لكن الحذر في نهج كهذا واجب، وحين لا تكون الصّورة ملائمة يشتد الخطر، ولا تمثل إلاّ نفسها، فحين تلتقي هيستير بالقس بمواعدته باللقاء في الغابة، ثم تجلس معه يتبادلان الحديث في الوقت الذي كانت بيرل على حافة الجدول الصغير، يعلن الكاتب أن الطفلة عبرت الضفة الأخرى للجدول، وأنها ظلّت تمرح هناك، بطريقة جعلت أمها تشعر على نحو يكتنفه الغموض بأنّ ابنتها صارت بمنأى عنها، وكأن الطفلة في شرودها وحدها، قد خرجت من العالم الذي كانت هي وأمها تعيشان فيه، وأنّه من الصّعب الآن مناشدتها للعودة إليه. ويكرّس هووثورن فصلا كاملا لفكرة أن يكون الجدول، هو ما يفصل بين الأمّ وابنتها ويضع شيئا من هوّة روحيّة بينهما، فتسخر على حافته الطفلة العجيبة في براءة من إحساس أمها بالحرمان أو بفقدها ابنتها (Bereavement)، وقد يقول قائل: إن فكرة كهذه تنتمي إلى المرتبة الأقلّ تأثيرا أو إلى أدوات يستخدمها الكاتب وأرى أنه من الصعب على القارئ مسايرة هووثورن في كثير مما ينحو إليه وفي مبالغاته الشديدة، ونزوعه نحو الأفكار الغامضة

والتى كان يستخدم فيها عبارات "عالم" "عواطف" فهنا يستخدم هووثورن الدّلالتين بإسراف شديد وذلك يعد عيبا وحيدا فى أسلوبه فى السّرد، وهنرى چيمس هنا لايقصد إبراز عيوب فيه، على قلّتها، لأنها كما يقول تصعب ملاحظتها. فى الحرف القرمزى سحر لايقاوم، وسرّ من أسرار الأعمال الفنيّة الكبيرة. فى الحرف القرمزى لون من الصقل و الرقة فى آن. إنه لديه إحساسًا طبيعيا باللغة.

لماذا الحرف القرمزى؟

طرح هووثورن عدّة مفاهيم لتفسير الحرف القرمزى، وبالتالى تعددت فى تفسيره وجهات النّظر، ومع ذلك اتجهت نهاية القصّة إلى قراءات، بعدت بالمتلقى عن الإحساس بالبهجة، ففى وصف شعار النبالة الذى حفر على شاهدى قبرى كلّ من هيستير وديميسديل، كتب: "الآن، وقد انتهت حكايتنا، على هذا النّحو المحزن، فإنه لا يخفف من وقع ذلك سوى نقطة من ضوء، هو الأكثر عتامة من الظلال. وتأتى عبارة الختام لتؤكد أنّ:

١ – ما ورد على لسان ديميسديل من أنّك إذا لم تستطع أن تظهر للناس أسوأ ما فيك فاظهر بسمات يمكن بها بحث هذا الأسوأ.

٢ – فكرة النّفس اللوامة تلك التى تفرز الخبيث من الطيب، أى أن هيستير قد تطهرت بارتكابها الزلل ولكن لم تقبل توبتها، تتماشى مع فكرة الخطيئة الأصل التى اعتنقها البيوريتان وهى سيف مشهر على أعناق كل البشر.

٣ – كانت نهاية الحرف القرمزى فى ذاتها، تضاربا دون الوصول إلى حل للمأساة، ليس ذلك لتخبط فى المعالجة الدرامية، أو الحاجة إلى إعمال الفكر ولكن لصدق عنصر الخيال.

٤ – تعد خطيئة الحرف القرمزى رمزا للخطيئة الأصل The original sin (الخروج من الجنّة) التى لن يبرأ منها إنسان، وربما يكون هذا هو المقصود "بالأسوأ" التى وردت على لسان ديميسديل وهو يحتضر، وفى الحكمة من انتهاء ديميسديل بالموت، فهيستير بعد ارتكابها الخطيئة عادت إلى جادة الصواب.

- The scarlett letter A reading nina Baym
- Major Witers of America Henry James (From Hawthorn/ the scarlett letter.
- The complete short stories of Nathaniel Hawthorn page 234 Tale Writings Edgar Alan poe.
- The Genuis of Nataniel Hawthorn by Antony Trollope.

دائرة الجمرك

مقدمة للحرف القرمزى

برغم عزوفى عن الإطالة فى الحديث عن نفسى، أو عن شئونى الخاصة داخل البيت، إلى أصدقائى المقربين، فإننى لم ألحظ كثيرا أن الدافع إلى كتابة السيرة الذاتية استحوذ على مرتين، كى أقدمها لجمهور القراء. كانت المرة الأولى منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، حين خصصت القارئ، دون موجب أو مبرر قد يخطر على بال قارئ عجول أو كاتب حركة فضول، بوصف لحياتى التى اتسمت بالسكينة التامة فى واحد من بيوت القسس القديمة. وبعد تعدد مرات تملصى منهم، كنت سعيدا فى المرة السابقة لعثورى على منصت لى أو اثنين، لأجدنى الآن أعيد من جديد استحواذى على جمهورى من القراء، بضغطة على الزر، وسرد تجربة أعوام ثلاثة، قضيتها بالعمل فى دائرة الجمرك. لن يحذو أحد على الإطلاق حذو العمل المعروف "ب. ب." كاتب هذه الأبرشية. ومع أن هذا الكاتب فى حقيقة الأمر، يعلن أنه لحظة دفعه بأوراقه فى مهب الريح فإن قلة هى التى ستلقى بأوراقه هذه جانبا، أو تعرض عنها كلية. لكن الذين يستوعبونه سيكونون قلة قليلة، وأكثر من أغلب رفاقه القدامى أو الجدد. يتجاوز بعض الكتاب حقيقة هذا المنحى، فيتركون لأنفسهم العنان فى الكشف عن أدق الأسرار، ويتجهون بقدر ما تسنح لهم الفرص، فقط وعلى سبيل الحصر، نحو ما يرضى عقول وقلوب الجمهور، كأن الكتاب وقد طبع وانتشر فى أرجاء المعمورة، صدر يقينا للكشف عن جزء

مستقل من شخصية كاتب بعينه، وتكتمل بقية مراحل حياته، بالزج به معها فى وحدة واحدة. وأن من غير المقبول، أن نتحدث فى كل الأمور حتى لو لم يكن الأمر يتعلق بنا. لكن حين تتبلد الأفكار وتنعدم القدرة على التعبير، وحين لا يقف المتحدث على الصلة الحقيقية التى تربطه بالمتلقين، يكون مقبولا تصور أن يتلقى سردنا أحد الأصدقاء، ممن هم على قدر من الود والفهم وليس شرطا أن يكون من المقربين، كى يتلاشى ساعتئذ تحفظه التلقائى، لإدراكه الفذ، فنحن قد نثرثر بما يدور حولنا من أحداث، وما يتعلق بنا، لكننا نبقى محتفظين بالأنا الداخلية خلف سترها. أظن أنه داخل تلك الأطر وإلى هذا المدى، يمكن للكاتب أن يسجل سيرته الذاتية، دون المساس بحقوقه أو بحقوق القراء.

سيتضح أيضا أن الصورة الأدبية لدائرة الجمرك تتفق مع ما هو متعارف عليه فى مجال الأدب، فى تفسير كيفية وقوع قدر من الصفحات التالية فى حوزتى، وأنها تعد دليلا يثبت صحة ما ورد بها من أحداث، ورغبة منى فى تبوؤ مكانتى الحقيقية ككاتب، بما ورد بالأحرى فى هذه الصورة الأكثر سردا من بين فصول الكتاب، فإن هذه الرغبة وليس سواها هى السبب الحقيقى لإيجاد علاقة ذات طابع شخصى بجمهور القراء. ويبدو أنه أمر مقبول لتحقيق الهدف الرئيس، مع وضع بضع لمسات إضافية، وتقديم لمحة بسيطة، تتضمن أحد مناحى الحياة التى لم يسبق لأحد أن تناولها بالوصف، إضافة إلى تقديم بعض الشخصيات التى تزخر بالحركة داخل الصورة، حيث كان المؤلف نفسه إحدى هذه الشخصيات.

فى مدينة "سالم" وهى مسقط رأسى، ومنذ ما يقارب نصف القرن، أثناء الفترة التى حكم فيها الملك "ديربى" الكبير، ازدهر رصيف أحد الموانئ بالحركة التجارية، لكنه الآن ينوء بمخازن الأخشاب المتهالكة، وقل أو انعدم تعرضه لأى من مظاهر النشاط التجارى، سوى احتمال وجود إحدى السفن ذات الصاريين أو الثلاث، وقد غاص نصفها الكئيب فى الماء، تقوم بإفراغ شحنتها من جلود الحيوانات، أو نشهد على مقربة منها، السكوتة (وهى السفينة الأكبر ذات الصاريين) مطهّمة بشعار النجم المتلألئ، لتفرغ هى الأخرى شحنتها من فحم الوقود. أذكر أنه كان فى أول الرصيف المتهالك، والذى يطاله المد فى الغالب، وبامتداد قاعدته، قد أقيم صف من المبانى، التى أحاط العشب الجاف بها من كل جانب بتعاقب السنين، بإطلالة من نوافذه على هذا المشهد الخالى من الحياة، ينتصب أحد المبانى الكبيرة، المشيدة بالآجر. عبر ساعات ثلاث ونصف الساعة من صبيحة كل يوم إلى وقت الظهيرة، يرفرف أو يتدلى بخطوطه الثلاثة عشر، التى تحولت إلى رأسية عوضا عن الأفقية، إشارة إلى أن المكان ليس سوى مؤسسة مدنية، وليس إحدى منشآت العم "سام" العسكرية. زينت واجهة المبنى برواق دعم بنصف دستة من الأعمدة الخشبية، وألحق بشرفة كبيرة تنتهى إلى أرض الشارع، بعدد من الدرج من حجر الجرانيت، أحتضن أعلى المبنى، تمثال ضخم لأنثى النسر الأمريكى، باسطة جناحيها، وعلى صدرها درع، فى كل مخلب من مخالبها جعبة من السهام المدببة والقواصف. بدا هذا الطائر التعس، كما عرف عنه من تقلب فى المزاج، وحدة فى المنقر تصرح بها العين، بدا متوعدا أى انتهاك لسلامة المجتمع بالويل والثبور،

ومهيبا بالمواطنين على وجه الخصوص أن يحرصوا على أمنهم، ضد من تسول له نفسه المساس بممتلكاتهم، تلك التى تحتضنها بجناحيها. إنها رغم ما تبديه من توحش فإن الكثيرين فى اللحظة والتو، كانوا يسعون إلى الاحتماء بجناح هذا النسر الفيدرالى ظنا منهم حسب زعمى أن صدرها عامر برقة ونعومة وسادة دافئة. لكنها فى أحسن أحوالها لا تحمل رقة أو نعومة، فهى عاجلا او آجلا، والعاجل هو الأرجح، سرعان ما تنفلت من بين صغارها بخمشة مخلب أو ربتة كف، كى تسدد رمية بسهامها الإبرية.

اكتئث الرصيف المحيط بالمبنى المذكور، وأفضل من الآن أن نسميه باسمه وهو "دائرة الجمرك"، بالغزير من العشب ما سد شقوقه، وما أوحى بأنه فى مؤخر الأيام، قد خلا من أى نشاط يذكر. كانت تسنح الفرص فى بعض أشهر السنة، مع طلعة نهار تزخر فيه الحركة مع خطى الساعين طلبا للرزق، كان أهل المدينة القدامى يسترجعون مع هذا النشاط ذكريات أيام ما قبل الحرب مع إنجلترا، حين كانت مدينة "سالم" مرفأ مستقلا بذاته، لم تطله يد الإهمال، كما هو الحال الآن بتجاره ومالكى سفنه، أولئك الذين تركوا أرصفته نهبا للبلى، بينما هم يضاعفون من صفقاتهم التجارية دون اعتبار أو إدراك لذلك النشاط التجارى الهائل الذى يزداد فى كل من بوسطن ونيويورك.

مع إشراقة صبح كذاك، وعند قدوم ثلاث أو أربع سفن، من أفريقيا أو أمريكا اللاتينية، أو حين وشوك رحيلها إلى هناك، كان

يصل إلى سمعك وقع الخطى الهابط منها والصاعد على الدرج الجرانيتى. فى هذا المكان، وقبل لقائه بامرأته بأحر اللهفات والأشواق، كان يمكنك لقاء قبطان السفينة، عائدا لتوه من سفرته، متأبطا أوراق سفينته، المحفوظة فى صندوق لامع صغير من المعدن الرقيق، وفى هذا المكان أيضا، يفد مالك السفينة، إما منفرج الأسارير، أو مقطب الجبين، كل حالة بحسب ما آل إليه مشروعه أو تجارته، التى إما أن تتحول إلى قطع من الذهب، أو تواريه هو تحت كم هائل من الهموم، لن يأبه أحد بتخليصه منها.

نجد هنا أيضا الأشبه بالجرثومة، التاجر غضن السحنة، أشيب اللحية دائم الهموم، كما نجد الكاتب الشاب المتانق، الذى يحظى بحاسة شم للحركة التجارية، كما يشتم الثعلب رائحة الدماء، فيخاطر بصفقات محدودة على سفن سيده، فى حين كان الأفضل له الإبحار فوق بركة طاحون. تظهر أيضا فى هذا المشهد شخصية البحار اللاجئ طلبا للحماية من الملاحقة القانونية، أو ذلك الوافد إلى المرفأ لتوه، مريضا شاحب الوجه يسعى للحصول على تصريح بدخوله المستشفى. ويجب ألا يفوتنا ذكر ملاحى السفن الشراعية العتيقة، الجالبة لفحم الوقود من المقاطعات البريطانية، وهم جماعة من النوتية خشنى المظهر، يفتقرون إلى حيوية اليانكى (الأمريكى ابن الولايات) ولكنهم يسهمون بدورهم فى قدر لا بأس به من تجارتنا الراكدة.

جعل كل هؤلاء أحيانا ومعهم آخرون ليشكلوا تنوعا فى هذه الزمرة، جعلوا من دائرة الجمرك، صورة مفعمة بالحركة. يمكنك عند

صعود الدرج، وفى المدخل إن كان الوقت صيفا، رؤية صف من الشخصيات الموقرة، جالسين على كراسيهم القديمة، مرتكزين على أرجلها الخلفية، وقد اسندوا ظهورها إلى الجدار، غاطين فى نومهم أغلب الوقت، ويمكنك سماع أصواتهم بين الفينة والفينة، محاورين بعضهم البعض، بأصوات تتراوح بين الحديث والشخير، مع نزوعهم إلى كسل تميز به نزلاء الملاجئ، وآخرون من بنى البشر، يعتمدون فى بقائهم على قيد الحياة، على أعمال البر وخدمة الاحتكاريين، أو أى مصدر آخر خلا جهودهم الذاتية. أولئك السادة الكبار، الجالسون مثل "الحوارى متى" جامع الجباية، لن يكونوا مثله عرضة للاستدعاء لأداء واجباتهم الدينية، أولئك هم مستخدمو دائرة الجمرك.

هناك أيضا على يسارك، حين تدلف من الباب الأمامى، حجرة خاصة أو مكتب سقفها مرتفع، مساحتها خمسة عشر قدما، مربعة، بها شرفتان، تشرفان على المرفأ الخرب المذكور، أما الثالثة فتطل على زقاق ضيق وجزء من شارع ديربى.

تعكس الشرفات الثلاث لمحات من حوانيت البقالة، وصناع الأخشاب، وتجار ملابس النوتية، ولوازم السفن، وزمرة من البحارة من كبار السن، يرون فى العادة حول أبواب الحوانيت، وهم يغمزون ويلمزون بعضهم البعض، ويطلقون النكات، وجماعة أخرى ممن يطلق عليهم فئران الأرصفة، يكثرون من ترددهم على المرفأ. امتلأت هذه الحجرة بخيوط العنكبوت، وأحلكها طلائها القديم، وافترشت أرضيتها الرمال الكالحة بصورة جعلت ما عداها من

موجودات فى حالة مزرية بمرور الوقت، وكان من السهل نتيجة تفشى قذارة المكان الحكم بحرمانه من أدوات المرأة السحرية، المكنسة، والممسحة. اشتمل أثاث الغرفة على موقد مزود بمدخنة كبيرة، ومكتب قديم من خشب الصنوبر بجواره مقعد طويل بثلاث أرجل، وبدون مسند من الخلف، أو ذراعين، ثم اثنين أو ثلاثة من المقاعد بقواعد خشبية، تهالكت كلها بمرور الوقت، ولا يفوتنا ذكر المكتبة، حيث وضع على أرففها صف من المجلدات أو مجلدين اثنين، يتضمن أحدهما القوانين الصادرة عن الكونجرس كأعلى هيئة تشريعية فى البلاد، ثم مجموعة هائلة من قوانين الإيرادات العامة للدولة. يمتد إلى أعلى ويمر مخترقا سقف الغرفة أنبوب معدنى، يعد وسيلة اتصال الغرفة بكل أرجاء المبنى. فى نفس المكان، عزيزى القارئ، كان يمكنك منذ ستة أشهر، التعرف على هذا الشخص رائحا غاديا، أو مسترخيًا على المقعد ذى الأرجل الثلاثة، متكئًا على المكتب بمرفقه، وعيناه تجولان أعلى وأسفل جريدة الصباح، وذلك الرجل هو نفسه من كان قد رحب بك فى مكتبه الخاص الصغير، والجميل، حيث تتسلل أشعة الشمس بغزارة عبر أفنان شجر الصفصاف فى الجانب الغربى من "أولد مانس"(*). أما الآن فإن كنت مضطرا للسعى فى طلبه، فإن سعيك سوف يذهب سدى فى طلب القياس "لوكوفوكو". فقد قشته مقشة الإصلاح من منصبه، وحل محله خلفه الأكثر استحقاقا، ووضع مدخلاته فى جيبه.

(*) أولد مانس: ترجمتها الحرفية، بيت القس القديم، وهى إحدى روايات الكاتب.

تستولى مدينة "سالم" أو كانت كذلك، رغم كثرة أسفارى عنها فى مراحل صباى وشبابى، على قدر كبير من مشاعرى القلبية، بدرجة لم أكن أدركها أثناء إقامتى الفعلية بها. ووصل هذا إلى حد اهتمامى بهيئتها الظاهرية، أرضها المنبسطة، غير المعبدة، مبانيها الخشبية، التى لا تكاد تظهر فيها، أو تكاد تنعدم فيها كلية فنون المعمار، فى عشوائية لا تميز بين حداثة أو قدم، بل هى خليط بينهما، وشارعها الطويل الممل، الذى يتهادى ضجرا، ليمتد من جانب مع "جالوز هيل"، "جنوا الجديدة وبطول "دار البر" من الجانب الآخر. قد تكون تلك المعالم لمسقط رأسى، سببا كافيا لخلق رابطة وجدانية، مع رقعة الداما تلك التى لم تنتظم. أما الآن ورغم شعورى بالسعادة كونى بعيدا عنها، فإن بداخلى مشاعر أكنها نحو "سالم" القديمة، يصير لزاما على صياغتها فى عبارة أفضل، وذلك يجعلنى راضيا إذا دعوت تلك المشاعر حبا.

يرجح أن يكون لرقة المشاعر جذور عميقة وقديمة، أصلتها عائلتى فى التربة. مر الآن ما يقارب القرنين وربع القرن، على قدوم "بريتون" الجد، وهو أول المهاجرين من أسرتى، لوجوده المبكر فى المستعمرة التى تحدها الغابة والبرارى، لتصير بعد ذلك مدينة من المدن. شهد هذا المكان مولد أحفاده وموتهم، وامتزاج رفاتهم بالتربة حتى أنه لم يعد هناك جزء فيما أقطعه سيرا فى طرقاتها إلا وينتسب بالضرورة إلى ذلك الجسد الفانى. لذا فإن وشيجة الود التى أتحدث عنها، ليست فى جانب منها سوى ذلك التجانس الحسى، بين التراب والتراب. قلة من أهل بلدتى، من يدرك هذا الإحساس، وليس من

الضرورى إدراكه ذلك، فالأسفار المتكررة، ربما تأتى للسلالة، بالنتيجة الأفضل.

لكن ذلك الشعور يحمل أيضا جانبه الخلقى. لقد اكتست صورة ذلك الجد الأكبر، طبقا لتقاليد العائلة، بجلال تشوبه العتمة والغموض، كانت حاضرة فى مخيلتى وأنا حديث العهد بالحياة، وقدر ما تسعفنى به ذاكرتى. لا يزال هذا الحضور يعودنى، فيحدث نوعا من التآلف بالماضى، ما جعل من الصعب علىَّ المطالبة بشىء من حاضر المدينة الآن. الظاهر أن حق مطالبتى بالإقامة هنا يرجع وبقوة إلى ذلك الجد العابس، طويل اللحية، ذى المعطف حالك السواد. الذى يشبه سنام قبعته برج الكنيسة، وهو من أوائل الوافدين إلى هذا المكان، ومعه سيفه وإنجيله، ليطأ بقدميه هذا الشارع غير المطروق، بهيئته الوقور، ويجعل من نفسه رجلا للحرب والسلام، وأن حقى هذا لا مرية فيه، وهو أقوى من ادعائى به لنفسى، لأن اسمى لم يسمع به أحد، ووجهى يصعب التعرف عليه. كان رجلا عسكريا ومشرعا وقاضيا. وكان رئيسا للكنيسة، جمع كل ما لدى "البيوريتانز"(*) من سمات، الخير منها والشرير. كان جبارا عتيا، وشاهدا لجماعة "الكويكرز"(**) حتى أنهم يذكرونه فى حولياتهم التارخية، ويسجلون له

(*) البيوريتانز: جماعة من المتشددين فى التدين من البروتستانت. ومعناها الحرفى المطهرون أو الأطهار.

(**) الكويكرز: جماعة كانت تطلق على نفسها الحاحبيين، يرين صمت تام على اجتماعاتهم.

حادثة بعينها، تبين بالغ قسوته إزاء إحدى نسائهم، امتد أثر تلك الحادثة، ليتجاوز ما له من مناقب على كثرتها. ورث ابنه عنه أيضا روح التجبر، وبرز فى التنكيل بالساحرات، حتى يقال أن دماءهن لا تزال عالقة به. ومؤكد أن رفاته في الجبانة الواقعة فى شارع شارتر، إذا لم تكن الآن قد تحولت إلى تراب، فهى لا تزال ملطخة بالدماء، ويالها من دماء. لست أدرى إن كان أجدادى أولئك، قد فكروا فى التوبة وطلب المغفرة، عما ارتكبوه من آثام، أو إن كانوا يجأرون من فرط الألم فى العالم الآخر من سوء ما فعلوا.

على أية حال، فإننى ككاتب أحمل عنهم الخزى، وأدعو أن تزول عنهم من الآن وفى المستقبل، أية لعنة نزلت بهم، وسمعتها بأذني؛ حيث شاء لها أن تتواصل تلك الحالة الكئيبة والمزرية التى ظلت عليها سلالتهم لعهد طويل. ولا ريب فى أن أيا من أولئك البيوريتان، قساة القلوب، مقطبى الجبين، قد يفكر فى أن الجزاء الأوفى على ما اقترفه من آثام، كان يحتم أن يثمر الجذع القديم لشجرة العائلة شخصا تافها مثلى، وهو الفرع الأعلى فيها، بعد تراكم الطحلب الأكثر وقارا عليه، عبر ردح من الزمن. فلا هدف فى حياتى تعلقت به من قبل، كان مثار ثناء منهم، ولا نجاح أحققه، إن كان فى حياتى ما يكلل بالنجاح على المستوى غير المحلى، إلا واعتبروه فشلا ذريعا، ذلك إذا لم يطالعوه بازدراء. يدمدم شبح أشيب منهم للآخر: "ماذا عساه يكون؟ روائي؟ ما قدر هذا العمل فى الحياة؟ وأى وسيلة فيه لتمجيد الرب؟ أو خدمة البشرية فى جيله؟ ولماذا يظل

هذا الفاسق سادرا فى عبثه؟" كانت إطراءات كتلك، تجمعنى وأجدادى عبر هوة سحيقة من الزمن. فلندعهم يسخرون كما شاءت لهم السخرية، فإن سمات كثيرة من سجاياهم قد وشجت الصلة فيما بيننا.

منذ أقام جداى فى هذا المكان، تجذر عرقاهما فى أعماق طفولة هذه المدينة وصباها، ولم يسبق أيضا على حد علمى، أن وصمت سلالتاهما بالعار، من إنسان مهما قلت قيمته، ولكن من ناحية أخرى وعقب هذين الجيلين، ندر أو انعدم تحقيق مأثرة واحدة تذكر، أو تحقيق ما يشد انتباه الناس. لم يعد الآخرون يعيرونهم التفاتا بمرور الزمن، كالبيوت القديمة، نراها هنا وهناك عبر الشارع، بعد أن زحف عليها ركام التربة الجديدة، حتى غطى منتصف "الإفريز". احترف الأب والابن، لما يربو على المائة عام، مهنة ركوب البحر، فقبطان السفينة يترك مكانه على سطحها بسبب التقاعد، ليرث فتى فى الرابعة عشرة من عمره مكانه أمام دفة السفينة، مواجها نفس ما واجه الأب من العواصف ورذاذ المالح.

وحين يدور الزمن دورته، يكون الابن أيضا قد انتقل من سطح السفينة إلى قمرتها، ليستنفذ مرحلة الرجولة العاصفة، ويعود أدراجه من حول العالم، بعد أن أصبح شيخا، ليقضى نحبه، ويمزج ترابه بالوطن الأم. تخلق تلك الصلة الممتدة ما بين عائلة ما ومكان بعينه، اتخذته كبقعة لميلاد وموت، نوعا من الألفة بين الإنسان والمكان، تنعدم فيها أى علاقة بجمال الشكل، أو ما يحيط بالبيئة من سلوكيات. فذلك يتعلق بالغريزة وليس بالحب. فالمستوطن الجديد، يستوى فى ذلك القادم إلى البلاد بمفرده ومن وفد أبوه وجده من قبله، ليس من

حقه الادعاء بأنه "سالمى"، لأنه لا يدرك قدر صلابة المحار التى جعلت المستوطن القديم، بعد أن أمضى ثلاثة قرون، يتشبث بالمكان الذى تأبد به أجداده من قبل. لا شك أن المكان قد خلا مما يبعث على البهجة فى نفسه، لأنه مل رؤية البيوت الخشبية القديمة، والأرض الموحلة، والمستوى المتردى للموقع والوجدان، ورياح الشرق الباردة، والبيئة الاجتماعية الأشد برودة، لكن هذا كله وما تجاوزه من مثالب، رآها بعينيه أو خطرت بباله، لا يمثل شيئا فى نظره قياسا بالأهداف. فالسحر ممتد المفعول وقواه نافذة، وكأن أرض الوطن هى الجنة على الأرض. هكذا صار الأمر معى. شعرت بأن قدرا يكاد يجعل مدينة "سالم" مقاما لى، كى تبقى الملامح والهيئة العامة المألوفة للفرد، كما عهدتها فى صباى، هى نفسها التى ظهرت واستدل عليها فى المدينة القديمة، وحتى يبقى أحد ممثلى ذلك الجيل راقدا فى قبره، بينما يضطلع آخر، بمهام الخفارة بطول شارع "مين". ورغم أن هذه المشاعر هى خير دليل على تلك الصلة، فإنها لا تأتى لى بنفع يذكر، إلا أننى فى نهاية الأمر وجب على احتمالها. ولن يكتب لشخصية الإنسان أن يطرأ عليها التطور والينع كحبة البطاطا، طالما ظلت تزرع ويعاد استنباتها فى نفس التربة المستنزفة. وقد شهد أبنائى مولدهم، فى غير هذا المكان، وسيمدون جذورهم فى أماكن أخرى، طالما ظلوا تحت رعايتى.

برحيلى عن "أولد مانس"، كانت تلك الصلة الواهية، الخالية مما يسر، سببا فى عودتى إلى هذا المكان، لشغل وظيفة فى مبنى العم "سام"، المقام "بالآجر"، فى وقت كان الأفضل لى التوجه إلى

مكان سواه. ولم تكن تلك هى المرة الأولى أو الثانية لرحيلى الدائم عنها ولن تكون الأخيرة، حيث أعود الآن كنصف البنس الردئ، أو كأن مدينة "سالم"، هى قلب الكون الذى لا يمكن تجنب المرور به. هكذا وذات صباح مشرق، كنت أعتلى الدرج الجرانيتى، وأنا أحمل فى جيبى تفويضا رئاسيا، وأقدم نفسى لفيلق من السادة الذين تكفلوا بمد يد العون لى إزاء تحمل مسئولياتى الكبيرة، كرئيس أعلى لمأمورية التنفيذ بدائرة الجمرك.

أشك كثيرا، وأفضل ألا أشك، أن يكون قد حدث من قبل أن حظى شخص يعمل فى مجال عسكرى أو مدنى فى الولايات المتحدة، بمثل ما حظيت، تحت إمرتى هذا العدد الكبير من السادة الأجلاء. أثبت على الفور فى داخلى المستوطن القديم وجوده، بمجرد أن وقع عليهم بصرى. أبقت استقلالية وظيفة الجابى، ما يربو على العشرين عاما الماضية، أبقت دائرة الجمرك بمنأى عن الصراعات السياسية، التى كانت تقصر من أجل بقائه فى الوظيفة. كان رجلا عسكريا بل كان أكثر رجال الجيش فى نيو إنجلاند تميزا، ثبتت خدماته الجليلة على مبادئ راسخة، وتفرد بالعقلانية، عبر تعاقب عدد من الإدارات عليه، أثناء شغله المنصب، وكان لمرؤوسيه بمثابة صمام الأمن وقت المحن والشدائد. كان الجنرال ميلر جمهوريا متطرفا، وإضافة إلى ما كان يعرف عنه من لين الجانب، فإنه كان يفتقر إلى القدر الأدنى من استخدام سلطته، حيث أحاط نفسه بعديد من الوجوه المعروفة، وكان يتجه نحو التطوير بشق الأنفس، وقت أن كان للتطوير أن يأتى

بثماره. لذلك لاحظت وأنا أستهل مهامى الوظيفية، أن الجميع كانوا من كبار السن، وكان غالبيتهم من ربابنة السفن القدامى، بعد أن تقاذفهم موج البحر، وبعد أن ثبتوا فى وجه ملمات الحياة، سقطوا آخر الأمر فى شباك الدعة، فلا يكدر صفوهم مكدر، خلا الهلع مع كل دورة انتخابات رئاسية، للحصول على فرصة جديدة من أجل البقاء فى الوظيفة. ولا أشك فى أنهم كانوا أقل عرضة من أقرانهم للمرض والسقم، وأنهم كانوا يحترزون كما هو باد بطلسم يباعد بينهم وبين الموت. تيقنت من أن اثنين منهم أو ثلاثة كانوا مصابين بداء المفاصل الحاد، وربما كانوا طريحى الفراش، ولكنهم ما إن ينتهى فصل بياتهم الشتوى، تجدهم يخرجون حبوا للاستدفاء بحرارة شمس مايو أو يونيو، ويتوجهون فى تراخ إلى ما يدعونه أداء للواجب، ثم يعودون إلى فراشهم وقتما يشاءون. لابد لى من أن أقر بأنى، بسبب لجوئى إلى اختصار أوقات العمل الرسمية لواحد أو أكثر من أولئك الأجلاء العاملين فى خدمة الجمهورية. أتيح لهم فى حضورى، إراحة أنفسهم من أعمال تتطلب جهدا، بعد أن كنت على يقين من أن هدف حياتهم الأوحد، هو التفانى فى خدمة وطنهم، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى رحلوا إلى العالم الآخر. كان خير عزاء لى بعد اتخاذى هذا القرار، أن فرصة كتلك قد أتيحت لهم لإبداء الندم على ما أتوا من أفعال دنيئة، يفترض أن يقع فيها حسبما اتفق كل مستخدم فى الدائرة. ذلك أن المدخل الأمامى أو الخلفى لدائرة الجمرك لن يكون حين يفتح أمامهم هو الطريق إلى الجنة.

كان أغلب مرؤوسى من الهويج(*). وكان من حسن طالع أقرانهم المحترمين، أن المفتش الجديد لا شأن له بالسياسة. وأنه رغم كونه ديمقراطيا، وعلى مبدئه، فإنه لم يجعل لإدارته أية صلة تربطها من قريب أو بعيد بالشئون السياسية. ولو حدث نقيض ذلك، كأن أحتل مثلا هذا المنصب الكبير ناشط سياسى لأداء أسهل المهام وهى الإطاحة بالجابى التابع للهويج، بعد أن منعه المرض من ممارسة إدارة مكتبه بنفسه، ربما سيصبح من العسير على أحد رجال الحرس القديم، الاستمرار فى الوظيفة فى غضون شهر واحد من ارتقاء ملك الموت درج دائرة الجمرك، ويصبح طبقا للمنظومة القائمة، ولا يعتبر مخالفا لها، وضع رأس كل من أصحاب الرؤوس البيضاء تحت حد المقصلة. كان يسيرا على ملاحظة الزملاء من كبار السن، وهم فى هلع من أن يصيبهم شيء من تلك الأهوال على يدى. وكان من المؤلم بل والمسلى فى الوقت نفسه، أن أرى الهلع الواضح عليهم عند حضورى، ورؤيتى وجنة غضنة. قد أصابتها عواصف نصف قرن من العمر بالترهل، قد كساها الشحوب لمجرد نظرة عابرة من شخص مسالم مثلى، ولاكتشف إذا خصنى أحدهم أو الآخر بالحديث، رعشة فى صوته، بعد أن كانت نبرات صوته على مدى الأيام التى سبقت مقدمى، نفيرا متحدثا يرتعد منه بورياس(**)، فيخرصه على الفور. أدرك أولئك الأجلاء من كبار السن، أنه طبقا للوائح المنظمة،

(*) الهويج: حزب أمريكى أسس عام ١٨٣٤، أمام الحزب الديمقراطى، وخلفه فى ذلك الحزب الجمهورى عام ١٨٥٤.

(**) بورياس: إله ريح الشمال فى الأساطير الإغريقية.

إشارة إلى عجزهم ونقص قدرتهم على العمل، أنه ينبغى عليهم ترك وظائفهم للشباب، فهم الأكثر استقامة فى ممارسة العمل السياسى، والأكفأ فى خدمة عمنا الكبير "سام". إننى أدرك أيضا هذا، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة فى الإقدام على اتخاذ موقف يتفق وهذا الإدراك، مع شعورى بالخزى الشديد والمستحق، لما لحق بضميرى المهنى من أذى، واصلوا طوال مدة شغلى المنصب، زحفهم حول أرصفة الميناء، والتسكع فوق درج السلم، صاعدين أو هابطين، ناهيك عن استغراقهم فى السبات الطويل، فى أركانهم المألوفة، فوق مقاعدهم، التى أسندت ظهورها إلى الحائط لكنهم ولمرة واحدة أو اثنتين، كنت تراهم يفيقون من سباتهم، ليسأم أحدهما الآخر بحكاوى البحر المعروفة، وبالنكات المعادة، التى تحولت فيما بينهم إلى أسرار وأحاجٍ. أظنهم الآن قد حققوا كشفا، فرئيسهم لا يأتى منه ضرر. هكذا سارت الأمور، وخرق أولئك الأكابر من السادة مختلف لوائح سير العمل بالإدارة، بقلوب مطمئنة، وإحساس بالغبطة لأنهم بهذا حققوا المصلحة المرجوة، إن لم يكن لوطنهم الحبيب، فلذواتهم على الأقل. تراهم يتفرسون، من تحت عدساتهم، فى محتويات السفن! ويثيرون ضجة كبرى حول أتفه الأسباب، ثم تعجب كل العجب من بلادة حسهم، بتفلت تلك المحتويات من أيديهم! وحين تحدث بلوى كبيرة، كهروب عربة محملة بالبضائع عالية القيمة، عبر الشاطئ، فى وضح النهار، وربما قد تم تهريبها من تحت أنوفهم التى لا يطالها الشك، فلن يسبق خفتهم وحرصهم فى العمل على غلق ثم إعادة غلق، وتشميع ووضع الخاتم، على كل منافذ السفينة المارقة. وبدلا من الإحساس بالندم على سابقة تقصير، يجنح الأمر إلى طلب مدحهم

لبالغ حرصهم، بعد أن وقعت المصيبة، ومن ثم تقديم خالص الامتنان لفرط حماسهم فى علاج المسألة، بعد أن أصبح لا يجدى معها أى علاج.

من حماقاتي خطب ود الناس، إذا ما اتسموا بعدم القبول، فأنا أضع الجانب الخير فى شخصية الصديق فى المقام الأول، وتلك هى السمة التى أعرفها فى الرجل. وبما أن أغلب أولئك الكبار من موظفى الدائرة، كانوا يتمتعون بالطيب من السمات، وأن مكانتى بالنسبة لهم، هى مكانة الراعى لهم والحريص عليهم، ما هيأ الظروف لخلق مشاعر الود، فقد وجدت نفسى أتجه نحو طلب ودهم جميعا. كان من الأمور التى تبعث على السرور، ظهر أيام الصيف، فى حرارة الجو التى تكاد تصهر البشر، ومع استثنائهم من البشر جميعا، أن الحرارة كانت تمد أبدانهم الخاملة بالدفء اللذيذ، وكنت أتسلى بسماعهم يتحدثون مع بعضهم البعض على سجيتهم، كما هى العادة عند المدخل الخلفى، جالسين فى صف مرتكز إلى الجدار، بينما ذابت فى أفواههم الدعابات التى تجمدت من أجيال مضت، فتصبح زبدا سائلا على شفاههم مصحوبا بالضحكات. يشترك لهو الصغار ومرح الشيوخ فى نواح عدة، فالإدراك العقلى ليس سوى إحساس عميق بالدعابة، ولا شيء سواها، وأن لدى الطرفين شعاعا يتراقص على السطح ليضفى البهجة والإشراق على الغصن الأخضر للشجرة، وعلى جذعها القاتم القديم سواء بسواء. بذلك يصبح الشعاع عند الشيوخ وميضا فوسفوريا يصدر من خشب تالف، بينما يمثل لدى الصغار شعاعا من نور الشمس.

لابد للقارئ أن يدرك أن تقديمى لكل أصدقائى من كبار السن على هذا النحو أنهم كانوا يهرفون، وذلك يعد ظلما بينا لهم. ذلك أن معاونى لم يكونوا من الشيوخ، فمن بينهم من كان يتمتع بكامل قوته وعافيته، وبطاقة كبيرة وقدرة ملحوظة على العمل، والجميع كانوا أرفع منزلة من أن يشغلوا مكانا، تشمله حالة من الدعة والانسيابية، وفى مجال ألقت بهم طوالعهم السيئة إليه. وفضلا عن ذلك فإن خصلات الشعر البيضاء، كانت أحيانا تمثل السقف الهش لبيت العقل، وهو فى حالة جيدة. ولكن بالنظر إلى غالبية مرؤوسى، فإننى لا أظلمهم إن قلت إنهم كانوا جماعة من الأرواح المعذبة والطاعنة فى السن، لم يحصلوا من تجاربهم العديدة فى الحياة شيئًا يذكر. وبدا أنهم قد بددوا كل بذور ذهب الحكمة الحقة، التى سبق أن استمتعوا بالعديد من فرص حصدها، وكانوا الأحرص على حفظ ما لديهم من ذاكرة من قشور هذا الحصاد. كان يدور بينهم الحديث، باهتمام بالغ وحماس شديد، عن مائدة الإفطار أو غذاء الأمس واليوم والغد، وعن حطام سفينة مضى على غرقها أربعون عامًا أو خمسون عامًا، وعن عجائب الدنيا التى سبق لهم أن شاهدوها وهم فى شرخ الشباب.

كان لهم بمثابة الأب الأول لدائرة الجمرك، وهو الشيخ الجليل، ليس فقط لطائفة صغيرة من المستخدمين، بل أجرؤ على القول، لجهاز مفتشى الجمارك المحترم على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية كلها. هذا هو جابى دائرة الجمرك العام، الذى نعتبره الابن الشرعى لجهاز الدخل الحكومى.

ظل وفيا للحزب بعد أن ولد فى كنف السلطة، فأبوه الزعيم الثورى والجابى السابق للمرفأ، قد أنشأ لابنه منصبا، وعينه لشغله، فى باكورة أيام لا يذكرها الآن إلا قلة من الأحياء. هذا المفتش حين تعرفت عليه كان فى الثمانين من عمره، أو يقاربها، وكان فى واقع الأمر كشجرة شاى كندا الأمريكية، التى لا تكتشفها إلا مرة واحدة بعد بحث طويل. تأنق ممشوق القوام، صحيح البنية، وردى الوجنة، فى معطف أزرق، بأزرار لامعة، وتقدم ناشط الخطى، سليم العافية، لا أقصد بذلك أنه كان شابا، لكننى أشبهه بطفرة مستحدثة من طفرات الطبيعة الأم فى رجل لم يمسسه الهرم من بعيد أو قريب. لم يظهر من نبرة صوته وضحكه المجلجل فى أنحاء الدائرة، ما ينبئ عن رجفة فى النطق أو تعثر، كما هو حال الكهول، فالكلمات التى تخرج من شفتيه، أشبه بصياح ديك أو بعزف النفير. لو ركزنا على الناحية الجسمية فيه فما عداها لا يهم فى قليل أو كثير، سنجد ما يشير إلى تمتع الجسد بوافر الصحة، وظائفه تؤدى على أكمل وجه. ما جعله فى هذا العمر، يستمتع بما لذ وطاب مما تصبو إليه نفسه، أو مما يغتنمه لها أو من كليهما. لا يكدر وجوده فى دائرة الجمرك مكدر، فالأجر منتظم، وندرت أو انعدمت الخشية من صدور قرار بإنهاء خدمته، وساهم الاثنان فى أن يقضى وقتا هنيئا بالدائرة. كانت الأسباب الحقيقية لاكتمال تلك الحالة الحيوانية فيه، كامنة فى توافر قدر متوسط من الذكاء، وآخر لا يكاد يذكر من المقومات الروحية والسلوكية، وساهمت الأخيرة بحق، فى وقاية هذا العجوز من السير على أربع. لم يكن للرجل مضاء فى الفكر أو عمق فى المشاعر، أو تأثر بما يضجره، فلا شيء فى آخر الأمر سوى الغرائز التى يقودها

صفو المزاج، الناشئ ودون قصد منه عن سلامة فى البنيان، أدت مهمتها باقتدار تام وتوافق، بمنأى عن القلب.

تزوج ثلاث مرات، وقد توفيت كل زوجاته منذ زمن، وهو أب لعشرين من الأبناء، توفى أغلبهم فى مراحل الصبا والطفولة. ويفترض فى هذا المقام أن تغشى صاحب البال الرائق، مشاعر الأسى، لتتحول به شيئا فشيئا إلى إحساس بالكآبة، لكن المسألة لم تسر على هذا النحو مع مفتشنا العجوز!! فالأمر لم يتعد تنهيدة لم تطل، كانت كافية للإطاحة جانبا بالذكريات المؤلمة.

أعقب ذلك مباشرة إقباله على اللهو، كغر صغير، لا يأخذ بما يفعل، بل كان أكثر استعدادا لذلك من كاتب التحصيل الشاب، والبالغ من العمر التاسعة عشرة، والشاب أكثر الاثنين وقارا.

ألفت متابعة وبحث شخصية هذا الشيخ، بشيء ظننت أنه الفضول الذى تجاوز فى إثارته أية ظاهرة إنسانية وقع عليها بصرى هناك. كان فى حقيقة الأمر إحدى تلك الظواهر النادرة، ذلك أنه فى هذا الجانب من شخصيته قد بلغ الذروة، وبالغ فى التفاهة والضآلة والمراوغة، والسطحية فى جوانبها الأخرى. توصلت فى نهاية الأمر إلى أنه كان بلا قلب أو عقل أو روح، ولا شيء فيه كما ذكرت سوى الغرائز. ورغم تآلف قلة من مقومات شخصيته ببعضها ببراعة تامة، ولم أكن أرصد فى ظاهرها نقصا بعينه، إلا أننى كنت راضيا تماما عما توصلت إليه. كان من العسير حقا التكهن بما سوف يصير فى مستقبله، مع هذا القدر من الانحطاط، والدونية والنهم، ولكننى كنت على يقين من أن وجوده فى هذا المكان، يوحى بأنه باقى هنا حتى

النفس الأخير، طالما كان يفتقر إلى النذر اليسير من الأخلاق الحميدة، إلا قدر ما وهبت بهيمة ترعى فى خشاش الأرض، كما أنه كان يتمتع بقدر يفوق به أقرانه من الحصانة المباركة ضد أمراض الهرم، كالكآبة والسوداوية.

هناك جانب يفوق به أقرانه من ذوات الأربع، هو قدرته على استرجاع وجبات طعام الغذاء الممتازة التى سبق أن سره كثيرا التهامها. كان نهمه إلى الطعام من أكثر سماته قبولا، فضلا عن حديثه عن لحم شواء فاتح لشهية سامعه مثل المتبلات والمحار. وبما أنه لم يكن يحظى بشىء من النبل، ولم يضح فى سبيل أى عطاء روحى أو يمتنع عنه فى سبيل تسخير طاقاته كلها وبراعاته إكرامًا وجلبًا للذة إلى معدته، فقد كان يسرنى دائما ويرضينى سماعه، وهو يطنب فى الحديث فى السمك والدجاج واللحوم، وأمثـل طرق طهوها. ورغم قدم العـهد بوليمـة حقيقية، إلا أن ذهنه كان لا يزال يحتفظ بذكرياتها، فيستحضر مذاق لحم الخنزير أو الديك الرومى تحت أنف سامعيه. وتبقى نكهات الأطعمة عالقة بشدقه فيما لا يقل عن ستين عامًا أو سبعين عامًا، ولا تزال لها نفس طزاجة هبرة الضأن التى التهمها فى إفطاره للتو. كنت أسمعه متشدقا بالحديث عن موائد للطعام، يعتبر الآن كل من دعى إليها نهبا للدود، إلا هو.

كان يدهشنى فى الحقيقة، مثول أطياف موائد الأطعمة، خالدة الذكر أمامه، دون ملل منها أو تذمر، بل امتنانا بسالف احتفائه بها، وأملا فى وصل حلقات لا تنتهى من متعة تحس بها الآن ظاهريا وباطنيا. سيذكر دوما، قطعة لحم طرية من خاصرة خروف، أو فخذ

عجل، أو ضلع خنزير، أو من دجاجة بعينها، أو ديك رومى يبثه جزيل الثناء، فقد تزينت به مائدته على عهد الرئيس "آدامز". سيذكر هذا كله، ولا يذكر شيئا من كل التجارب اللاحقة التى مر بها جيلنا وكل الأحداث التى واجهته شخصيا فى العمل، السار منها والمحزن، فقد مرت عليه كمر النسيم العليل، أما ذلك الحدث المأساوى الكبير فى حياة الشيخ، فكان خيبة أمله الكبرى فى أوزة واحدة، أبدت عصيانا كبيرا على المائدة، حتى أن السكين، قد أخفقت فى إحداث أثرها فى الجسد الذبيح، ولم يكن ليتحقق هذا الأمر إلا على يد منشار أو فأس.

الآن نطوى هذه الصورة التى أسعدنى الإطناب فى رسمها، لأن شخصية كهذه من بين من عرفت، كانت الأجدر بشغل وظيفة فى دائرة الجمرك. ذلك أن أغلب الشخصيات الأخرى كانت متضررة معنويا من نمط الحياة الخاص هنا، ويعود ذلك إلى أسباب، قد تسنح الفرص للإشارة إليها. لم يكن المفتش الشيخ مؤهلا لمثل هذه المشاعر، ذلك أنه لو واصل حياته الوظيفية إلى النهاية، لبقى فى أحسن أحواله كما هو حاله الآن، جالسا على مائدة الغداء، ملتهما وجبته بشهية مفتوحة.

هناك لوحة أخرى لا يكتمل معرض لوحاتى بسواها. لكن الفرص القليلة التى سنحت لرصدها مقارنة باللوحة الأخرى لم تمكننى من رصدها من الخارج. إنها لوحة جابينا الشيخ، وجنرالنا الهمام. عين حاكما لإحدى المقاطعات الغربية، بعد أداء خدماته

العسكرية بامتياز، ثم وفد إلى هنا قبل عشرين عاما ليختم حياته الزاهرة والنبيلة. قارب المحارب الباسل على المنية أو كاد وهو الآن يقضى بقية عمره، بعد أن أثقل المرض كاهله، لدرجة أن الطابور العسكرى الذى طالما ألهب حماسه ذات يوم، لن يقدر الآن على فعل شيء يذكر لبث الهمة فيه، فقد كبلت خطاه بعد أن كان أثناء الخدمة فى مقدمة الصفوف.

لم يكن يقوى على صعود الدرج إلا بمشقة بالغة، متثاقلا بقبضة يده على الدرابزين المعدنى، بمساعدة واحد من الخدم، ويتقدم ببطء واضح نحو مقعده المعتاد بجوار المدفأة. اعتاد الجلوس هناك محدقا فى سكينة تامة فى الرائح والغادى، بين خشخشة الورق والحلف بالأيمان المغلظة، وحوارات العاملين، وحديث المكاتب المكرر، وكل هذه بما حوت من أصوات ووقائع، بدت غير ذات جدوى فى تحريك انتباهه، وكان من الصعب أن تجد لها سبيلا وسط تأملاته. كان الشعور بالرضا والسكينة باديين على وجهه فى لحظة كتلك. فإذا تعمد أحد لفت انتباهه، صدر عنه التعبير بالاستجابة والاحترام، ما يؤكد أن شعاعا من نور لا يزال يتغلغل بداخله، وأن ما بدا منه ليس سوى الأداة الظاهرة لنبراس العقل، ذلك الذى تتكسر عليه أشعة النور فى مسارها. كلما توغلنا وصولا إلى اللب من عقله، كشف ذلك عن سلامته. حين يزول لفت انتباهه بالحديث إليه أو الإنصات له، والاثنان يكلفانه مشقة واضحة، لا يلبث أن يخلد إلى سابق سكينته التى لا يشوبها مكدر. ليس عسيرا أن تلحظ تلك النظرة التى رغم ما يبدو فيها من كآبة، كانت تخلو من بله تحدثه وطأة

الهرم. كانت حالته العامة فى الأصل، من القوة والتماسك لدرجة أن الانهيار لم يكن ليدركه بعد.

كان من الصعوبة بمكان متابعة وتحديد مقومات شخصيته، رغم تلك المزايا، وهى أقرب شبها بإعادة بناء وتجديد حصن قديم، كحصن "تيكوندروجا"، مع وضع أطلاله وحطامه فى الحسبان. فإننا يصدف أن نعثر على بقايا لجدرانه هنا أو هناك، مع ذلك أيضا سنعثر فى أماكن أخرى على ركام هار بلا معالم تذكر، افترشته عبر السنين - بحلول السلام، وعوامل الإهمال - الحشائش والعشب البرى.

تمكنت رغم ما سبق كله وبنظرة تحمل العطف، من ادراك الملامح الأساسية، فى اللوحة التى أرسمها لهذا المقاتل الشيخ، مع انعدام الحميمية فى العلاقة بيننا. كانت مشاعرى نحوه مثل كل من عرفوه من ذوات القدمين أو الأربع، لا يمكن تبادلها إلا على النحو الصحيح. برزت فى تلك الملامح سمات البطولة والنبل التى لا يؤكدها حدث واحد، فقد ذاع صيته بقوة فى هذا المجال، لم تتميز شجاعته على الإطلاق بجهد فوق المعتاد فى أى مرحلة من مراحل حياته.

وذلك لتحريضه على التقدم، بل كان يهب تلقاء نفسه لإزالة العقبات، بحيث لا يتراجع أو ينكص عن الهدف الذى سعى إليه. ما كان يتقق فى الماضى فى كيانه من حيوية، لم تبرد فيه حرارتها بعد، وهى ليست من ذلك النوع الذى يتوهج فى لهب النار ثم يخبو، بل كانت كجذوة نار حمراء، لا يعرف أوارها الوهن، وكنار قطعة من

الحديد فى مستوقد. كانت علامات الثبات والصلابة والشموخ، بادية على وجهه فى حال سكينته تلك رغم البلى الزاحف عليه قبل أوانه، خلال الفترة التى أتحدث عنها. لكننى أتصور أنه كان بمجرد استثارة لأعماق حواسه، يحدثها صوت نفير عال، بدرجة توقظ طاقاته الكامنة فيه بل الغافية، ساعتئذ كان سيصبح قادرا على طرح أسقامه جانبا كما يطرح المريض ثوب مرضه عنه، ليحكم قبضته على سيف القتال ويعود مقاتلا كسابق عهده. أراه هنا فى لحظة مفعمة بتلك المشاعر، لا يزال محتفظا بمظهره الهادئ. ما كان لصورة كتلك إلا أن ترد من الخيال، لأننى لم أكن أحسب حسابها أو أصبو إلى رسمها.. إننى لم أر فيه إلا معالم القدرة على التحمل والصمود، ومادام قد ظهر، أن بقايا "تيكوندروجا" القديمة، هى الشبيه الأمثل، فمن الخير إضافة صفة الإصرار فى شرخ شبابه إلى تلك المعـالم، والاستقامة التى تقع ككل مقومـاته الأخرى، ضـمن كتلة هائلة، لا تطوع أو تلين، بقدر طن من الحديد. ثم يأتى ملمح السخاء الذى جعله يطلق قذائفه ببسالة على قبائل "الشيبووا" أو "حصن أيرى"، ولعلنى أكون قد التزمت نفس طابع الكرم الذى يحرك كل أو بعض الكرام من ناقدى هذا العصر. أعلم أيضا أنه كان يذبح رجالا بكلتا يديه، وأؤكد أنه كان يحصدهم كما يحصد حد المنجل العشب، مواجها الهجوم المفاجئ، الذى أعلنت شجاعته من خلاله عن طاقاته المظفرة، ولكن لنضع هذا الأمر فى نصابه، ذلك أن قلبه قد خلا من إفراط فى الوحشية، إلا قدر ما ينفض جناح الفراشة. إننى لم أكن أعرف الرجل الذى تجعلنى رقة قلبه، أثق تماما فى طلبى العفو منه.

قبل لقائى بالجنرال، كان لابد لكثير من سماته المميزة أن تكون قد زالت أو طواها النسيان، ومعها تلك المعالم التى تسهم بقدر كبير فى إبراز ما يواكبها لرسم صورة أدبية له، فالمناقب العظيمة هى عادة تلك التى تكون عرضة للزوال.

لن تجمل الطبيعة البشر بعد بلوغهم سن الهرم، ببراعم للزهور تجعل فيهم من الجمال والجدة، بجعل الشقوق والصدوع القديمة جذورا لها ومنبعا لقوتها، فى الوقت الذى تقوم فيه بنثر الزهور على الجدران العتيقة بحصن تيوندروجا المحطم. لا يزال هناك فيما يتصل بالجمال والأبهة، أمور لا تقدر بقيمتها الحقيقية، فبين الفينة والفينة، يجد شعاع من خفة الروح سبيلا له، عبر حجاب من الضباب الكثيف، فيسقط ومضه الرقيق على وجوهنا. ظهر سمت الرقة التى جبل الجنرال عليها، فى شغفه بأريج ومرأى الزهور، فنادرا ما تظهر تلك السمة لدى الذكور فى شبابهم المبكر وصباهم. وكان يفترض فى محارب قديم ألا يحوز سوى إكليل من الدم على جبينه، لكننا نرى الآن من تحتفى به، ألا وهى فتاة فى ريعان شبابها تنتمى إلى قبيلة الزهور.

هناك وبجوار المدفأة، اعتاد الجنرال الهمام أن يجلس. بينما كان القياس مغرما بالوقوف على مسافة منه، مع أنه نادرا ما كان يحدث، أو لم يكن يحدث البتة، أن تمكن من تفاديه وهو مار به، فيجره إلى الحديث لاستحالة ذلك. وقف هناك مراقبا محياه، وقد خلد إلى السكينة وأوشك على النعاس، وبدا بمنأى عن الجميع، مع أننا نراه على بعد خطوات قليلة، فى عزلة عنا، مع أننا نمر بجوار

مقعده، بعيد المنال برغم أننا لو مددنا أيدينا إليه للمسناه. ربما كان فى اللحظة تلك، يحيا حياة حقيقية، بين أفكاره، فى بيئة مغايرة، للبيئة المنفرة داخل مكتب الجابى. وربما لا تزال هذه الحياة باقية فى مداركه العقلية، فيها المناورات العسكرية، واحتدام المعارك، وأداء ألحان النصر، بكل ما يتضمن ذلك من صور ومشاهد. فى حين انقطعت تماما أى علاقة له بالرائحين والغادين، بمن فيهم من التجار وربابنة السفن وشباب الكتبة، والبحارة الغرباء، وجلبة الحركة التجارية فى دائرة الجمرك، واتصال ما يدور فيها من حوله من لغط، بشئونهم الخاصة. كان غريبا عن المكان، كسيف المحارب، القديم، بعد أن اعتراه الصدأ وبعد أن كان ذات يوم، يبرق فى جبهة القتال، لكنه لا يزال حتى اليوم يحتفظ بوميض حديه. كان أيضا غريبا عن مكتب نائب الجابى، وهو يجلس بين الأضابير والمحابر والمساطر الخشبية.

دفعنى شىء واحد إلى بعث وإحياء سيرة الرجل الشهم، صاحب القدرات الأصيلة، وهذا الشىء هو استحضار مقولته المأثورة والأثيرة إلى الأذهان: "سأحاول ذلك، ياسيدى"، كانت تلك العبارة تردد لحظة إقدامه على عمل بطولى ميئوس من نجاحه، مستلهما من مدينة "نيو إنجلاند" سمة الشجاعة والروح البطولية، متحسبا لكل المخاطر، مواجها إياها. ولئن كوفئت الشجاعة بوسام النبالة، فإن هذه العبارة تعد أفضل وأنسب من كل الأوسمة، وذلك لأنها حصن الجنرال المنيع، رغم أنها تبدو خفيفة على اللسان، إلا أنه الوحيد الذى رددها فى ساعة الخطر، تسبقه فى ذلك بشائر النصر.

يسهم كثيرا فى سلامة سلوكيات الإنسان وفكره، تآلفه بأناس يختلفون عنه، ولا يعبأون بما يصبو إليه، وهنا يصبح لزاما عليه أن يغلب نفسه لتقبل مقوماتهم الذاتية، والبيئة التى يحيون فيها، وغالبا ما كانت الظروف تسوق لى فرصة كهذه، ولكن لم يسبق أن كانت بمثل هذا القدر من التنوع والنضج، خلال مدة شغلى الوظيفة. كان هناك شخص على وجه الخصوص، قدمت لى متابعتى لشخصيته مفهوما جديدا للموهبة. فمواهبه تؤكد أنه إدارى من الطراز الأول، من حيث صفاء الذهن وحدة الذكاء، واليقظة، ونفاذ البصيرة، ما يجعلها تخترق الحجب، وكانت له قدرة تنظيمية، على تذليل القعبات، وكأن ذلك حدث بإشارة من عصا الساحر. نشأ منذ صبوته فى دائرة الجمرك؛ حيث كانت بالنسبة له، هى المجال الأنسب لممارسة النشاط، وواجهته فى البداية، كثير من المشاكل الإدارية، لحداثة عهده بالإدارة، بالعمل المنظم فى جهاز إدارى كامل من كل الوجوه. كان يمثل فى نظرى النموذج الواضح للطبقة التى ينتمى إليها، وكان بمفرده يمثل دائرة الجمرك بأكملها، أو يعد بكل المعايير، المحور الأساسى، الدافع لعجلة النشاط فيها، فى مؤسسة كتلك، كان يعين مستخدموها، لتحقيق النفع وخلق فرص الراحة لأنفسهم، وكان نادرا ما يعود تعيينهم فى هذه الوظائف لأهليتهم فى أداء الواجب الوظيفى، وكان ينبغى بما فرضته عليهم ظروفهم، السعى فى مكان آخر وراء الحصول على المهارة والخبرة التى يفتقدونها. وهكذا أجبرت الضرورة الملحة، قدوتنا والإدارى الأول أن يفعل ما يفعل المغناطيس ببرادة الحديد، لجذبه كل ما كان يواجه الآخرين من مشكلات إليه، فكان بلمسة واحدة من إصبعه يكشف عما التبس علينا ليصبح واضحا أمامنا، وضوح النهار،

وذلك بتواضعه الجم وأبوته السمحة، فى مقابل ما نحمل نحن من غباء. لم يكن تقدير التجار له بأقل من تقديرنا، ونحن زملاؤه المقربون، كملت الاستقامة فى الرجل، فصارت أحد قوانين الطبيعة لديه، فضلا عن كونها مسألة مبدأ أو اختيار، وتأصيلا لذهن كمل فيه عنصرا الدقة والصفاء، ليضع إخلاصه وانضباطه رهن إشارة العمل بالإدارة. قد تتسبب زلة واحدة على ثوب ضميره رغما عنه، فى قلق كبير للرجل يفوق كثيرا ما يحدثه خطأ فى موازنة حساب ما، أو وجود بقعة مداد أسود فى صفحة بيضاء فى سجل حسابى. فى هذا المكان وفى عبارة واحدة أذكر أننى التقيت الشخص، الذى يناسب بالكلية المنصب الذى يشغله، مع أنه كان نادرا ما تقع لى هذه المصادفة.

هؤلاء هم بعض من وجدت نفسى مرتبطا بهم بعلاقة عمل. وقد أعدت ذلك فى جزء كبير منه إلى يد القدر، التى ألقت بى فى موقع لا يمت لمواهبى الأصيلة بصلة. وعقدت العزم على أن أخرج من هذه التجربة، بأقصى قدر يحقق النفع لى. فبعد ارتباط بالمشاريع الوهمية والعصية على التحقيق، وبعد ارتباط بالحالمين من الرفقاء فى مزرعة "بروك"، وبعد قضاء ثلاثة أعوام متأثرا بمفكر مثل "أيمرسون"، وبعد أيام انطلاق فى العطلات فى "أسابث" تاركين العنان لتأملاتنا حول فكر "أيلارى شاننج"، متحلقين حول جذوة نار من فروع الشجر المتساقطة، وبعد التحاور مع "ثورى" حول أشجار الصنوبر وبقايا الهنود الحمر، داخل صومعته فى "والدن"، وبعد حساسيتى المفرطة لتعلقى بثقافة "هيلارد" مدققا فى فكره الكلاسيكى،

وبعد تشبع بشاعرية "لوفنجيلو" بجوار المدفأة، حان الوقت في نهاية المطاف، الذى يجدر بى خلاله تجربة ما لدى من قدرات أخرى، وأن أزود نفسى بقوت لم تكن شهيتى قد انفتحت له بعد. حتى المفتش الشيخ، كان عندى من المرغوب فيهم، كتغيير لوجبة الطعام، مع العلم بأن الرجل كان يعرف "ألكوت". وقد اعتبرت ذلك من منظور بعينه، خير دليل على وجود جهاز بطبيعته منضبط، ، ليس فى حاجة إلى عنصر مهم فى منظومته الشاملة، وأننى على ما أذكر، وبرفقة هؤلاء الزملاء قد تمكنت من مخالطة رجال تنوعت مشاربهم، ولم يحدث أن تبرموا لوجودى بينهم، بسبب ما حدث من تغيير فى المناصب. أما الأدب بما يجلبه من متاعب وتوجهات، فقد صار الآن مثار اهتمام لى. على أننى لم أكن ألق بالا للكتب وهى بعيدة عنى. فالطبيعة، ولا أقصد هنا الطبيعة الإنسانية، بل أقصد المتجلية فى الأرض والسماء، قد توارت عنى بما رحبت شيئا ما، وغاب عن عقلى بهجته فى أن استدعاءه للخيال كان يمثل مصدر إلهام له.

فإن لم تكن تخلت عنى موهبتى وملكة الإبداع لدى، فإنهما لا يزالان كامنين بداخلى، وفى حالة الترقب. إن ما كان يثير أساى كثيرا، احتمال عدم إدراكى أن الخيار فى هذه المسألة كان يعود إلى أولا وأخيرا، وذلك باستعادتى ما كان من الماضى وهو الذى يمثل فى الذاكرة شيئا ثمينا بالنسبة لى. وكان من الصواب أن مواصلة حياة على هذا النحو، لا يمكن أن تستمر فترة طويلة، دون اتقاء سوء عاقبتها، وإلا صرت شخصا آخر، لن يتغير إلى ما تستحق التضحية من أجله. لكنى لن أعتبر هذه الفترة سوى حالة مرحلية من حياتى.

كانت تسعفنى دائما حاسة التنبؤ، فى صورة همس رقيق فى أذنى، بأننى وخلال وقت قصير، وحين تميل الأمور بالضرورة لصالحى، فإن تغييرا ما سيكون بسبيله للحدوث.

كنت أمارس خلال تلك الفترة، مهنة التفتيش على الإيرادات، فى خير ما تسير عليه الأمور حسب زعمى. فصاحب الفكر والخيال، حتى وإن كان يمـــلك أضعاف ما يملك المـــفتش من ســـمات، فإنه سيصير يوما ما إداريا لا يشق له غبار، خاصة لو اختار تجنب الوقوع في أتون المشاكل. لم يكن زملائى فى العمل ولا التجار أو ربابنة السفن الذين دفعتنى واجباتى المهنية للتعـــامل معـــهم، ينظرون إلى على نحو يختلف عما أنا عليه، وربما كانوا لا يتعرفون فى شخصيتى على سمات أخرى، غير كونى كبير المفتشين فى دائرة الجمرك. ولا أظن أن أحدهم سبق أن قرأ صفحة واحدة من أعمالى المنشورة أو آبه بقراءتها حتى من باب المجاملة، وأشك أن يتحسن هذا الوضع ولو بقدر ضئيل، حتى لو أن نفس الصفحات التى لن يأتى من ورائها نفع لهم، كتبها "بيرنز" أو "شوسر" والاثنان كانا فى أيامهما موظفين مثلى فى دائرة الجمرك. كان هذا الدرس مفيدا لى، وذلك إن لم يكن قاسيا على، وأنا الرجل الذى طالما حلمت بشهرة في مجال الأدب، وبأن أجعل لنفسى مكانة مرموقة بين البارزين فى هذا المجال، كى يتجاوز الطوق المحكم، الذى أقر داخله بحقوقه، ليكشف عن ضآلة ما حققه خارج ذلك الطوق وعن قدر ما كان يصبو إلى تحقيقه. لم أكن أعلم أننى كنت فى حاجة ماسة إلى هذا الدرس على وجه الخصوص، باللوم أو التحذير. لكننى على أية حال قد استوعبته

كلية؛ حيث لم يترك لى فرصة للتفكير، بأن الحقيقة إذ تدق بابى الآن، فإنها لم تحدث لى وخزة ألم قط أو تطلب وضوحها مجرد زفرة ألم.

كان يقوم بالتحاور معى فى الشأن الأدبى، ضابط بحار، وهو شخص نابه، وفد إلى الإدارة وقت قدومى إليها.

لم يقض بها سوى فترة قصيرة ثم رحل عنها، وكان فى الغالب ينضم إلى للتحاور فى موضوع أو آخر من موضوعاته الفضلى، نابليون أو شيكسبير. اعتاد كاتب الإيرادات الشاب أيضا بين الفينة والأخرى، التحدث إلى حول الكتب، وهذا ما كنت أجيد التحدث فيه، وكان يدور همس حول هذا الشاب، فى أنه كان بين فترة وأخرى يملأ صفحة من أوراق العم "سام" الحكومية، بما يبدو أنه شعر، وأن ذلك كان يحدث على بعد ياردات قليلة منهم. هذه كانت كل صلتى بالأدب وقد أوفت برغباتى الضرورية.

لم أعد أعبأ أو أسعى إلى أن يطبع اسمى بالبنط العريض على أغلفة الكتب، وتبسمت وقد خطرت ببالى طريقة أخرى للشهرة. فقد قام خطاط دائرة الجمرك بوضع اسمى، بالحبر السود فوق أكياس الفلفل، والسلال الأناضولية، وعلب السيجار، والبالات، وكل أصناف البضائع الخاضعة للرسوم الجمركية، وذلك فى حد ذاته كان تصريحا بخروجها من الدائرة خالصة الرسوم. كان هذا الإعلان عن وجودى يحمل إلى أقصى أصقاع الأرض، إلى أماكن لم يكن ليبلغها من قبل وآمل ألا يبلغها من بعد.

الماضى لا يموت، والأفكار التى كانت نشطة نابضة بالحياة منذ وقت بعيد، والتى خلدت إلى السكينة، تعود الآن إلى الوهج. كان من العلامات الفارقة، فطنتى كعادة الأيام الخوالى إلى وضع تلك فى نطاق التزامى الأدبى، كى أقدم للقراء الصورة الأدبية التى أصور مشاهدها الآن.

كانت فيما يتصل بالحديث عن دائرة الجمرك، توجد إحدى الغرف الواسعة، التى لم تكن جدرانها بالمقامة بالآجر وعوارض سقفها الخشبى قد دهنت بالطلاء، أو لصقت بورق الحائط. كان المبنى الذى صمم أصلا بمقياس رسم يتناسب مع حجم النشاط التجارى القديم للمرفأ، ومن منطلق ما كان ينتظره من رواج، لم يتحقق له حتى الساعة، كان يضم مساحة لم يعرف شاغلوها كيفية الاستفادة منها. ومع ذلك فالقاعة الكبيرة المذكورة والتى تقع فوق مكاتب المحصلين، ظلت حتى الآن دون تشطيبات.

ورغم تكاثر خيوط العنكبوت بفعل الزمن بما حجب عنها الضوء، إلا أنها كانت لا تزال تنتظر النجار والحداد. تكوم بأحد أركان الغرفة القصية، عدد من البراميل، الواحد فوق الآخر، يحوى كل منها أكداسا مكدسة من المستندات الحكومية. تفترش أرضية الغرفة أكوام من النفايات من نفس الفصيل. كان من المؤلم للنفس أن تتعاقب الأيام والشهور والسنين، ويستنفد كل هذا الجهد فى تحرير تلك الأوراق الصفراء البالية.

لم تعد الآن سوى كم ملقى على الأرض، ثم توارت فى هذا الركن المنسى، كى لا تقع عليها عين إنسان. لكن ما بال تلك الأكوام

واضحة المعالم، وقد حررتها عقول مبدعة، ومشاعر فياضة، بثها أصحاب القلوب الكبيرة. لقد ذهبت كلها طى النسيان، ودون أن تحقق المنشود من تحريرها فى زمانها، وصارت كسائر الأكوام، بل لم تكن لتجلب لمحرريها بأيديهم ما كانوا يأملون من بحبوحة فى العيش، وذلك هو ما حققه كتبة الدائرة بخربشة أقلامهم. قد لا تكون كلها غير ذات قيمة، لأنها تعد مادة يستقى منها تاريخ المدينة. لا أشك أيضا أنها تتضمن إحصائيات لتجارة مدينة "سالم"، وذكريات عن روادها من التجار، كالملك "ديربى الكبير"، و"بيلى جراى الشيخ"، و"سايمون فورستر الشيخ"، وآخرين ممن لمع منهم كل فى زمانه، هؤلاء يستحيل أن تجد له فى قبره أثرًا، بعد أن تحللت جمجمته قبل أن تبدأ ثروته الهائلة فى التناقص. ربما نستطيع الآن حصر العائلات الأرستقراطية فى مدينة سالم من خلال هذه الأوراق، منذ بداياتهم المتواضعة ورغم وعورة المسالك، وخلال العهود التالية للثورة لأسمى مما يتطلع إليه أبناؤهم من مكانة راسخة.

خلت دائرة الجمرك أو كادت من سجلات للمحفوظات، عهد ما قبل الثورة، فكان يمكن نقل المستندات القديمة، والسجلات إلى "هاليفاكس"، حين كان المستخدمون لدى الملك، يرافقون الجيش البريطانى عند جلائه عن بوسطن. ومن دواعى الأسف أنه ربما كانت هذه الأوراق فى عهد الحماية البريطانية (البروتكتورات)، تتضمن معلومات لا بأس بها تنسب لأشخاص معروفين، وآخرين دخلوا دائرة النسيان، أو ربما كانت تتعلق بتقاليد قديمة، كانت ستحدث

فى أثرها، بمثل ما كانت تحدثه مشاعر الابتهاج التى رسختها عادة التقاطى رؤوس السهام الهندية، فى الحقول القريبة من "أولد مانس".

وكان من حسن طالعى، ذات يوم مطير، قلت فيه حركة العمل، أن تحقق لى كشف سهل. فبعد بحث وتنقيب فى المهملات فى ركن القاعة القصى، وحين كنت أفض مستندا بعد آخر، وأطالع أسماء السفن الغارقة منذ عهد بعيد، والتى كهنت فوق أرصفة المرفأ، وأقرأ أسماء التجار الذين لم نعد نسمع عنهم شيئا الآن، بعد ما طرأ من تغييرات، ولم تعد لدى أحد الرغبة فى فك طلاسم تلك الأسماء فوق شهود قبورها وقد افترشتها الطحالب بعد أن انتابنى إحساس بالأسى والقلق، وبالنفور الذى نبديه حين نقف أمام جثة هامدة، حفزنى خيالى الخامل لعدم الممارسة، على الخروج من هذه العظام النخرة بصورة واضحة المعالم، للمدينة القديمة حين كانت إقليما هنديا حديثا، و"سالم" وحدها التى عثرت عليها. تصادف بعد ذلك أن وقعت تحت يدى لفافة صغيرة، مطوية بعناية فى أوراق رقيقة. بدت اللفافة أقرب إلى المحاضر الرسمية، التى مضى عليها زمن طويل، حين كان الكتبة ينسخون بالخط القديم المغلظ، فوق أشياء تفوق فى أهميتها ما لدينا الآن من أشياء. عجل ما يدور حول هذه اللفافة بتحريك غريزة الفضول لدى وجعلنى أفض الشريط الأحمر الباهت، الذى يلفها، مع إحساسى بأن كنزا ما، كان فى الطريق للكشف عنه. بفضى الطيات السميكة، فوق الورق الرقيق، وجدت ما يبدو أنه تفويض ما، بخط وتوقيع الحاكم "شيرلى"، يوصى فيه بتعيين المدعو "جوناثان بيو" كمفتش لجمرك جلالة الملك فى مرفأ "سالم"، بمقاطعة خليج

"ماساشوستس". تذكرت أننى كنت قد قرأت، ربما فى حوليات "فيلت" شيئًا يتعلق بوفاة السيد "بيو"، منذ أربعين عامًا، وقرأت شيئًا مماثلاً فى صحيفة الأزمنة الحديثة، بشأن نقل رفاته فى الجبانة القديمة بكنيسة القديس بطرس، أثناء التجديدات التى تجرى على مبنى الكنيسة، وإن أسعفتنى الذاكرة فيما قرأته بالصحيفة، فإن سلفى المحترم لم يخلف شيئا خلا هيكل عظمي ناقص، وبعض أثمال من ثوبه، وباروكة شعر جعدة، يلفها الوقار، ولا تشبه الرأس التى وضعت عليها يوما ما فى شيء؛ لأن الباروكة كانت بحالة جيدة. لكننى وجدت لدى فحصى الأوراق التى غلفها التفويض الرقيق، المزيد مما تركه السيد "بيو"، فيما يشير إلى حالته الذهنية، والأفكار التى احتوتها رأسه، بأكثر مما حوت الباروكة الجعدة، تلك الجمجمة الوقور.

كانت الأوراق فى مجملها عبارة عن عدة وثائق غير حكومية، لكنها ذات طبيعة خاصة، أو أنها كتبت على أقل تقدير بجهده الذاتى، وواضح أنها سجلت بخط يده. يمكننى الزعم بأنها ما وجدت بين هذه المهملات إلا لأن وفاة السيد "بيو" قد حدثت بغتة، وأن هذه الأوراق من المرجح أنه احتفظ بها فى مكتبه، ولم يعلم من حل محله فى الوظيفة شيئا عنها، أو افترض وجود صلة لها بالتحصيل الجمركى. وعند نقل المحفوظات إلى "هاليفاكس"، لم يظهر أن أحدا قد ألقى أدنى اهتمام بهذه اللفافة، مؤكدا أنها ما تركت إلا لأنها لا تحمل صفة رسمية.

بقيت مكانها ولم يلتفت إلى فضها أحد. أزعم أن المفتش الأقدم، كان بسبب إحساسه بالملل، يخصص جزءا كبيرا من فراغه المتصل، فى بحث التراث المحلى القديم، وفى أبحاث أخرى من هذا القبيل، وكانت تلك بمثابة إضافة له لبث الحيوية، لعقله، الذى لو واجه عكس ذلك، لتعرض لصدأ يلتهمه إلتهاما. إن ما تركه لى كان فيه خدمة جليلة لإعدادى مقالا بعنوان "الشارع الرئيس"، أدرج فى الكتاب الحالى بعنوان آخر. أما بقية ما ستقدمه تلك الأوراق، فربما يكون مطلوبا لتحقيق أهداف بذاتها، لن تكون قليلة القيمة، من الآن ولا حتى فى المستقبل. ولا يستبعد أن تؤدى تلك الأوراق دورا كبيرا فى إحياء تاريخ مدينة "سالم" الحقيقى. وسوف تقع بالتأكيد فى يوم ما فى حوزة أحد السادة الأكفاء، ممن يهمهم الأمر، فأسلمه إياها دون مقابل، ولكنى لحسم هذه المسألة، رأيت أن أودعها جمعية "أيسكس" التاريخية.

لكن ما شد انتباهى فى اللفافة العجيبة، قطعة حمراء من القماش، مهترئة وباهتة. بها آثار حياكة بالإبرة بخيوط مذهبة، ضاع بريقها وزال ولم يبق بها سوى تلك البقايا. كان التطريز بهذه الطريقة يعكس براعة مذهلة فى فن الحياكة بالإبرة، وأن غرزة واحدة فيها كانت تقدم الدليل على أن هذا الفن قد انقرض، والذى أكد لى ذلك، ما يدور بين النسوة فى هذا الشأن، وما من سبيل إلى استعادة هذا الفن لمكانته، حتى لو تم بطريقة التقاط الخيوط. بعد فحص دقيق لخرقة القماش البالية، قرمزية اللون، وأقول خرقة لتضاؤل حجمها بفعل الزمن وتلف العثة، تبين لى أنها تشكل الحرف A وهو الحرف

الهجائى الكبير. ظهر أن طول كل ضلع فيه، مع دقة فى القياس، يساوى ثلاث بوصات وربع البوصة. كان يمكن الحكم على نوع القماش، وليس فى هذا أدنى شك، بأنه سبق استخدامه كأداة للتزين به، ولكن كيفية الظهور به، والمنزلة الاجتماعية التى كانت تستخدمه، ومكانة هذه الفئة. كانت تلك الأمور تمثل لى لغزا، لأن تلك الطرز على خصوصيتها اندثرت، ولهذا بدا أن الأمل فى حل تلك المعضلة كان ضعيفا. أصبحت الخرقة موضع اهتمامى. تشبثت عيناى بالحرف القرمزى البالى، ولم تتحولا عنه، فهناك بالتأكيد سر خاص فى هذه المسألة، يستحق البحث. كان اللغز الذى أحدثته الشارة العجيبة، بارعا فى إيجاد صلة له بإدراكى العقلى، بتجنب تعرضه لتحليلاتى المنطقية.

وبعفوية شديدة وضعت قطعة القماش على صدرى، وأنا مشتت الفكر، مقلبا فى ذهنى لكل الفروض، فيما لو أن هذا الحرف كان أداة للتزين، اعتاد البيض ابتكارها، للفت أنظار الهنود الحمر. وسيضحك منى القارئ، ولكن ليس عليه أن يسىء الظن بى، إن قلت إننى أحسست بشىء روحانى فى مجمله، بل كاد أن يكون إحساسا بحرارته الشديدة، كأن الحرف ليس مجرد خرقة حمراء بل كان قطعة حديد حمراء الوهج. انتابتنى رعدة، فألقيته من فورى على الأرض.

وبين تفكير عميق واستغراق فيه حول ماهية الحرف القرمزى، قد فاتنى فحص لفافة من الورق القديم، كانت مطوية حوله، فضضتها، وسررت أنها كانت مكتوبة بريشة المفتش "بيو"، وكان فيها ما يشرح الأمر برمته. كانت اللفافة مكونة من أربع صفحات، من

القطع الكبير، وكان تتضمن أشياء تتعلق بسيدة تدعى "هيستير براين"، وأنها كانت إحدى الشخصيات الأثيرة لدى أسلافنا القدامى. ذاع صيت هذه المرأة، وانتشر في الفترة ما بين أيام "ماساشوستس" الأولى، وأواخر القرن السابع عشر. وكان المعمرون والمعاصرون للسيد "بيو" يذكرونها، فكانت روايته عنها كما وردت على ألسنتهم، وأنهم كانوا يذكرون أنها كانت امرأة وقور طاعنة في السن.

اعتادت بعد يوم مشهود في حياتها، التجول بأنحاء البلدة كممرضة متطوعة. تبذل ما وسعها من جهد في العديد من أعمال البر، ملزمة نفسها، ما بقى لها من عمر بتلك التوجهات، فاكتسبت تقدير الناس بهذه الطريقة، بقدر ما يبدونه نحو ملاك، لكن آخرين، ولابد لي من تصور ذلك، كانوا ينظرون إليها على أنها دخيلة عليهم ومتطفلة.

بتدقيقي مليا في المخطوط، وجدت فيه تسجيلا لأمور أخرى تتعلق بتلك السيدة البائسة فيها قدر كبير من المعاناة، وسيتابع القارئ أغلب ما وقع لها في رواية بعنوان "الحرف القرمزي". ويجدر بالقارئ أن يعي جيدا أن أحداث الرواية الأصلية. قد تأكدت صحتها عندي من خلال ما ورد بأوراق حضرة المفتش القديم "بيو" الأصلية.

ها هي ذي قد وقعت في حوزتي ومعها الحرف القرمزي، الذي أثار فضولي بدرجة كبيرة، كل هذا سيقدم ودون مقابل يذكر لمن يدفعه ولعه بالرواية للاطلاع على هذه الأوراق. وينبغي ألا يفهم يقينا، أنني بتصويري للأحداث، وتخيلي للدوافع الحاكمة في العلاقات بين الشخصيات، قد زججت بنفسي داخل الأطر التي اختطت في

الصفحات الست، والخاصة بالسيد "بيو". لكننى على العكس من ذلك، أرى أننى سمحت لنفسى كما يحدث فى مسائل كهذه، فى الكل أو البعض، بالتحرر من الأوراق، وكأن الأحداث الواردة بها، قد استخلصتها كلها من بنات أفكارى. لكن ما أؤكد عليه فى هذا المقام، صحة ما ورد من أحداث فى موجزها.

أعادت هذه الحادثة عقلى إلى مساره الأول. فها أنذا أقف أمام بنية أساس لكتابة قصة. وشعرت كما لو أن السيد "بيو" هو الذى التقى بى، بنفس هيئته وقد مضى عليها المائة عام، وعلى رأسه باروكته الخالدة، تلك التى ووريت معه فى قبره والتى لم تبل بعد. التقانى فى الحجرة المهجورة فى دائرة الجمرك. بدت عليه سيماء نبل من حمل تفويضا من جلالة الملك، واستضاء وجهه بنور المجد المتألق حول العرش الملكى. لكن، يالبؤس ما بدا عليه فى هذه اللحظة، وعلامات الأسى ظاهرة فوق جبينه، وهو واحد من موظفى الجمهورية الكبار، يعمل فى خدمة الجميع، ويشعر الآن أنه أقل قدرا من أدنى رؤسائه بل أدنى من الجميع. بيد طيف، ونظرة عين تحمل الغموض، وبهيئة وقور، سلمنى الشارة القرمزية واللفافة الصغيرة، التى تتضمن المخطوط الشارح للأمر كله، تحدث طيفه مستحثا إياى كواجب مقدس أحمله على عاتقى، وكتقدير كبير أكنه له، وكان منطقيا أن يشير إلى نفسه بالمفتش القديم، فطلب منى أن أقدم ما رشح عن أفكاره إلى الناس، بعد أن طاله التلف وهرأته الآفة. قال لى طيف المفتش القديم "بيو" مؤكدا قوله بإيماءة من رأسه التى بدت أكثر هيبة تحت الباروكة الخالدة: "افعل هذا، واقطف وحدك الثمار، فسوف تحتاجها فى القريب

العاجل، لأن أيامك تختلف كثيرا عن أيامنا تلك، وقت كان الموظف أجيرا، وتراثا أبديا يورث، لكننى أحملك المسئولية بشأن السيدة العجوز "هيستير براين"، بأن تمنح سلفك ما يستحقه بالفعل من تقدير! وقلت للمفتش المحترم "بيو": "سأحقق لك ذلك".

هكذا كرست فكرى كله فى قصة "هيستير براين".

ظل هذا الأمر شاغلى ساعات عدة، أذرع خلالها أرض حجرة مكتبى جيئة ورواحا، وأكرر قطع المسافة ما بين الباب الأمامى لدائرة الجمرك، والمدخل الجانبى مرات عدة. أصاب ضجر بالغ، كلا من المفتش الشيخ، والوزانين والقياسين، لأننى سببت لهم كبير قلق، بسبب خطواتى الدؤوب غدوا أو رواحا. لقد استرجعوا سالف عاداتهم، فزعموا أن المفتش إنما يقوم بالتنزه على ظهر سفينة من السفن. وربما صوروا لأنفسهم أن مرادى الأوحد، والذى يدفع عاقلا مثلى إلى إلزام نفسه بحركة دؤوب كتلك، كان فتح شهيتى لطعام الغداء. وأقول توخيا للصدق أن شهيتى زادتها انفتاحا ريح الشرق التى تهب عادة عبر الممر، و تعد تلك نتيجة مثمرة لجهد لم يكن له أن يهدأ. لم يكن الجو فى دائرة الجمرك مهيئا لحصد الخيال، أو لتلطيف الوجدان، وأشك بأنى إن بقيت فى دائرة الجمرك لعشر دورات رئاسية قادمة، فلن تخرج إلى الوجود قصة الحرف القرمزى. كان خيالى مرآة فقدت بريقها، وما أظن أن تنعكس عليها تلك الأخيلة التى أبذل لشخصنتها جهدا ولو حتى تضمن شيئا من الضبابية. وبذلك لن تبعث الحياة فى الشخصيات أو ترسم طواعية فى مخيلتى، ولو بطاقة تمكننى من تزويد فكرى به. وما كان لها أن تحظى بدفء فى

المشاعر ورقة في الوجدان، بل ظلت تحتفظ بيبوسة جيف الموتى، وها هي ذي تحملق في وجهي باستهجان بغيض لا يخلو من سخرية، ولسان حالها يقول: "ما شأنك بنا؟ لقد فارقك ما كنت تحظى به من بعض قدرة علي امتلاك ملكة الخيال! وها أنت قد ضحيت به لقاء بعض عملات الحكومة الذهبية، فاذهب إذا وتقاض راتبك!"

ضحكت من بلاهتي مخلوقات صنعها خيالي، وما كانت سخريتها دون سبب مقنع. لم يكف شعوري بالتبلد وهو ما استحوذ على ثلاث ساعات ونصف الساعة، بل أبي العم "سام" إلا أن يشاركني حياتي فيها، وصاحبني في التجول على شاطئ البحر والتطواف بضواحي البلدة، وما كنت أفعل هذا إلا في النادر القليل، حين كنت أحفز نفسي على اقتفاء أثر جمال الطبيعة الخلاب، ليمد أفكاري بالحيوية والانتعاش.

لازمني نفس الإحساس، في اللحظة التي كنت أعبر فيها عتبة البيت القديم، لينبئ عن تراجع قدراتي الذهنية عن التفكير، بعد عودتي إلى المنزل. وألقى علي بثقله، بعد دخولي الحجرة التي كنت اعتبرها عبثا مكتبا لي. لم يفارقني هذا الشعور حتى ساعة متأخرة من الليل، حين جلست في البهو الخالي والذي لا تضيئه غير نار المدفأة وضوء القمر، مستغرقا في رسم مشاهد من الخيال، آملا أن ترى النور في الغد، فوق الصفحة البيضاء في صور زاخرة بالألوان.

لو أن ملكة التخيل، أبت أن تؤدي دورها في مثل هذه الساعة، لعد ذلك أمرا ميئوسا منه. فضوء القمر، الأشهب، والساقط فوق السجادة، والكاشف بكل التفاصيل، في دقة لا يبديها نور الصبح أو

الظهيرة، كانت الوسيلة المثلى لتعامل الكاتب مع ضيوفه المتوهمين. روح هذا النور العجيب، المشهد الداخلى، بكل ما يحوى من موجودات ظاهرة، فى غرفة طالما ألممت بداهة بمحتوياتها، فى مقاعد لكل منها صفاته المميزة، ومائدة فى وسطها لا تزال محتفظة بسلة الحياكة، ومجلد أو اثنين، ومصباح ذابل ضوؤه، وأريكة وخزانة للكتب، ثم لوحة على الجدار، وتكاد كل هذه الأشياء تتخلى عن صفتها المادية لتتحول إلى مخلوقات عاقلة. وما من شيء كان بالغ الصغر أو تنعدم قيمته فيما طرأ عليه من تغيير، إلا واكتسب صفة الهيبة. اكتسى بسمات من الغرابة والعزلة، كل من حذاء الطفلة والدمية وقد استقرا فى العربة الصغيرة المزعجة، والحصان الخشبى الهزاز، سواء نقل من مكانه أو استخدم فى اللهو أثناء النهار، مع أنها كلها كانت تحتفظ برونقها كما كان حالها فى الصباح. كذلك كان الحال مع أرضية الغرفة، كما هو العهد بها، والتى تحولت إلى منطقة محايدة، واقعة بين عالمنا المادى المحسوس، وعالم السحر، حيث يلتقى الخيال بالواقع، فيتشكل كل منهما بطبيعة الآخر. قد تدخل الأشباح دون ترويع لأحد، وقد يزيد على طاقة احتمالنا التواصل مع المشهد بعد المباغتة، ذلك لو أننا نظرنا حولنا واكتشفنا أن شيئا كان أثيرا لدينا، وجدناه بعد أن رحل عن المكان، منذ زمن، جالسا فى سكون وسط فيض من نور القمر الساحر فى صورة تجعلنا نشك، فيما لو أنه قد عاد إلينا من مكان قصى أو أنه لم يبرح البيت أصلا.

كان لنار المدفأة الخابى فعل السحر فى خلق ما أنا بصدد وصفه من حال طرأت على المكان.

ألقى هذا الأثر مسحة من حضور مرغوب إلى النفس عبر الغرفة، مع حمرة باهتة على الجدران والسقف، وبريق عكسه ومض الأثاث، ليبث هذا الضوء المصحوب بالدفء، بروحانية نور القمر البارد، وليوثق كما هو الحال، العلاقة بين مشاعر البشر الرقيقة وتلك الصور المستعارة من الخيال. تتحول من أخيلة خاملة إلى رجال ونساء. وبلمحة فى المرآة، بدا في عمقها المسكون، وهج النار الخابي لفحم الأنثراسيت، وضوء القمر الأشهب، ساقطا على أرض الغرفة، وتعددية للظل والنور فى المشهد، مع تحلل كبير للواقع، واقتراب من الخيال. ولو وقف إنسان أعزل فى لحظة كتلك، مواجها مشاهد على هذه الشاكلة، ثم عجز عن أن يحلم بما يغير به الواقع المعيش، ليحوله إلى ما يقارب الحقيقة، فنصيحتى ألا يحاول كتابة قصة أبدا. كان نور القمر وضياء الشمس بالنسبة لى، خلال تجربتى بدائرة الجمرك، لا يزيدان ولو مثقال ذرة عن وميض شمعة من الشحم، بعد أن غاب عنى ما فيهما من مؤثرات طبيعية، وما ارتبط بهما من عطاء، وفيهما أغلى ما استطيع الحصول عليه بغير مقابل من جاه أو ثروة.

ونتج عن تقليبى للأمر، حقيقة أننى لو كنت قد جربت لونا آخر من ألوان الكتابة، ما كان لملكاتى أن تركن للعجز والضآلة.. وكنت سأقنع نفسى بتسجيل ما يرد على لسان أحد الزائرين من قباطنة السفن من حكى، أو عن مفتش من مفتشى دائرة الجمرك، ممن لا أجحد ذكرهم، حيث لا يمر يوم دون أن يثير أحدهم ضحكاتى أو إعجابى بمواهبه فى الحكى، ولو أننى احتفظت بقوة الجذب فى أسلوبه، وبالطريقة المرحة التى علمه تكوينه العام، كيفية تحميلها على

تفاصيل سرده، فإننى أعتقد وبحق فى إمكانية تقديم شيء جديد فى مجال الأدب. أو أكون بذلك قد تمكنت من العثور على مهمة تحمل قدرا أكبر من الاهتمام. كان من الحمق لمسايرة هذا اللون الرتيب من الحياة، بعد أن صار عبئا ضاغطا على، أن أحاول جاهدا الانسحاب منها إلى عصر آخر، أو الإلحاح فى ابتكار مثيل له فى عالم خلا من أى مضمون، وفى وقت كانت فقاعة الصابون الجميلة التى لدى، بسبيلها إلى الزوال بسبب الارتباط الشنيع ببعض حوادث الواقع المعيش.

وحتى يتغلغل الفكر والخيال عبر مادة الحياة اليومية السميكة، ولجعلها أكثر إشراقا، كان لابد من تخفيف عبئها اليومى الثقيل، بالسعى بإرادة قوية خلف قيمة حقيقية ثابتة، توارت خلف وقائع الحياة المملة والتافهة، بشخوصها المألوفة، التى كثيرا ما كنت أبادلها الحوار. كان الخطأ يعود على، فصفحة الحياة المنشورة أمامى، بدت رتيبة قاتمة، لا لشيء إلا أننى لم أكن أفهم معناها الحقيقى. فالكتاب الذى يفضل ما كنت أقدم على كتابته، كان منشورا هناك تقدم لى صفحاته نفسها، صفحة وراء صفحة، كما كتبها واقع اللحظة المنصرمة أولا بأول، ثم ها هى تختفى بنفس السرعة التى كتبت بها، لا لسبب إلا لأن عقلى رغب فى بحث تفاصيلها، بعد أن احتاجت يدى إتقان تسجيلها. وقد يأتى اليوم الذى أتذكر فيه بعض ما تناثر وتفرق من فقرات، أسجلها كتابة، لأرى بعينى الحروف وقد تحولت فوق الصفحات إلى ذهب.

تأخر كثيرا ورود أفكار كتلك إلىَّ، كنت لا أدرك فى لحظة كتلك، بأن ما كان يبعث فى النفس الرضا ذات يوم، صار الآن حرث البحر. ولم يكن هناك وقت للعويل فى حال كهذه. ذلك أننى كنت قد توقفت عن كتابة القصص التافهة والمقالات، وأصبحت مفتشا للجمارك، يشار إلى بالبنان. ذلك كل ما حدث. ومع ذلك فإنه يمكن للمرء قبل كل شىء أن يكون مسكونا بشك يبدد عقله بددا أو يطير به، دون أن يدرى، كتطاير الأثير من قنينة، لن تلمح كل مرة تنظر فيها إليه سوى قليلا من راسبة سريعة الزوال. لم يكن هنالك شك فى أننى حين بحثت فى نفسى وفى نفوس الآخرين، توصلت إلى نتائج ترتبط بأثر العمل الحكومى على شخصية الفرد، ولم تكن النتيجة فى صالح صورة الحياة وسط هذا المجال. ويكفى فى هذا المقام القول بأن الموظف فى دائرة الجمرك، مهما طال بقائه فى وظيفته، لن يتمكن من أن يكون شخصا ذا قيمة أو يكون جديرا بالاحترام. ذلك لعدة أسباب؛ أحدها قدر المدة التى يشغل فيها الموظف وظيفته، أما الآخر فهو طبيعة العمل المنوط بأدائه، والذى أثق بأنه أوجه الأسباب؛ لأنه بحسب طبيعة العمل الذى سيمارسه، لن يسهم بشىء يضاف إلى الجهد العام.

هناك أثر أظنه يستحق الدراسة بصورة أو بأخرى لدى كل شخص يشغل منصبا وظيفيا، هو أنه فى الوقت الذى يستند الموظف إلى ساعد الجمهورية المفتول، يكون بذلك قد تخلى عن قواه الحقيقية، وفقد قدرا كبيرا من إمكانية اعتماده على ذاته، وذلك فى ضوء قوة أو ضعف ملكاته الأصلية، لكنه يستطيع استعادتها شرط أن يتوفر لديه

قسط وافر من الحيوية قد نشأ به، وأن سحر المكان الطاغى لم يترك أثره ممتد المفعول عليه. وللموظف المطرود من الخدمة أن يراجع نفسه، بعد أن كان من حسن طالعه أن رحيله عنها غير مأسوف عليه، فيلقى به طالع سعده وقبل فوات الأوان إلى معترك الحياة، ليحقق ما كان يصبو إليه. لكن ذلك لا يحدث إلا نادرا. لأنه عادة ما يتمسك بموقعه مدة تكفى تعريضه للفشل، فيطرد جبريا، ليواجه الانهيار. نراه بعد ذلك يتطلع إلى من يمد يد العون له، بعد أن أدرك ضعفه وهوانه على الناس، وبعد أن يكون قد فقد صلابة معدنه، أو قابلية هذا المعدن للمرونة. وبعد أن تنتابه الهلاوس وهو قيد الأحياء، لكل ما واجهه من محبطات، واستخفافه بالصعاب، وإنى لأتخيله كمريض الكوليرا بعد أن أصابته بالتشنجات التى تصاحب المريض، فترة قصيرة بعد الوفاة، وبعد هذا كله يصبح رجاؤه الملح والمعلن فى آن، عودا حميدا إلى الوظيفة، بعد مدة يرى أنها يجب ألا تطول، حين تسوق إليه الظروف شيئا من محاسن الصدف. يسلب هذا المعتقد أكثر من أى شيء آخر، الأمل فى النجاح والإحساس بأهميته، عند شروعه فى مشروع يحلم بتحقيقه. فلماذا إذن ينبغى أن يكد ويكدح، ويزج بنفسه فى المشاكل، كى ينتشل ذاته من الوحل، طالما وخلال فترة لا تطول، سيتحرك ساعد عمه المفتول "سام"، لإغاثته؟ فلا يجدر أن يعمل هنا لكسب عيشه أو يذهب إلى كاليفورنيا للبحث عن الذهب طالما كانت السعادة فى انتظاره، مع كم العطلات الرسمية، وكومة صغيرة من العملات المعدنية من جيب العم "سام"، ومن الفضول المثير للأسى أن نرى ولعا منفرا بما يسد الرمق بالكاد من شغل الوظيفة، ليصيب بالعدوى إنسانا بائسا بهذا الداء الغريب، ونرى هنا

أن ذهب العم سام، مع احترامى المستحق للشيخ، يحمل ما حمل السحر من سمات، فإنه فى ذلك أشبه بأجر الشيطان، وعلى من يمسس هذا الأجر الزهيد أن يراجع نفسه جيدا، وإلا وجد رهانه قد ارتد إليه بعنف، ودمر فى طريقه إن لم تكن روحه كلها، فالكثير من مناقبها الحسنة، من صلابة وعزم وشجاعة، وإيمان وثقة، كان يوليها إياها، وكلها دعائم أساسية فى شخصية الرجل.

ها هو ذا أمل مشرق يلوح فى الأفق، لا لأنه جعل المفتش يدرك أنه استوعب الدرس جيدا، أو أنه أقر بأن التفكير فى بقائه فى الوظيفة، أو احتمال طرده منها قد استولى عليه تماما. لم تهنأ أبدا أفكارى بالسكينة. بدأت أشعر بالقلق والكآبة، مواصلا تقليب الأمر فى ذهنى، للوقوف على أى من مقومات عقلى المتواضعة قد رحل عنه، وإلى أى مدى سوف تتعرض البقية الباقية لنفس المصير. حاولت تقدير المدة التى قد أستطيع فيها البقاء فى دائرة الجمرك لأعود بعدها بشرا سويا. وإقرارا للحقيقة، أذكر أن خشيتى وقلقى الكبيرين كانا من احتمال بلوغى الشيخوخة والهرم فى إدارة التفتيش بالجمرك، وتحولى إلى حيوان آخر أكثر شبها بالمفتش الشيخ، ولن يكون ساعتها من الحكمة أمام الإدارة، أن تخطط لطرد إنسان مسالم مثلى، ويصعب أيضا، كما هى عادة الموظف، أن يقدم استقالته بمحض إرادته. ثم ألا يمكن أن ينتهى الأمر بى، فى المدة المتبقية لى هنا، كما انتهى بهذا الصديق المحترم، فأجعل من حصة الغداء شاغلى اليومى، ثم أقضى بقيته ككلب عجوز، إما نائما تحت أشعة الشمس المشرقة أو فى ظل وارف؟ أى أمل بغيض هذا، بالنسبة لرجل يعرف أن السعادة، هى أن

يحيا بقدراته ومداركه العقلية؟. لكنى كنت طوال هذا الوقت أحدث بنفسى شعورا بالهلع دون مبرر؛ ذلك أن القدر كان قد دبر لى ما يفضل كثيرا ما كنت أطمح إليه.

فى عامى الثالث من رئاستى لإدارة التفتيش، وأكرر هنا نفس طريقة "ب.ب"، فى السرد، كان يعد انتخاب الجنرال "تيلور"، رئيسا للبلاد، من الأحداث المهمة. وكان من الأهمية بمكان لإجراء تقدير شامل لمتطلبات العمل، مراجعة المناصب الحالية بواسطة إدارة الخصوم القادمة. كان منصب المفتش يعد الأكثر إثارة للمشاكل، فى كل مرة يطرأ فيها تغيير، ذلك لرجحان شغل هذا المنصب من قبل شخص تعوزه الكفاءة، مع ندرة وجود البديل الأمثل، ورغم ذلك، كان ما يقدم لى على أنه الأسوأ، يرجح أن يكون الأفضل بالنسبة لى، ولكن كان من التجارب الغريبة لرجل مرهف الحس، عزيز النفس، أن يعرف أن مصالحه، إنما تقع فى قبضة أناس لا يبادلونه الحب ولا التفاهم، ولو استدعت الضرورة أن يبدى هذا فى الظاهر، فلن ينله سوى التجريح، وليس العرفان، غريب أيضا أن يحتفظ إنسان مثله بهدوئه أثناء الصراعات، فيرى بعينيه التعطش للدماء ساعة النصر، وليدرك أنه كان أحد المستهدفين فى تلك المعارك.

إن فى طباع البشر ما يجاوز سمة البطش فى السوء، ولاحظت ذلك فى رجال كانوا أكثر سوء من أقرانهم ولا سبب لذلك إلا لقدرتهم على إحداث ضرر بالغ بالخصوم، ولو أن عقوبة الإعدام بالمقصلة، طبقت على الموظفين الحكوميين تطبيقا حرفيا، وليس بالمجاز، فإننى اعتقد أن نشطاء الحزب المنتصر، كانوا فى شوق بالغ إلى قطف

رؤوسنا، وأنهم سيحمدون الله على فعلتهم تلك! ويبدو لى أنا المراقب الصامت والفضولى، أوقات النصر أو الهزيمة، أن هذه النفس المليئة بالحقد والمطالبة بالثأر، تكون بهذا القدر من القسوة والمرارة، ولم تكن أبدا لتفرق بين عديد من الانتصارات، سبق أن حققها حزبى، مثلما يحقق الهويج الآن. فالديمقراطيون هم شاغلو الوظائف الحكومية بصفة دائمة، تلك قاعدة متعارف عليها، لأنهم فى حاجة إلى تلك الوظائف، ولأن خبرة السنين، قد جعلت من هذا قانونا، وكان يعد ضعفا وجبنا التذمر منه الآن، إلا عند الإعلان عن نظام مغاير. ولكن طول التعود على النصر، جعلهم كرماء، لأنهم يعرفون كيف يعفون حين تتاح فرص العفو. وأنهم حين يقتصون، فلابد أن تكون أداة القصاص حادة، نادرا ما تسمم نصلها بمشاعر الضغينة، ومن المحال أيضا اللجوء إلى ما يعرضهم للنقد بركل رأس، كانوا قد اقتطفوها للتو. وجدت وأنا أعانى هذا المأزق سببا قويا يجعلنى أغبط نفسى، كونى من الطرف الخاسر وليس المنتصر. وأننى إذا لم أكن من قبل من المتحمسين لجانب دون الآخر، فقد بدأت الآن وخلال هذه الفترة المحفوفة بالمخاطر والحافلة بالصراعات، أعى تماما إلى أى الحزبين أميل، ولم يكن يخل ذلك بالطبع من إحساس بالندم أو الخزى، لأننى بحساب دقيق للفرص المتاحة، وجدت تطلعى نحو الاحتفاظ بالوظيفة، يفوق تطلعاتى نحو إخوانى من الديمقراطيين، ولكن من هو هذا الذى يرى قدر شبر من المستقبل تحت أنفه؟ فقد كانت رأسى أول ما أطيح به من الرؤوس!!.

أميل إلى الاعتقاد بأن لحظة يسقط فيها رأس إنسان، ليست أكثر لحظات حياته قبولا. ومع ذلك فإن كل لحظة نواجه فيها بالمصائب، تأتي معها بدواعي السلوى، شرط أن يتخذ المصاب عبرة مما حدث.

كانت أسباب السلوى، بين يدى، وقد استوحتها تأملاتى، قبل أن يأتى الوقت الذى يجدر بى الاستفادة منها، وفى ضوء ما عانيت فى السابق من العمل الوظيفى، ومن أفكار مبهمة تتعلق بالإقدام على تقديم استقالة من العمل من عدمه، جعلنى طالعى أشبه برجل تراوده فكرة الانتحار، وتنعدم لديه سبل تحقيقها، فتصادفه فرصة مواتية لم تكن فى حسبانه فيلقى حتفه. لقد قضيت فى دائرة الجمرك ثلاثة أعوام سبق أن قضيت مثلها فى البيت القديم (أولد مانس) وكان هذا الوقت كاف لخلود ذهنى المضطرب إلى السكينة، وكاف للتخلص من عاداتى الذهنية القديمة، لأفسح المجال لجديدها، وكاف أيضا لممارسة لون من الحياة لم أكن آلفه من قبل، وإننى حتى الآن لم تتوفر لى الرغبة لفعل ما يبعث فى نفسى البهجة، كما إننى عازف عن ممارسة ما فيه مجلبة للشقاء والكد، حتى يخمد ما لا يزال لدى من دوافع للقلق فى أبسط صورها. وفضلا عن ذلك، فإنه فيما يتعلق بطرد المفتش الراحل من وظيفته غير مأسوف عليه، لم يكن غاضبا البتة من اعتباره عدوا للهويج، فى نفس الوقت الذى أثار خموله فى الشأن السياسى، أحيانا حفيظة إخوانه الديمقراطيين، حول جدية انتمائه إليهم، وكان سعيه الدائم إلى المجال الرحب والهادئ الذى يمكنه من

الالتقاء بكل الأطياف، يفوق كثيرا ما ألزم به نفسه من دروب ضيقة كان لابد للأخوة من فصيل واحد من الشرود عن بعضهم البعض خلالها، أما الآن وبعد أن فاز بإكليل الشهادة رغم أنه لم يعد يحمل الرأس التى يضع عليها الإكليل، فقد انتهت المسألة إلى هذا الحد بالنسبة له. وكان الأولى فى نهاية الأمر، لمن لم يظهر صورة من صور البطولة، أن يلقى فى مهاوى الحزب التى فضل أن يظل قابعا فيها، على كونه مقاتلا منبوذا، حيث يسقط أغلى الرجال، بعد بقائه على مدى أربعة أعوام، تحت رحمة إدارة الخصوم إلى أن يجبر فى النهاية على تحديد وضعه الوظيفى، وأن يطالب الآن بما كان مقدما له، وهى الرحمة المشوبة بالمهانة من أحد أصدقائه.

شغلت تلك الفترة بالصحافة وظلت على مدى إسبوع أو اثنين، أهرول بين دور الصحف الحكومية، وأنا مقطوع الرأس، أشبه بفارس "أيرفنج"(*) وهو الآخر كان مقطوع الرأس، حيث يتوق وقد لفه الحزن والكآبة، إلى قبر يوارى فيه، كما هو حال السياسى الميت. صعب على نفسى تشبيه كهذا. لأن الإنسان ذا المعدن الأصيل، كان يتأهب طوال الوقت، ورأسه لا يزال فوق كتفيه، لخاتمة تبعث على الراحة، وهى أن كل شىء كان بسبيله إلى الأفضل وأن استثماره فى الورق والمداد والريشة المعدنية، جعله يعيد فتح مكتبه، بعد طول هجر.

(*) فارس أيرفنج: تقول الأسطورة أن الفارس بعد أن فقد رأسه، ظل يشعر بالشقاء إلى أن ورى جثمانه فى التراب.

حان الوقت الذى تؤدى فيه، آثار سلفى القديم السيد المفتش "بيو" الأدبية دورها. وكان لابد لى من فسحة من الوقت، لإصلاح ما طالها من تلف، جراء إهمال طويل، ذلك قبل أن تتأهب أدوات الفكر لدى للعمل فى الرواية على نحو مرض. ورغم أننى كنت مستغرقا ذهنيا فى هذا العمل، إلا أن أفكارى كانت تكتسى رداء الكآبة والحزن لا تنهل من ضياء الشمس المعطاء، ولا تعبأ بما لديها من رقة وألفة، ولا يخامرنى شك، فى أنها كانت ترقق لى وجه الواقع المعاش، بكل ما يحوى من مشاهد. ربما يرجع ذلك الانطباع بعدم التجاوب وجمال الطبيعة، إلى عهد كانت قد أوشكت الثورة فيه على النهاية، مع بقاء حالة الغليان التى تجسدت الرواية خلالها. لم يكن هنالك من حاجة إلى ما يثير إنعاش ذهن الكاتب؛ لأنه رغم شروده أمام عتمة تلك الأخيلة الضبابية، كان أسعد حالا، من أى وقت آخر، منذ رحيله من البيت القديم. كتبت أيضا بعض مقالات قصيرة، تسهم فى صدور الكتاب، منذ انسحابى مجبرا من حياة الكفاح المشرفة الوظيفية، أما البقية، فقمت بجمعها، من الاصدارات السنوية والمجلات قديمة العهد، لأعود مجددا إلى السرد الروائى. ومواكبة للتشبيه الذى سبق أن أطلقناه على المقصلة السياسية، يمكن اعتبار تلك الأوراق "أوراق صفراء لمفتش مقطوع الرأس"، أما الصورة الأدبية التى كنت بصدد الانتهاء منها، فلو أنها كانت أقرب إلى السيرة الذاتية، الخاصة بشخص، أصابه الحياء أو التواضع من نشرها فى حياته، فسيغفر القراء ذلك لسيد نبيل، يكتب من تحت الثرى. وسلام على العالمين. إننى أبارك أصدقائى! وأعفو عن أعدائى! ذلك أننى فى عالم السكينة.

تشبه الحياة فى دائرة الجمرك بالنسبة لى، حلما صار فى طى النسيان. أشعر بالأسى بصورة أو بأخرى، حين أذكر أن المفتش الراحل، كان قد حدث أن سقط من فوق ظهر فرس فلقى حتفه على الفور، وإلا لكان معنا حيا يرزق إلى أن يقضى نحبه بشكل طبيعى(*) وأن الآخرين من الشخصيات الموقرة، ممن سبق أن حضروا معه فى التخليص الجمركى، لم يكونوا بالنسبة لى سوى مجموعة من الظلال، فى هيئة شيب أو هرم، اعتاد خيالى اللهو بها، والآن راغت منى إلى الأبد. أما التجار، أمثال "بنجرى"، و"فيليبس"، و"شيبردن" و"أوبتون"، و"كيمبال"، و"بيرترام"، و"هنت"، أولئك جميعا وآخرين، كانت أسماؤهم الشهيرة تتردد على مسامعى، منذ نحو ستة أشهر، وأولئك ينظر إليهم على أنهم أصل الحركة التجارية، بعد أن احتلوا مكانهم البارز حول العالم، في القصر زمن مفارقتى لهم جميعا، ليس بالواقع المعاش فقط ولكن باستحضارهم فى الذاكرة. إننى أجد صعوبة فى تذكر ملامح تلك الزمرة من الرجال. فضلا عن ذلك فإن مدينتى الأم ومسقط رأسى، قد تبدو هى الأخرى فى أفق الذاكرة، مدينة يلفها الضباب، ويغشاها السديم من كل جانب، وكأنها لم تكن يوما جزء من أديم الأرض، بل صارت قرية مكسوة بالعشب، فى أرض الضباب، لا يقطن بيوتها الخشبية سوى أناس من واقع الخيال، يجولون بين أزقتها المنفرة، وشارعها الرئيسى، المسرف فى الدمامة، والذى لا

(*) يلزم التنويه إلى أن الكاتب كان يرغب فى نشر هذا المقال وقت كتابته مع بعض قصص قصيرة وصور أدبية من روايته "الحرف القرمزى".

معالم له. كففت أن أجعلها بعد ذلك جزءًا من حياتى. فأنا مواطن من مكان ما، خلا تلك المدينة. ولن يأسى أهل بلدتى كثيرا لفراقى لهم، رغم وجود هدف عزيز لدى، بأن أصبح فى عيونهم من خلال أعمالى الأدبية، ذا شأن، وأفوز بالذكرى السارة فى هذا المقام والمثوى، الذى يضم عديدا من أجدادى القدامى، لكن ما يأمله الأديب من كرم، ما كان له أن يظهر للوجود قبل أن أجنى ثمار أفكارى.

سأكون فى حال أفضل بين آخرين سواهم، أما هذه الوجوه التى طالما ألفتها، فيصعب على القول بأنها ستكون هى الأخرى أفضل بغيرى. وربما مع ذلك، ويا لها من فكرة واعدة، ينظر أبناء حفدة جيلى الحالى، بعين العطف نحو أديب الأيام الخوالى المنسى، حين يحدد واحد من المهتمين بآثار موقع قلب المدينة.

١

باب السجن

خالط حشد من ذوى اللحى بثيابهم السوداء القاتمة أو الرمادية، يعتمرون قبعات بهيئة برج الكنيسة، نساء يعتمرن أغطية الرأس وأخريات حاسرات، واحتشد الكل أمام أحد المبانى الخشبية، بباب غليظ مصنوع من خشب البلوط، مثبت بدعامات حديدية ضخمة.

كان من أهداف مؤسسو المستعمرة الأوائل، تحقيق أكبر قدر من الفضيلة والسعادة، يطمح إليهما بنو البشر، وكان عليهم بالقدر نفسه وكأولوية قصوى، تخصيص قطعة من الأرض البكر لدفن الموتى وأخرى كموقع يقام عليها السجن. وانسجاما وهذه القاعدة، يمكننا التسليم بأن أهل بوسطن القدامى، قاموا ببناء المقر الأول للسجن، فى مكان ما بالقرب من "كورنهيل"، وفعلوا الشىء نفسه بتخصيص مكان للجبانة الأولى على أرض "إسحق جونسون"، وحول مقبرته، وقد تناثر حولها عديد من المقابر، شغلت جميعها الفناء القديم لكنيسة الملك الصغيرة. من المؤكد أنه وبعد مرور حوالى خمسة عشر أو عشرين عاما على تأسيس المدينة، كان السجن المقام من الخشب قد تأثر بعوامل الطقس ومظاهر القدم، التى أضافت إلى واجهته الحالكة مزيدا من الحلوكة. ران الصدأ على الدعامات الحديدية، و بدا الباب البلوطى، أكثر إيغالا فى القدم من أى شىء آخر فى العالم الجديد، وبدا السجن وكأنه لم يعرف أبدا مرحلة لشبابه

مثل كل شيء له صلة بعالم الجريمة. يسبق هذا المبنى، قبيح المنظر، أرض يفترشها العشب، تقع بينه وبين المنحنى الدائرى للشارع، وكان أكثر ما يفترشها، عشب الأرقطيون الشائك، وعشب أرجل الأوز ولحاء التفاح، وكل ما لا يسر العين من مظاهر الإخضرار، تبين أنها عثرت على مكان يلائم نموها فى التربة الخام التى بكر نتاجها بزهرة الشر فى المجتمع المدنى، ألا وهى السجن. على أحد جانبى المدخل، أجمة من الزهور البرية، تجذرت بالقرب من عتبته، كستها فى شهر يونيو هذا، بواقيتها الرقيقة، التى يخال للمرء أنها تقدم جمالها الهش وأريجها الفواح للمفرج عنه حال مروره من البوابة، وللمجرم المدان، القادم لتلقى العقوبة، فى إيماءة منها إلى أن قلب الطبيعة الكبير قد وسعته الرحمة به والعطف عليه.

من المصادفات الغريبة، أن تظل أجمة الزهور عالقة بتاريخ المدينة، وسواء تواصل ظهورها بين الأحراش، بعد سقوط أشجار البلوط والصنوبر، التى كانت تتفيئ بظلالها، أو أنها كانت بزعم الرواة، قد اشرأبت يانعة تحت قدمى النقية، "آن هاتشينسون"، بمجرد ولوجها باب السجن، ولا تعليق لنا على تلك الرواية. وحيث إن تلك الأجمة هى أول ما صادفنا ونحن على أعتاب قصتنا، والتى أستهللناها بدء من تلك البوابة اللعينة، فلا يسعنا سوى أن نقتطف إحدى زهورها، لنقدمها إلى القارئ. ولنتطلع إلى أن تؤدى دورها كرمز لثمرة الخلق القويم، التى قد نعثر عليها فى الطريق، أو ربما تكون مثار تلطيف وقع النهاية المؤلمة فى قصة آلام بنى البشر ووقوعهم فى الزلل.

٢

ساحة السوق

صباح أحد أيام الصيف منذ ما لا يقل عن نصف قرن من الزمان، حفلت الأرض المعشبة، المواجهة للسجن، كما حفل الممر المؤدى إليه، بحشد كبير من أهل بوسطن، صوبت أبصارهم نحو الباب البلوطى المدعم بالحديد. بدا من الصرامة والعبوس الباديان على قسمات الطيبين، من ذوى اللحى وهاتان السمتان تميزهما عن سائر خلق الله من الآدميين، عبر تلك الفترة من تاريخ "نيو إنجلاند" وما لحقها أن أمرا رهيبا كان بسبيله إلى الحدوث، ربما كان تنفيذا متوقعا لعقوبة الإعدام بحق واحد من المجرمين المدانين، بعد صدورها من المحكمة بنص القانون، وبإجماع هيئة المحلفين. ليصير هذا الحكم بالذات واجب النفاذ، بما يتفق وصرامة الشخصية البيوريتانية، فى أول عهدها. وقد يتعلق الأمر بأحد العبيد الكسالى، أو بصبى عاق، سلمه أبواه للسلطة المدنية لتقويمه على سارية الجلد. أو تعلق بأحد الخارجين على القوانين، أو من الكويكرز، أو أحد أصحاب البدع والهرطقة من المتدينين، ليجلد خارج المدينة، أو بصعلوك من شوارد الهنود الحمر، جعله شراب الرجل الأبيض، من الكحول المعتق، هائما على وجهه فى الطرقات، ويجدر اقتياده مكبلا فى الأغلال، داخل الأحراش بعيدا عن العيون. وربما تعلق بإحدى الساحرات كالسيدة "هيبينز" العجوز، أرملة القاضى السابق، حادة المزاج، وهى فى طريقها إلى حبل المشنقة. ودائما كانت تبدو سمة

الوقار على المشاهدين فى كل حالة من الحالات السابقة، فالعقيدة والقانون لدى هؤلاء الناس، كانا شيئًا واحدًا تتلاحم مقومات كل منهما مع الأخرى، فقوانين النظام العام الصارم منها أو الأقل صرامة، ينظر إليهما سواء بسواء بنفس عين الوقار والرهبة. كان منعدمًا تمامًا أو غائبًا ما ينشده الخارجون على القانون من عطف لدى أولئك الواقفين أمامهم بجوار سارية تنفيذ العقوبة. فما ينظر إليه الآن جيلنا بعين السخرية والخزى، كانوا فى أيامهم، يعتزون به كاعتزازهم بعقوبة الإعدام ذاتها.

كان هناك حدث جلل، صباح أحد أيام الصيف، حيث بدأت تدور أحداث قصتنا، حدث له علاقة بالمرأة، بدت النسوة وهن عديدات وسط الحشد، تولين اهتماما خاصا بالعقوبة المتوقع صدورها والقابلة للنفاذ. لم يكن هذا العصر يتميز بقدر يعتد به من النقاء، لأن أيا من لابسات التنورات والقبعات الرخيصة، لم يكنّ يشعرن أنه من غير اللائق خروجهن إلى الطرقات، والزج بأنفسهن فيما لا يعنيهن، حين تسنح لهن الفرص، وسط الجموع الحاشدة، والاقتراب من سارية العقاب حال تنفيذ الحكم. توفرت خشونة الطبع الإنجليزية القديمة، روحيًا أو ماديًا، فى هؤلاء الزوجات والعذارى، سواء من حيث النشأة أو الموروث، يتفوقن فى ذلك على أحفادهن الجميلات، وبينهن ستة أو سبعة أجيال، وقد نقلت السابقات بالتسلسل الأسرى، إلى أطفالهن الزهرة الذابلة والجمال الهش سريع الزوال، إن لم يكن الأقل صلابة وقوة مما كنّ يمتلكنه. فالواقفات الآن حول باب السجن، سبق وقوفهن خلال أقل من نصف قرن من الزمان فى عهد لم يكن يعتبر

الملكة المسترجلة "إليزابيث"، نموذجا غير سوى للجنس. فقد كنّ رعاياها، وكن لحمة وسداة وطنهن الأم، ولديهن وجبة من الأخلاق لم تتعرض للنضج ولو بقدر ضئيل، زج بمقوماتها إلى بنيتهن العقلية. ورغم ذلك أشرقت شمس الصباح برونقها، على ذوات المناكب العريضة، والصدور البارزة والوجنات البيضاء المتوردة، بعد أن أنضجتها الجزيرة القصية، فلم يشبها شحوب أو نحول فى ظل مناخ "نيو إنجلاند". وفضلا عن ذلك، فإن الحديث الدائر بين ربات البيوت أولئك، بدا جريئا ومسموعا، بما قد يبعث الفزع فى نفوس جيلنا الحالى وذلك من حيث نبرة هذا الحوار أو مضمونه.

قالت سيدة فى الخمسين حادة الملامح: "أيتها السيدات الصالحات، أخبركن بما يدور برأسى الآن. فى الحقيقة أنه سيكون خيرا للجميع، لو أننا قمنا نحن النسوة، كوننا ناضجات، وذوات صيت حسن، وعضوات فى الكنيسة، بالاضطلاع بأمر خاطئة مثل "هيستير براين" هذه، ماذا تظنن أيتها الرفيقات؟ لئن وقفت البغىّ للمحاسبة، أمامنا نحن الخمسة فى هذا المقام ونحن عصبة، فهل كانت تحظى بنفس قدر العقوبة التى كافأها بها قضاتنا الموقرون؟ لا أعتقد أن هذا ما كان سيحدث!".

قالت أخرى: "يذكر الناس، أن رئيس الجماعة الموقر "ديميسديل" وهو قس الأبرشية الورع، التى تنتمى إليها، قد تلقى هذا الأمر ببالغ الأسى؛ لأن فضيحة كتلك قد فاجأت رعايا أبرشيته".

أردفت ربة بيت فى خريف العمر: "السادة القضاة رجال يخشون أن تغلب الرأفة قلوبهم، تلك هى الحقيقة، و كان عليهم فى أقل التقديرات أن يضعوا وشم الحديد المحمى على جبهة هيستير براين. وأنا متيقنة من أنها كانت ستفزع من شدة الألم. لكن وعاء الشر هذه لن تأبه بهذا الذى يضعونه على صدر ثوبها. انظروا إليها، وهي تواريه بحلية أو بشيء من زخرف وثنى وتسير فى الطرقات رابطة الجأش، كما عهدناها من قبل".

تدخلت ربة بيت شابة برقة ملحوظة، وقد أمسكت بيدها طفلا: "آه! ليكن لها أن توارى الشارة كما تشاء، فوقعها المؤلم سيظل دوما كامنا فى قلبها". هتفت أخرى وهى أسوأهن، فى إصدارها للأحكام الجزافية والتى خلت من الرحمة: "ما بالنا نتحدث فى الشارات والقضبان المحماة بالنار، تلك التي على الصدر أو فوق الجبهة! لقد جلبت هذه المرأة العار لنا ولابد أن تموت. ألا يوجد قانون ينص على ذلك؟ إنه موجود بالطبع، سواء فى الكتاب المقدس، أو فى كتب التشريعات. فلندع القضاة يغبطون أنفسهم، إذا ما انحرفت زوجاتهم وبناتهم عن جادة الصواب، لأنهم لم يتوخوا الحزم فى هذا الأمر".

قال رجل من بين الحشد. باستغراب شديد: "رحمة بنا أيتها السيدة الطيبة، ألا تتمسك امرأة بفضيلة أبدا، سوى ما ينبع من داخلها من رعب يشملها من حبل المشنقة؟ تلك هى الكلمة الفصل الآن! أصمتن الآن أيتها الرفيقات، فمفتاح باب السجن يدار، وها هى ذى السيدة "براين"، بشحمها ولحمها، تخرج منه!".

انفتح باب السجن من الداخل، وظهر في البداية، شماس المدينة، خارجا كالظل القاتم في ضياء الشمس، في هيئة مروعة عبوس، واضعا سيفه في جنبه، والصولجان الكنسي في يده. لقد جسدت ومثلت هذه الشخصية في هيئته تلك، كل مظاهر القسوة لدى كافة التشريعات القانونية البيوريتانية، والتي كان عليه أن يتلو أحكامها النهائية والأخيرة، والواجبة النفاذ على الجناة. كانت يده اليسرى ممدودة بعصا الصولجان الكنسية، واضعا اليمنى على كتف امرأة شابة، مستحثا إياها على التقدم إلى الأمام، حتى أبدت مقاومة له على عتبة باب السجن، بحركة تنم عن إحساس طبيعي بالكرامة وقوة الشخصية، ثم خطت بضع خطوات في الهواء الطلق، وكأنما فعلت ذلك بإرادتها الكاملة، كانت تحمل بين ذراعيها، طفلا، رضيعا يبلغ ما يقارب ثلاثة أشهر، تطرف عيناه بشكل تلقائي، مشيحا بوجهه، تقاة ضوء النهار الشديد، فمنذ وجوده في الحياة، لم يعرف غير عتمة الزنزانة وظلمة غرف السجن الأخرى. حين ظهرت المرأة الشابة بكامل هيئتها، أمام الحشد، بدا أول ردود أفعالها، أن ضمت الطفل إلى صدرها بقوة، وما كان ذلك بوازع من إحساس بالأمومة، بل بمحض إرادتها، لموارة الشارة التي وضعتها على صدر ثوبها لسبب ما، لذلك فإنها ولوهلة قصيرة ارتأت أن شارة واحدة لعارها لا يمكن أن تخفي الشارة الأخرى، فأسرعت بإعادة الطفل إلى وضعه الطبيعي بين يديها، وقد أحمر وجهها دلالة على ما تحس به من حياء، و لم تلبث أن اصطنعت ابتسامة متغطرسة، وسددت بصرها إلى أهل المدينة وجيرانها، بكبرياء راسخ. ظهر على صدر ثوبها حرف الهجاء A، مطرزا فوق قطعة من القماش جمراء اللون، تطريزا

متقنا، بديعا، محاكا بخيوط مذهبة لامعة. حيك الحرف بإتقان بالغ، وبلمسة خيال لا تضارى، فى روعتها وسخاءها. وهدف ذلك كله كان إضفاء آخر وأنسب لمسة جمالية على الثوب الذى وضعته عليها، بما فيه من مظاهر الأبهة التى تجارى ذائقة العصر، بل تجاوزت بكثير ما كان مطبقا من ضوابط على إنفاق المال فى المستعمرة.

كانت من الطول بحيث اكتملت فيها مظاهر الأناقة من كل الوجوه. بلغ من لمعان وغزارة شعرها الأسود، ما عكس وميض أشعة الشمس عنه، فى جمال محياها ودقة قسماته ونعومة بشرته، وكان أصل الإثارة فيه دقة الحاجبين ودكنة سواد العينين. كانت أيضا أشبه بسيدات المجتمع فى تلك الأيام، فى رقة المسلك العام للأنثى، الذى تميزه رفعة المكانة والوقار وهما السمتان اللتان تتفوقان على ما كان يظهر من جمال أخاذ هش، سريع الزوال، يميز الآن من النظرة الأولى. لم يسبق لهيستير براين أن بدت على هذه الصورة، كما بدت لحظة خروجها من السجن، ذلك ما ورد عنها فى السرد القديم. فأولئك الذين كانوا يعرفونها حق المعرفة ويتوقعون ظهورها، مكتئبة، عابسة، لما سربلها من عار، أصيبوا بدهشة بالغة وجزعوا ثم استفاقوا على وضاءة حسنها، فأحاطوها بهالة من العار وسوء العاقبة.

كان فى المشهد ما يدعو الرائى المرهف الحس إلى الشعور بالأسى والألم. فالثوب المحاك بيديها خصيصا لهذه المناسبة، أقتفى فى تصميمه أثر ما ذهب إليه خيالها بل تجاوزه، وبدا معبرا عما يدور فى دخيلتها، عن جموح سببه اليأس، وبسبب ما يميزها من انفلات وغرابة فى الطبع. لكن ما شد انتباه الجميع، وجعلها تجسيدا

لهذه السجايا، كان الحرف القرمزى، وقد أشرق نوره، وأبدعت زخارفه، على صدرها، حتى أن الرجال والنساء، الذين طالما توثقت معرفتهم بهيستير براين، تأثروا به فى هذه اللحظة وكأنهم يرونها للمرة الأولى. كان له أثر السحر بعد أن أخرجها من كل ما كان يربطها بالبشر، وليطوقها فى عالمها الخاص.

أشارت إحدى المتفرجات بقولها: "واضح أن لديها براعة فائقة فى شغل الإبرة، ولكن ما كان لامرأة قبل هذه البغى الوقحة أن تبتكر طريقة للعرض كتلك! فما سبب ذلك أيتها الرفيقات، وما هذا إلا كفعل تهكمى فى وجه قضاتنا الأجلاء، استهتارا بما كان السادة المبجلون، بسبيلهم إلى إصداره فى حقها من عقوبة".

غمغمت أكثر العجائز صرامة: "يكون خيرا، لو أنّا حسرنا ثوب السيدة هيستير عن منكبيها، وأما الحرف القرمزى الذى حاكته ببراعة، فإننى سوف أتبرع بخرقة من صدار ذات الرئة، الخاص بى، لصنع ما يفضله".

همست رفيقتهن الشابة: "أوه، هدوءا! أيتها الرفيقات لا تجعلنها ترهف سمعها إلى حديثكن! فألم الحرف المزخرف، ليس ظاهريا، بل إنها تشعر بوخزة فى قلبها".

أشار الشماس مكفهر السحنة بعصاه فى تلك اللحظة. وهتف قائلا: "أفسحوا الطريق أيها الطيبون! باسم الملك، أفسحوا الطريق! أجعلوا فرجة للمرور، وإننى أعدكم بأن يكون ظهور السيدة براين كاملا للعيان، متاحا للطفل والمرأة والرجل، لتتأملوا ثوبها الأنيق مليا،

من الآن إلى ما بعد الظهيرة بساعة، مباركة أنت.... يا مستعمرة ماساتشوستس القويمة، وليذهب عنك الرجس في وضح النهار، هيا سيدة براين، أبرزي حرفك القرمزي في ساحة السوق".

أفسح في الحال ممرا بين الحشود. تقدم خلاله الشماس، ثم تبعه لفيف يختلط فيه العابسون من الرجال بقساة الملامح من النسوة، لتتوجه هيستير براين إلى المكان المشار إليه لتلقى عقابها، تحرك طلبة المدارس هم الآخرون أمامها عدوا، وهم لا يدركون مما يدور حولهم الآن إلا القليل، وما كان يخطر ببالهم عن ذلك كله سوى حصولهم على عطلة نصف اليوم. واصلوا التفاتهم إليها برؤوسهم الصغيرة، محدقين في وجهها، وفي الطفلة الغافية بين ذراعيها وفي حرف العار الذي تضعه على صدرها. لم تكن المسافة بين باب السجن وساحة السوق، من الكبر، رغم أن السجين بخبرته كان يعرفها جيدا، إلا أنها كانت بالنسبة لهيستير بمثابة رحلة طويلة، ذلك أنها مع ما في مسلكها من كبر، قد كان عليها أن تتحمل عذاب كل خطوة تخطوها، بسبب تجمع هؤلاء الناس لرؤيتها وهي على هذه الحال، وكأن قلبها قد قفز من مكمنه إلى الشارع ليبصق عليه هؤلاء ويسحقونه بأقدامهم، ورغم أننا بطبعنا، غالبا ما يكون لدينا استعداد مسبق، يحمل من الرحمة قدر ما يحمل من شعور بالغرابة، ومؤداه أن المبتلى بالعذاب، لا يعرف مطلقا قدر ما يعانيه من عذاب لحظي، سيحس بوخزه المستمر بعدها في الحال؛ لذلك فإن مسلك هيستير براين كاد يقارب السكون، الذي حل بها، لحظات تحملها هذا القدر من العذاب، وأخيرا وصلت وهي على هذه الحال من السكينة، إلى ما

تعارف الناس على تسميته بالسارية، والتى تقع فى أقصى الغرب من ساحة السوق. وقد نصبت أسفل جدران كنيسة بوسطن القديمة وقدر لها أن تبقى فى مكانها هناك.

شكلت تلك السارية إحدى أدوات العقاب فى هذا العصر، وتعتبرالآن وبعد جيلين أو ثلاثة، بعيدة الصلة بنا، وليست سوى جزء من التاريخ أو التراث. لكنها أقيمت قديما لتكون القوة الأساسية للعمل على النهوض بالمواطن الصالح، كما هو حال المقصلة لدى المتطرفين من الفرنسيين. مجمل القول أن السارية، كانت أداة للتعذيب، وهى التى ارتقى فوقها نظام الحكم. صممت أساسا لوضع رؤوس البشر فى قبضتها المحكمة، للعرض أمام كل الناس. وقد خرج رمز الخزى هذا إلى الوجود وتجسد مع ابتكار وصناعة الحديد والخشب.

ليس هنالك موجب لاعتراضنا وغضبنا، على ما نشارك فيه الآخرين من سجايا مهما بلغت من دوافع الشر، وليس هناك ما يثير غضبنا وامتعاضنا، أكثر من منع المدان من مواراة وجهه بيده حياءً من أعين الناس، كما هو حال تلك العقوبة.. ورغم أن حالة هيستير براين لم تكن تشذ عمن سواها، إلا أنها تحملت العقوبة الموقعة عليها، بوقوفها فوق السارية خلال الوقت المحدد لذلك، لكنها لم تخضع لتلك القبضة المطوقة للرقبة، والرأس، أو تذعن لكل سمات الشر التى تميز هذه الآلة اللعينة. ارتقت الدرج الخشبى، وهى تدرك جيدا ما يجدر بها أن تفعله، وهو العرض المفروض عليها أن تقدمه لجمهور

النظارة المطوقين لها من كل جانب ولتقف أمامهم بأعلى من أرض الشارع بارتفاع كتفى رجل.

لو أن واحدا من الرهبان البابويين، كان حاضرا بين هذا الحشد البيوريتانى، ورأى ما تمتلكه هذه المرأة، من جمال فى الطلعة وملاحة فى الوجه، وأناقة فى اللباس، وعلى صدرها هذا الرضيع، ما يذكره بصورة الأمومة المقدسة، التى تبارى فى تصويرها العديد من رسامى اللوحات، أو ما يذكره بنقيض ما يحدث الآن، فى الصورة المقدسة للأمومة البتول، التى يعد ابنها مخلصا للبشرية من خطاياها. لقد ترك دنس الخطيئة الأكبر، أثره فى هذا المكان، فى أكثر سمات البشرية قداسة معبرا عن أن العالم فى مواجهة جمال هذه المرأة كان أكثر نفورا، وأنه كان الضياع الكبير لهذا الرضيع.

لم يكن المشهد يخلو حالة متكررة من الرهبة، وكأنه كان يجدر حصر صورة الخزى والخطيئة البارزة للعيان فى مخلوق بعينه من البشر، فى مواجهة مجتمع قد بلغ من الفساد، ما يدفعه إلى التهكم على هذا الوضع، بدلا من إحساسه بالهول من بشاعته. لم يكن شهود هيستير براين من السذاجة ليجعلوا الأمر يفلت من بين أيديهم بهذه السهولة، بل بلغ الأمر بهم ما دفعهم إلى التطلع لموتها، لو أن هذا كان الحكم الصادر بشأنها، دون أن يستنكر أحدهم هذا الحكم أو يتبرم منه، وليس هناك من بلغ من القسوة ما يتجاوز ما فى قلب هذا المجتمع، ليجد فى هذا العرض الذى نحن بصدده الآن ما يسرى عنه. وحتى لو وصل الأمر إلى أن يصبح هذا العرض مثارا لضحك أو لسخرية، فقد كانت تجدر السيطرة على تلك المشاعر وكبحها فى

مهده، وذلك فى حضور من كانوا لا يقلون مكانة عن حاكم الولاية وبعض مستشاريه والقاضى والجنرال ورجل الدين، وهم قيام أو جلوس فى شرفة المصلى (مكان العبادة للبروتستانت) ينظرون إلى أسفل فى اتجاه السارية. وحين يشكل هؤلاء جزء من هذا الجمع، دون أن يتعرض أيا من أصحاب المعالى والمقام لحرج، فليس علينا حرج أيضا أن أشرنا بأن عقوبة كهذه كانت تنفذ باسم القانون وأن لها دلالة خاصة. من هذا المنطلق بدت الحشود متمسكة بكآبتها وعبوسها. تحملت الجانية المسكينة أقصى ما تتحمله امرأة، وظلت تحت وطأة هم ثقيل ألقت به إليها آلاف النظرات التى خلت من الرحمة، وتشبثت بها وتركزت فوق صدرها. وذلك عبء لا يطاق. حصنت نفسها رغم ما تتسم به من جموح وحساسية مفرطة، لتصد عنها تلك الطعنات المسمومة والحاقدة، والماثلة فى توجيه ما يشفى غليلهم من إهانات إليها، لكن إحدى سمتها بالذات سادت ماعداها بما أحدثته من قلق، فى مزاج العامة المكتئب بعقول السواد الأعظم منهم، برزت فيها تلك السمة، حين أطالت النظر إلى تلك السحن الصارمة، التى قلصها تهكم مرير؛ حيث كانت هى هدفا لهذا التهكم. ولو أن جلجلة الضحك هى التى صدرت من هذا الحشد، سواء كانت من رجل أو امرأة، أو طفل، لتشمل أرجاء ساحة السوق، فإن رد هيستير براين عليهم جميعا، لم يكن ليزيد عن ابتسامة مريرة، تحمل كل معانى الازدراء، لكنها كانت ستقع تحت طائلة عقاب معلن، شاء لها قدرها التعس أن تتحمله، لكنها بدلا من ذلك شعرت برغبة قوية، فى إطلاق صرخة مدوية، وسع ما تحمل رئتيها من هواء، ثم تلقى بنفسها

من أعلى السارية إلى أرض الشارع، أو تنقلب من فورها إلى الجنون.

تخلل ذلك كله فترات لالتقاط الأنفاس، فالمشهد برمته، وهى محط أنظار الكل، بدأ يغيب عن ناظريها، ولم تعد معالمه مميزة، فاجتمعت أمامها أخيلة لم تتبينها بوضوح. كان عقلها، والذاكرة فيه على نحو خاص، يعملان بنشاط يجل عن الوصف، فانبرت تسترجع مشاهد أقصتها عن شق هذا الشارع المنفر، فى البلدة الصغيرة الواقعة على أطراف الأحراش الغربية، وتستعيد بدلا من تلك الوجوه المقطبة والمتفرسة فيها، من تحت حواف القبعات المستديرة أوالعالية كبرج الكنيسة، دفقا من الذكريات، المادى منها والروحانى، منها أحداث الطفولة والصبا، ولهو الصغار والتشاجر معهم، ولمحات بسيطة عن بيت الأسرة، وسنين المراهقة، تداخل هذا كله مع أسوأ أحداث حياتها اللاحقة، وكل يرادف الآخر فى حيويته، وله فى تلك اللحظة نفس القدر من الأهمية، كانت تلك المشاهد قريبة الشبه بمسرحية. ربما فطرت روحها على أن الاحتيال على حالة كتلك، باستعراض تلك المشاهد واستعادتها من الخيال، طلبا لتلطيف أعباء الواقع البغيض وأدرانه.

لندع هذا كله إلى حيث شاء، ذلك أن سارية التعذيب، كانت الفكرة التى كشفت لهيستير براين، الدرب الطويل، الذى قدر لها أن تسلكه منذ نعومة أظفارها. رأت مجددا من هذا الموقف البارز والمزرى، القرية التى شهدت ميلادها فى إنجلترا القديمة، وفيها بيت الأسرة، وهو بيت قديم، بليت حجارته، بما يكشف عن فاقة قاطنيه،

لكنه رغم ذلك كان يحتفظ، فى مدخله بتروس حربية تشير إلى المظاهر الأرستقراطية القديمة. طالعت وجه أبيها، وخطوط الشيب فى حاجبيه، ولحيته الشهباء الوقور، المرسلة على طوق رقبته الإليزابيثى المكشكش، ذى الطراز القديم، وأمها أيضا وعلى وجهها عبارات الحب العالقة فى ذاكرتها، تعكس الحرص عليها، واللهفة التى ظلت منذ موتها، تخفف عن ابنتها ما تواجه من عقبات، بمعارضتها الرقيقة. رأت نفسها أيضا، بوجه اتقد بميعة الصبا، فبث النور فى الصورة المرأة الضبابية الحالكة، التى اعتادت التحديق فيها. رأت وجها آخر لرجل، تقدم فى السن، شاحب الوجه، نحيف الجسم، يبدو من سيمائه رجلا للعلم، أجهد عيناه وأمضهما ضوء المصباح، بعد أن أعانهما على الاستغراق فى الاطلاع على أعداد هائلة من الكتب، ومع ذلك كانت هاتان العينان الذابلتان، تتمتعان ببصيرة ثاقبة غريبة، وذلك حين لا يكون هدف صاحبهما سوى سبر أغوار النفس البشرية. كانت هيئة الباحث هذا والمحب للعزلة، حين فشل خيال هيستير فى استدعائها جيدا، تمثل رجلا معيب الخلقة، بشع الوجه، يعلو قليلا كتفه الأيسر، عن الأيمن، و ظهرت لها بعد ذلك صاعدة فى معرض الصور الذهنية، تلك الدروب الملتوية والضيقة والبيوت القديمة العالية، والكاتدرائيات الضخمة والمبانى الحكومية، القديمة تاريخا والفريدة معمارا فى تلك المدينة التى كانت تعد مستعمرة بريطانية، حيث كانت حياة جديدة فى انتظارها، ظلت خلالها مرتبطة برجل العلم قبيح الخلقة بحياة جديدة، ولكنها حياة تقتات على ما خلفه الدهر، كأجمة الطحلب الأخضر فوق جدار هار. تبدلت فى النهاية تلك المشاهد الذهنية المتلاحقة، وحلت محلها ساحة السوق الكئيبة فى

مستوطنة البيوريتان، وفيها أهل المدينة المحتشدون وقد يمموا وجوههم جميعا شطر هيستير براين، أجل، شطرها فحسب، وهى تقف فوق سارية العقاب، والرضيع على ذراعها، والحرف A بلونه القرمزى، وخيوطه الذهبية، وبراعة حياكته، على صدرها.

أكان من الممكن لهذا الذى حدث الآن أن يحدث؟ ضمت الرضيع بقوة إلى صدرها، فأطلق صرخة، فحولت عينيها إلى أسفل، صوب الحرف القرمزى، حتى لمسته بإصبعها، لتأكد لنفسها أن الرضيع والعار من الواقع، ليسا من الخيال، وأن ما خلا ذلك زال ودخل دائرة النسيان.

٣

التعارف

هدأ من توتر حاملة الحرف القرمزى العصبى فى النهاية، بسبب نظرات الناس إليها، رؤيتها شخصا، يقف بعيدا بين الحشود، شد انتباهها كثيرا. وقف أحد الهنود فى المكان المشار إليه بثيابه التقليدية، فى الوقت الذى لم يكن الهنود الحمر من الزوار غير الدائمين للمستوطنات الإنجليزية، كى يحظى هذا الهندى باهتمام هيستير براين، على هذا النحو، فضلا عن أنه بدد ما كان يدور فى ذهنها من ذكريات. بجوار هذا الهندى الأحمر، وقف رجل أبيض، ظهر أنه مرافق له لا تغيب عينه عنه لحظة، وضع عليه من الثياب كل ما شذ عند ثياب المدنيين وأهل البرارى.

كان ضئيل الحجم، جعد الوجه، ولكن يصعب على المرء اعتباره طاعنا فى السن. تنطق ملامحه بالذكاء، فقد بدا فيه دأبه على تطوير الجانب العقلى فيه على حساب الجانب الجسدى فلا يخطئ من ينسب إليه هذا الجانب، لوضوح علامات تميزه. ورغم إهمال ظاهر فى هندامه الشاذ، فقد كان هذا بسبب إخفائه شخصيته الحقيقية وعدم الظهور بها، ولكن ظهر مليا لهيستير براين، ارتفاع إحدى كتفيه قليلا عن الأخرى، فكان رد فعلها المباشر، بعد رؤيتها صاحب الوجه الشاحب، والخلقة المعيبة، أن ضمت الرضيع إلى صدرها مجددا بقوة

تعبرعما بداخلها من توتر شديد، حتى أن الرضيع، أطلق صرخة أخرى، بداعى الألم، والظاهر أنها لم تسمعه.

وضع الغريب عينيه على هيستير براين، بمجرد دخوله ساحة السوق وقبيل أن تقع عيناها عليه، كان الأمر فى البداية، وكأنه لا يعنيه فى شىء، ذلك أنه رجل اعتاد بفطرته النظر إلى أعلى، وظاهر الأشياء لا يمثل شيئا له، ذلك إذا لم يكن يحمل قيمة أو مضمونا، أو يجعل هذه الأشياء، ذات صلة بما يدور فى ذهنه، لذلك تحولت نظراته فى الحال إلى حالة من النفاذة والحدة. لف فزع أفعوانى قسمات وجهه، كحية رقطاء تهرع فى الزحف فوقه، ثم تتوقف فجأة فى ثنايا تلك القسمات بكل ما فيها من أفعوانية. اكفهر وجهه وعبرعن إحساس طاغ بالضيق، وبرغم قدرته الفائقة على التحكم السريع فيه، فإنه بذل فى ذلك جهدا، فلم يلبث أن زال عنه التوتر فى وهلة واحدة. وبعد فترة قصيرة، أوشكت حدة تقلصات وجهه على الزوال، ثم ما لبثت فى آخر الأمر أن خلدت إلى أعماقه. حين وجد أن عينى هيستير براين، قد ثبتتا فى عينيه، ورأى بدء تعرفها على شخصيته الحقيقية، رفع إصبعه فى الهواء بهدوء يحسد عليه، وأشار لها به، ثم وضع فوقه قبلة.

لمس من ثم كتف أحد الأهالى، ممن كان واقفا قبالته، وقال له بكياسة وأدب: "عفوا أيها السيد الطيب، من تكون هذه المرأة؟ ولماذا تقف موقف العار هذا أمام الناس؟".

أجاب الرجل، وهو يرمق السائل وصديقه الجلف بفضول واضح: "لابد أنك غريب عن هذه الناحية يا صديقى، وإلا كنت

بالضرورة ستعلم بشأن هيستير براين، وبأفعالها المشينة. لقد جلبت العار لكنيسة الأب الموقر ديميسديل، وهذا الكلام على عهدتي!".

قال الغريب: "إن ما قلت هو الصواب. فأنا غريب عن البلدة، دائم الترحال، على كره منى مع الأسف. لقيت فى البر والبحر أهوالا جساما، وظللت فى الأسر مدة طويلة، لدى المارقين فى ناحية الجنوب، وقد جاء بى إلى هنا هذا الهندى، سعيا وراء خلاصى من الأسر بفداء. هلا تفضلت بإخبارى بشأن ما ارتكبته هيستير براين من فعل مشين، ذلك إن كان نطقى اسمها صحيحا، وماذا أتى بها إلى السارية؟".

قال له المدنى: "أظن يا صديقى وعن طيب خاطر أن يكون هذا مثار تسرية عنك بعد طول معاناتك فى الأدغال ومقامك فيها، حتى وجدت نفسك فى بلد يماط فيه اللثام عن الخطيئة وتنفذ فيه العقوبة أمام أولى الأمر والنهى، وأمام هذا الحشد الكبير من الناس، تراه الآن أمام ناظريك في نيو إنجلاند (إنجلترا الجديدة)، بلد الورع. لك يا سيدى أن تعرف أن تلك المرأة الواقفة هناك، كانت زوجة لأحد رجال العلم، وهو إنجليزى المولد، لكنه كان يقيم لفترة طويلة فى أمستردام، وكان قد قرر منذ زمن الإقامة فى مزرعة له هنا بماساشوستس، لذلك أرسل زوجته قبله، ثم بقى هناك لقضاء بعض شئونه، وهكذا سيدى الطيب، وعلى مدى عامين أو أقل ظلت المرأة مقيمة بيننا في بوسطن، ولم ترد أخبار عن ذلك العالم الجليل. فانظر يا صاح، كيف تركت السيدة براين على هواها، فسهل قيادها".

قال الغريب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة: "آه، أأفهم منك أن رجلا بهذا القدر من العلم، كما تقول، كان عليه أن يتعلم من كتبه التعامل وهذا الأمر؟ ومن فى رأيك يا سيدى يكون أبا للرضيع، فما تحمله بين يديها لا يتعدى الأربعة أو الخمسة أشهر؟".

أجابه المدني: "الحق أقول يا سيدى إن الأمر لا يزال لغزا محيرا، فالشخص الذى يجدر الكشف عن هويته مطلوب للعدالة، ومعلوم أن السيدة براين ترفض رفضا باتا الإفصاح عنه. وقد تشاور القضاة فى هذا الأمر ولم يتوصلوا إلى شىء، وربما يقف الآثم الآن بيننا، مطلعا بعينيه على هذا المشهد الحزين، ثم لا يعرفه أحد، لكنه ينسى أن الله يراه".

أردف الغريب وهو يعاود الابتسام: "يجب على هذا العالم أن يأتى بنفسه، كى يبحث فى هذا الأمر مليا".

أجابه المدني: "يجدر به أن يفعل هذا، إن كان لا يزال حيا يرزق، فالقضاة الآن يا سيدى، يعتقدون أن هذه المرأة، تلك الشابة الجميلة، ربما تكون قد استدرجت للوقوع فى الزلل، فضلا عن أنه من الأرجح أن يكون زوجها الآن فى قاع البحر، لم تواتهم الشجاعة، لتوقيع أقصى ما ينص عليه القانون الرشيد من عقوبة، ألا وهى الإعدام. لكنهم بما جبلوا عليه من لين ورحمة، حكموا عليها بالوقوف لساعات ثلاث فحسب فوق سارية العقاب، من وقت صدور الحكم إلى أن ينتهى أجلها من قيد الأحياء، حاملة الحرف القرمزى على صدرها".

أشار الغريب قائلا وهو يطأطئ رأسه أسفا: "يا له من قرار حكيم، بهذا تصبح عبرة لمن تسول له نفسه ارتكاب الخطيئة، حتى ينقش حرف العار على شاهد قبرها، لكن ما يشغلنى بالرغم من كل ذلك، أن شريكها فى الإثم لم يعثر عليه، فيزج به فوق السارية، لكنه سوف يكشف عنه، يكشف عنه!!".

انحنى بأدب للمدنى الثرثار، وهمس لمرافقه الهندى الأحمر ببضع كلمات ثم شقا طريقهما بين الحشد. كانت هيستير خلال هذا كله، واقفة أشبه بتمثال فوق قاعدته، وعيناها مثبتتان نحو هذا الغريب ترمقه وترنو إليه، وبدا لها خلال استغراقها الطويل أن كل ما أمامها من موجودات قد تلاشت تماما، ولم يبق فى هذا العالم سواهما. ليتها التقته وهى على غير هذه الحال، وشمس الظهيرة تلفح وجهها، وتبرز ما ارتسم عليه من خزى، ورمز العار هذا على صدرها، وطفلة الخطيئة بين ذراعيها، وفى حضور جميع الناس، أولئك الذين خرجوا من ديارهم، وكأنهم ذاهبون إلى احتفال عام، متفرسين فى القسمات التى كان الأجدر ألا ترمقها عيون، سوى فى ضوء المدفأة الهادئ، فى ركن بيت تسوده السعادة، أو تحت حجاب الوقار فى الكنيسة، وأنهم برغم ما كانوا يسببونه لها من فزع، فقد كانت تدرك أن تلكم الألوف من الشهود، كانوا لها خير ملاذ تأوى إليه. وكان الأفضل الوقوف هكذا، وبينها وبينه تلك الآلاف المؤلفة، من أن تلقاه وحدها مواجهة له. أوت إلى ملتجأ، ظاهر للجميع، وشعرت بالفزع من اللحظة التى لابد من زوال تلك الحماية عنها بانسحابهم. لم تستطع تبين صوت ورد إلى سمعها مناديا، وهى مستغرقة فى أفكارها تلك.

كرر الصوت النداء باسمها أكثر من مرة، ثم علت النبرة حتى سمعها الجميع، قال صاحب الصوت: "انتبهى إلى، هيستير براين".

بأعلى السارية التى كانت تقف فوقها هيستير براين، ظهر ما يشبه الشرفة الملحقة بالمصلى. فقد جرت العادة أن تلقى من هذا المكان كل البيانات فى حضرة لفيف من القادة، مع إقامة الطقوس الخاصة أمام الجمهور. فى هذا المكان، جلس الحاكم بيللنجهام، وحول مقعده، وقف أربعة رقباء، يحملون الأسلحة التقليدية يمثلون حرس الشرف. وضع الحاكم ريشة سوداء فى قبعته، ووشاحا مزخرفا فوق معطفه، لبس تحته رداء مخمليا قاتما. كان متقدما فى العمر، ظهرت فى تجاعيد وجهه علامات السنين الصعبة. كان اختياره مناسبا تماما، لتمثيل المجتمع وقيادته، يدين له هذا المجتمع برسوخه وتقدمه، وحالة التطور الراهنة فيه، لا إلى اندفاع وتهور الشباب بل إلى عزيمة الرجال ما بين صرامة واعتدال، وحكمة الكبار بعد أن اكتملت لهم من جميع الوجوه، لأنهم بها لم يطمعوا أو يأملوا لأنفسهم إلا فى القليل. تميزت الشخصيات البارزة، المحيطة بالحاكم الأعلى، بجلال المظهر، لأنهم ينتسبون إلى عصر، كان رموز السلطة فيه يتمتعون بما تتمتع به المؤسسات الدينية من قداسة.

كانوا ولاشك فى ذلك رجال صلاح وعدل وحكمة. بل كان يصعب انتقاء عدد مماثل من نفس جماعة أولى الفضل والحكمة من بين آخرين، لأنهم يقينا يصيرون هم الأقل قدرة على اعتلاء كرسى القضاء للفصل فى أمر قلب امرأة آثم، والفصل فى نوازع الخير والشر لديه، أقل قدرة من أولئك الحكماء الذين تعلو الصرامة

وجوههم الآن، أولئك الذين التفتت هيستير براين فى هذه اللحظة مواجهة لهم. بدت مدركة فعلا، بأنها مهما توقعت من عطف ورحمة، من قلب هذا الحشد الكبير والدافئ، فإنها حين رفعت عينيها نحو الشرفة، اكتسى وجه المرأة البائسة بالشحوب والفزع.

كان الصوت الذى شد انتباهها، لصاحب الوقار، صوت ذائع الصيت "جـــون ويلسون"، أكبر رجال الدين فى بوسطن، وهو العلامة الكبير، الذى لا يقل منزلة عن كافة معاصريه فى المهنة، فضلا عن تحليه بروح الكرم والسماحة. كان أقل حرصا فى توليه تلك السمة الأخيرة بالرعاية، بعكس ما أولاه كافة مواهبه العقلية، وكانت تلك السمة لديه أكثر إثارة لخجله من امتنانه بها. وقف هناك وشواشى خصلات شعره الأشيب ظاهرة من تحت قلنسوته بينما عيناه الرماديتان، كانتا تطرفان كما هو حال رضيع هيستير، بسبب ضوء الشمس الباهر، بسبب اعتياده الضوء الخافت فى مكتبه. كان أشبه باللوحات التى انطبعت فى الأذهان، محاطة بالغموض، وأخرى نجدها متصدرة أغلفة المجلدات الدينية، وكان عليه ألا يتجاوز ما هو محظور عليها مغادرتها أغلفة تلك المجلدات، كما يفعل الآن، ويتدخل باستجواب حول ما يقترف البشر من آثام وشهوات وما يلقونه جراء ذلك من عذاب.

قال رجل الدين: "بذلت جهدا مع أخى الأصغر الواقف معنا هنا، والذى تنالين الفائدة منه بحضور دروسه وعظاته". وضع السيد ويلسون فى هذه اللحظة يده على كتف شاب صغير وقف بجواره "وأزعم، أننى سعيت لحث هذا الشاب الورع، على التعامل فى الشأن

الخاص بك، هنا وأمام الله، وفى حضرة أصحاب القوامة والحكمة وأولى الأمر والنهى، وعلى مسمع من الجمع، فيما يرتبط بأمر خطيئتك النكراء. ولأنه يفضلنى معرفة بميولك الطبيعية، كان هو الأجدر بالحكم عليك، فى الأخذ بالأساليب المطروحة للبحث، من لين أو شدة، لقهر عنادك وتصلبك، حتى تكفى عن إخفاء اسم من أوقعك فى هذه الهوة السحيقة. لكنه يأبى ذلك (لما يحظى من رقة طبع لدى الشباب، وحكمة لديه تتجاوز سنه) بما مؤداه أنه من الظلم البين لطبيعة المرأة خاصة، كشف ما فى قلبها من أسرار هكذا فى وضح النهار، وفى حضور مثل هذا الحشد الهائل من الناس. والحقيقة أننى أسعى لإقناعه بأن العار إنما يقع فى ارتكابها الخطيئة وليس فى عرضها على الملأ. فما قولك بهذا الشأن، أيها الأخ ديميسديل؟ ومن الذى سيتعامل مع روح هذه الخاطئة البائسة، أنا أم أنت؟".

دار همس بين أصحاب الرفعة، والنيافة، الذين يحتلون الشرفة، وقام الحاكم من مكانه، ثم أشار إلى مضمون خطاب رجل الدين، موجها كلامه إلى القس الشاب، بلهجة قاطعة، تحمل فى طياتها نبرة إجلال له: "أيها المعلم الصالح ديميسديل، إن المسئولية عن روح هذه المرأة، تقع عليك، ولابد أن تحضها على الإنابة والاعتراف، ومنهما تكون الحجة والبينة".

حولت الصراحة الواردة فى كلام الحاكم، عيون الحشد، نحو الموقر ديميسديل، وهو قس شاب، وفد من إحدى الجامعات البريطانية، إلى أدغال بلادنا، ناقلا معه كل معارف العصر. ارتقت بلاغته وحماسه فى الخطاب الدينى بالمكانة العالية التى تحققت لتلك

المهنة. كان لدى القس الشاب جاذبية واضحة من حيث مظهره، يبين في جبهته الشهباء التي تحمل الشموخ والوعيد، وفي عينين بنيتين، نجلاوين، تعكسان حزنا عميقا، وثغر إذا لم يحكم إطباقه، يرجف ليكشف عن حساسيته المفرطة وقدرته على ضبط النفس. رغم مواهبه الفطرية الكبيرة، ومكتسباته العلمية، إلا أن هناك ما كان يثار بشأن هذا القس الشاب، بعد أن ظهرت فيه إشارات الخشية والرهبة والجزع، وشعوره بأنه قد ضيع كلية وتعثر على درب الوجود الإنساني، وبأنه لن تغشاه السكينة ويحس بالراحة إلا بالانفراد بذاته؛ لذلك وبأقصى ما تسمح له واجباته المهنية، سلك المنعطفات التي تكتنفها الظلال، ودأب على العيش في تواضع، حياة طفل بريء، يقبل على الناس لو أتيحت له الفرص، بكل أريحية، وحيوية، ونقاء، وقد بلغ تأثيره على الناس كما كانوا يزعمون في تلك الفترة، كما لو أن ملاكا هو الذي يعظهم.

ذلك هو الشاب الذي قدمه كل من صاحب الوقار ويلسون، والحاكم بيللنجهام للناس على الملأ، يحضانه على مسمع من الجمع، بالكشف عما شاب روح تلك المرأة من غموض، تلك الروح التي كرمها الله رغم ما أصابها من دنس. شحبت وجنتاه، وارتعدت شفتاه، لأنه بطبعه لا يحتمل خوض مثل هذه المواقف.

قال السيد ويلسون: تحدث إلى المرأة يا أخي، فحديثك فيه من الأهمية لروحها، وكما قال الحاكم الجليل، قدر ما يحمل من الأهمية - لك، فمسؤوليتها في المقام الأول تقع عليك. حضها على الإقرار بالحقيقة!".

أحنى السيد الموقر ديميسديل رأسه فى ابتهال صامت، ثم تقدم إلى الأمام، ومال إلى الأمام أعلى الشرفة، وسدد عينيه إليها مباشرة ثم قال بثبات: "هيستير براين ها أنت تسمعين ما قاله هذا الرجل الصالح، وترين قدر المسؤولية الملقاة على عاتقى. فإن كنت تشعرين بأن هذا سيحقق لروحك الرضا والطمأنينة، وأن عقابك الدنيوى سيكون السبيل الأنجح لخلاصك من ربقة الخطيئة، فإننى أطلب منك بالنطق باسم شريكك فى الإثم وشريكك فى العقاب. فلا تعتصمى بالصمت بدافع الرأفة به والشفقة عليه، وإننى لأصدقك القول بأنه لئن هبط من عل، وشخص بجوارك هنا فى هذا المكان، على قاعدة العار، خير له من مواراته قلبا آثما مدى الحياة. ماذا لصمتك أن يقدم له، سوى الجمع بين النفاق والرذيلة، فقد شاءت السماء لك عارا على الملأ، لتحققى به نصرا على الشر الذى بداخلك، ليذهب عنك الحزن، فانتبهى الآن إلى أن إنكارك الكشف عنه، وهو الذى لم تواته الشجاعة لاغتنام هذه الفرصة مثلما واتتك، لن يؤدى إلا إلى حرمانه من كأس المرارة المترعة والمقدمة إليك الآن".

اختلج صوت القس الشاب، بنبرة قوية عميقة حلوة، بلكنة وطنه الأم. فاهتزت له القلوب كما هو ظاهر، بسبب ما يتمتع به من سمات، لا بما حملت عباراته من معان، وشدت السامعين إليه ليتآلف وجدانهم. حتى إن الرضيع الذى تحمله هيستير على صدرها، يبدو أنه قد تأثر بنفس المشاعر، ذلك أنه سدد نظرته المبهمة نحو ديميسديل، ورفع يديه الطفلتين، بين الغمغمة الصريحة والانبساط. بدا

أن خطاب ديميسديل كان من القوة، حتى ظن الجميع أن هيستير براين لا يمكنها إلا أن تصرح بعده مباشرة باسم المذنب، أو أن الجانى، سوف يأتى تلقائيا وبالضرورة الملحة من حيث وقف، سواء فى الأعالى أو الأسافل، مكرها على اعتلاء السارية.

هزت هيستير براين رأسها بالنفى.

هتف الموقر ويلسون محتدا عليها بصورة أكثر من السابقة: "لا تنتهكى آفاق رحمة السماء يا امرأة، لقد وهب الرضيع صوتا يعيد ويؤكد ما سمعته من نصح. فانطقى الاسم. لأن إنابتك إلى الصواب قد تعجل بخلع الحرف القرمزى عنك".

أجابت هيستير براين وهى لا تنظر نحو السيد ويلسون بل صوبت بصرها إلى عينى القس الشاب الغائرتين واللتين تعكسان القلق: "محال، لأن الحرف القرمزى قد وسم بأعماقى، ولا يمكنكم انتزاعه، فأنا اتحمل ألمه المبرح، كما اتحمل ألمى".

صدر صوت آخر من بين الحشد، يحمل البرود والقسوة معا: "تكلمى يا امرأة واجعلى للطفل أبا".

أجابت هيستير وعلى وجهها شحوب الموتى، بل ردت على الصوت الذى تبينت يقينا أنها تعرف صاحبه: "لن أتكلم، ويجدر بابنتى أن تنشد لها أبا فى السماء، لكنها لن تعرف لها أبا على الأرض، ألبتة"، غمغم السيد ديميسديل، بإيماءة منه، واضعا يده على قلبه، منتظرا ما سوف يسفر عن مناشدته لها، ثم تراجع إلى الخلف، متنفسا

الصعداء، وقال: "إنها لن تتكلم، عجيب هو قلب المرأة، ذلك الذى يحمل المقدرة والتسامح فى آن! إنها لن تتكلم!".

إدراكا منه لحالة عدم التجاوب الذهنى من جانب المذنبة المسكينة، ألقى كبير رجال الدين، الذى كان قد هيأ نفسه تماما لهذه المناسبة، خطابا فى الحشد يرتبط بالخطيئة، من كل الوجوه، ولكن مع استمرار إيمائه إلى حرف العار. توقف كثيرا لساعة أو أكثر عند هذا الرمز، فكانت عباراته تتدفق فوق رؤوس الأشهاد، ما جعلهم يستوحون أهوالا جديدة فى مخيلاتهم، تستمد هيئتها القرمزية من شرر نار جهنم المتطاير. كانت هيستير براين، طوال هذا الوقت منتصبة على قاعدة العار، بعينين زجاجيتين وحالة من اللامبالاة المضنية. لقد تحملت هذا الصباح، كل ما استطاع ذلك الكيان الإنسانى تحمله، ولأن نزعتها إلى التمرد على القيود، لم تكن فى حالة فرار ينتج عنها إغماء بسبب حالة المعاناة تلك، فإن روحها لم تستطع سوى النأى بنفسها تحت طبقة صخرية من التبلد، بينما ظلت القدرات الجسمية سليمة، غير منقوصة. كان صوت الخطيب يزأر بالوعيد، لكنه غير ذى أثر على سمعها.

شق عويل الرضيع وصراخه الفضاء المحيط، فى المرحلة الأخيرة من العقوبة المفروضة من حيث الوقت، بذلت جهدا فى إسكاته بتلقائية، ولكن بدا من الصعب تجاوبها مع ما يعتريه من اضطراب. اقتيدت إلى السجن بنفس طريقة خروجها منه وتوارت عن أنظار العامة، خلف بابه، بعد أن أحكم غلقه بالحديد، ودار الهمس

بين من كانوا يشيعونها بأنظارهم، حول ما إذا كان الحرف القرمزى، قد أضاء بوميضه الممتقع الممر المظلم، داخل مبنى السجن.

انتابت حالة من الهياج هيستير براين، لدى عودتها مباشرة إلى السجن، مما استوجب وضعها تحت الملاحظة المستمرة، كي لا تقدم على ارتكاب حماقة بحق نفسها، أو تتسبب نوبة هياجها في إيذاء الطفلة المسكينة. ثبت حين جن الليل استحالة القضاء على حالة العصيان تلك، سواء بالتوبيخ أو التهديد بالعقاب، ففكر السيد براكت السجان، في استقدام طبيب. وصف الطبيب بالحنكة لاتباعه شتى أساليب العلاج بالطب المسيحى، فضلا عن ذيوع صيته في كل ما يمكن أن يصل إليه علم أهل البرارى والأحراش، في مجال الأعشاب الطبية، وجذور النباتات البرية التي تنمو في الغابة. والحق أن الحاجة إلى عون متخصص في هذا المجال كانت ماسة، ليس من أجل هيستير براين فحسب، بل كانت أكثر من ضرورية، من أجل الطفلة التي تستمد قوتها من صدر الأم، وقد بدا أنها تنهل منه كل مسببات اليأس والتمرد والألم المسيطرة على كيان الأم. فالطفلة الآن تنتابها نوبات ألم شديد، تشمل كل جسدها الصغير، ما تحملت هيستير براين من ألم معنوى خلال النهار.

ظهر خلف السجان مباشرة، داخل غرفة السجن الكئيبة، أحد الأشخاص، في هيئة غريبة، كان قد شد وجوده بين الحشد، اهتمام حاملة الحرف القرمزى البالغ. وقد أودع في السجن، ليس لاشتباه في ارتكابه ما يخالف القانون، بل أتى بعد إقناعه بالقدوم بأفضل السبل وأنسبها. واستلزم الأمر من أولى الأمر والنهى بالبلدة، أن يقوموا

بالتفاوض مع زعماء الهنود الحمر بشأن فكه من أسرهم. أعلن فى السجن عن مقدمه تحت اسم روجر شيلينج وورث. ظل مأخوذا لوهلة بسبب ما ران على المكان من هدوء وصمت حدثا لدى وصوله، ذلك أن هيستير براين قد التزمت ما يقارب سكون الموتى، مع أن الطفلة واصلت العويل.

قال الممارس: "عذرا، أيها الصديق، دعنى الآن وحدى مع مريضتى، وثق أيها السجان، بأننى سأعيد هيستير براين فى الحال إلى الالتزام بالسكينة، وأعدك بأن تمتثل السيدة هيستير من الآن فصاعدا للأوامر، بأكثر مما عهدتها من قبل. أجاب براكت، رئيس إدارة السجن: "لو تيسر إنجاز الأمر بفضل منكم، فلا حرج فى ذلك، وإننى سأقر ببراعتكم. فالمرأة تبدو كمن أصابها مس شيطان، ولإخراجه من جسدها، يجدر جلدها بيدى هاتين".

دخل الغريب بهدوء، تميز به العاملون فى هذا المجال، الذى كان قد أعلن انتماؤه إليه. لم يتغير مسلكه حتى بعد انسحاب السجان من الغرفة، تاركا إياه، وجها لوجه، مع المرأة التى كانت قد استولت على اهتمامه وهو بين الحشد، بما ألمح إلى وجود علاقة قديمة بينهما. وجه عنايته فى البداية إلى الطفلة، التى كانت تصرخ وتتلوى من الألم، فوق مهد خفيض، مما اضطره لتأجيل كل ما عدا ذلك، فى سبيل العمل على تهدئتها. فحص الطفلة بدقة، ثم شرع فى فض حقيبة جلدية أخرجها من تحت سترته، تحتوى على مستحضرات طبية خاصة، ثم قام بمزج أحدها بقليل من الماء وأشار بقوله: "إن أبحاثى

القديمة فى الكيمياء، وتجوالى ما زاد على العام، تنقلا بين أناس خبروا مزايا المواد العضوية، جعلا منى طبيبا أفضل كثيرا ممن يدعون حصولهم على الدرجات العلمية فى الطب، هاك يا امرأة، فهو رضيعك وليس رضيعى، ولن يتعرف على صوتى وصورتى، كما يعرف صوت وصورة أبيه، أعطه بيدك هذا العقار المهدىء".

ردت هيستير العقار المقدم إليها، وهى ترمقه بنظرة تعبر عن جزعها ثم همست بقولها: "أتريد أن تجعل ثأرك منى على هذه الطفلة البريئة".

قال الطبيب ما بين برود ورقة: "يا لك من امرأة حمقاء، ما الذى يجعلنى أقدم على أذى طفلة مسكينة وابنة سفاح كهذه؟ الدواء قوى المفعول ولو كانت ابنتى...... أجل.... ابنتى، وليست ابنتك لما قدمت ما هو أفضل منه".

وبينما ظلت على حالة التردد تلك، كونها تمر بحالة ذهنية سيئة، تناول الطفلة من يديها وأعطاها العقار المسكن، فأثبت العقار جدواه فى الحال، ورد الطبيب اعتباره، وسكت عويل المريضة الطفلة، ثم هدأت التقلصات المصحوبة بالألم شيئا فشيئا، وفى دقائق معدودة وكما هى عادة الصغار، بعد إحساسهم بالراحة، مضت فى سبات عميق.

ركز الطبيب، بعد أن صار من حقه التعامل معه كطبيب، جل اهتمامه على الأم. بفحصها بدقة، فى تؤدة واهتمام، فتحسس نبضها،

ونظر فى عينيها، نظرة جعلت قلبها يجفل منه، بسبب إظهاره الود فى البداية، وتبع ذلك الغموض والوحشة. انتهى من فحوصه، ثم شرع فى مزج عقار مهدىء آخر.

أشار بقوله: "لا أعرف شرابا للسلوى والنسيان، لكنى تعلمت أسرارا جديدة عدة، وها هى إحدى الوصفات، التى علمنى إياها، أحد الهنود، مقابل بعض الدروس، هذه الوصفة قديمة، قدم باراسيلوس، اجرعى الشراب، فلربما كان أقل جلبا للسكينة من ضمير بلا خطايا، وهو ما لا أقدر على منحك إياه، لكن الشراب سيهدئ من جموح وفورة انفعالاتك، كزيت يلقى على موج بحر هادر".

قدم لهيستير الكأس، فتلقته منه بنظرة ملؤها الجد والهدوء، بل وخالية من الخشية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى الريبة والشك فى نواياه. نظرت إلى طفلتها الغافية ثم قالت له: "إننى أفكر فى الموت بالفعل، بل أسعى إليه حثيثا، وربما كنت أدعو كى يتحقق ذلك، فإن يكن الموت الآن يرقد فى هذه الكأس، فإننى أطلب أن تعيد التفكير، قبل رؤيتك لى وأنا أجرعها، انظر ها هى الكأس على شفتى الآن".

أجاب وهو لا يزال يحتفظ بهدوئه المصطنع: "اجرعى الكأس إذا، أتعرفين عنى القليل؟ أتتجه أفكارى هكذا إلى السطحية؟ إننى حتى لو كنت أفكر فى مشروع للانتقام، فما الذى يمكن أن أحقق به مآربى خيرا من تركك على قيد الحياة، بل وإعطائك من العقاقير ما يدفع عنك الأذى والخطر كي يظل العار المشتعل، مؤججة ناره فى صدرك؟".

وضع أثناء حديثه إليها، سبابته الطويلة فوق الحرف القرمزى، فتراءى له على الفور مأججا فى صدر هيستير، وكأنه جمرة من نار. لاحظ إيماءتها التلقائية، فابتسم وقال: "ومع ذلك، فلتواصلى الحياة إذا، وليمض قدرك المشئوم معك، حيثما كنت فى أعين الرجال والنساء، وفى عين من كنت تدعينه زوجا لك، وفى عين طفلتك تلك! وبما أنه يجدر بقائك على قيد الحياة، أجرعى هذا العقار المهدئ".

دون تباطؤ أو مزيد من الاعتراضات، أفرغت هيستير براين الكأس فى جوفها، بإشارة من رجل محنك جلست فوق الفراش الذى غفت فوقه الطفلة، بينما قام هو بسحب المقعد الوحيد فى الغرفة، وجلس بجانبها. أصبحت لا حول لها ولا قوة تجاه تطورات متسارعة كهذه سوى أن سرت فى بدنها رعدة، بعد أن أحست بأن كل ما حدث فى جلب الراحة الجسدية للمريض، سواء كان الدافع إنسانيا، أو كان عملا بمبدأ ما، أو أن وازعا خلقيا، منعه من استعمال القسوة معها، وها هو الآن يعاملها عقب هذا كله معاملة رجل، تسببت فى إصابته بجرح عميق لا يندمل.

قال لها: "هيستير، إننى لن أسألك فيم وكيف كان سقوطك فى الزلل، أو عن سبب اعتلائك سارية العار، حيث عثرت عليك. فالسبب معروف. وذلك كله قد حدث لحماقتى وضعفى، أنا رجل الفكر، حشرة الكتب فى المكتبات الكبيرة، رجل أدركتنى الشيخوخة، بعد أن أنفقت أحلى سنوات عمرى فى تحقيق ما كنت أطمح إليه من نهم إلى المعرفة، ما شأنى أنا بما كان لديك من نضارة وصبا؟ كنت معيب الخلقة منذ ولدت، فكيف ضللت نفسى بمقولة أن مواهبى

الفكرية، قد تحجب العيب الجسدى فى خيال فتاة شابة. يرانى الرجال حكيما، فإن كان الحكماء من الذكاء دوما فى نيل النفع لأنفسهم، فقد كان يجدر إدراك أننى حين تركتُ الغابة الموحشة مترامية الأطراف ورائى، وجئت إلى مستوطنة المسيحيين هذه، سيكون أول من تقع عليه عينى...... هو أنت...... هيستير براين، تقفين، رمزا للعار، أمام كل الناس، كلا فمنذ اللحظة التى هبطنا فيها درج الكنيسة، كزوجين، كان يجدر بى أن أرى لهب الحرف القرمزى الشاحب متقدا فى آخر دربنا".

مع إحساس هيستير بالإحباط، لم تقو على تحمل هذه الطعنة الماضية، والموجهة للحرف، وهو رمز عارها، فردت قائلة: "إنك تعلم. تعلم أننى كنت صريحة معك. فأنا لم أكن أشعر نحوك بالحب، ولم أتظاهر لك بذلك".

أجابها: "بالفعل، فهذا الأمر يعود إلى حمقى، وأنا أقر بذلك. لكننى حتى فى تلك الفترة من حياتى كنت أحيا بلا هدف. خلا العالم أمامى من البهجة. كان قلبى سكنا كبيرا، اتسع لزوار كثيرين، لكنه كان وحيدا محبطا، خلا من دفء ربة البيت، فاشتقت من ثم لدفء إحداهن. وبدا الحلم غير بعيد المنال..... بالنسبة لكهل، منبوذ، حزين مثلى...... ذلك أن النعمة الميسورة والمتاحة للبشر فى كل مكان، كان يمكن بالتالى أن تتاح لى، وهكذا اجتذبتك إلى قلبى، إلى أعماقه وسعيت إلى بث الدفء إليك، من دفء أشاعه وجودك بداخله".

همست هيستير: "إننى ظلمتك ظلما بينا".

أجاب بقوله: "بل ظلم كل منا الآخر، بدأت أنا بالظلم، حين غررت بشبابك الغض فى وصله بهرمى برباط شاذ وزائف. لذا فإننى كرجل لم أكن لأبدد أفكارى وفلسفتى سدى، فإننى لن أسعى إلى ثأر منك أو تدبير مكيدة ضدك. فالكفتان بيننا متعادلتان، ولكن من هو ذلك الرجل الذى تسبب فى ظلم كلينا وينعم بالحياة الآن؟". ردت هيستير وهى ترمقه بنظرة حادة: "لا تسأل فى هذا الشأن. ذلك لأنك لن تعرفه مطلقا".

أردف وهو يبتسم بما ينبىء عن شر وعن ذكاء متأصلين فيه، فقال: "لن تنطقى باسمه ألبتة؟ ولن أتعرف عليه مطلقا! إننى أصدقك القول يا هيستير، بأننى حين أقول إن هناك قلة من أمور ظاهرة كانت أو باطنة أو لا تخطر ببال بشر، بضع أمور يمكنها أن تخفى عمن يعمل بجد ودون تحفظ لحل هذا اللغز. إنك قد توارين سرك عن المتلصصين من الجمهور، وعن القضاة والقسس، كما فعلت اليوم، حين حاولوا انتزاع اسمه منك، وعرضوا أن تقدمى شريكا لك فوق السارية. أما أنا، فإننى أصل إلى الهدف بحواس أخرى، لا تتوافر لديهم. سأسعى إثر هذا الرجل، كما سعيت فى طلب الحقيقة بين الكتب، وكما بحثت عن الذهب فى علم الكيمياء. هناك من التجانس ما بينى وبينه ما يجعلنى متنبها له. ستقع عليه عينى وهو يرتعد فرقا، وسأتلذذ أنا أيضا بقشعريرة فى جسد، تنتابنى بغتة، دون أن أعرف مصدرها. لابد له من الوقوع فى قبضتى عاجلا كان أم آجلا".

التمعت عينا العالم العجوز بشدة، ما جعل هيستير براين تحكم قبضتها على قلبها، خشية أن يعجل بقراءة ما حواه من سر.

قال لها وهو ينظر إليها نظرة ملؤها الثقة، وكأن القدر قد اتحد وإياه: "ألا تكشفين عن اسمه؟ إنه لا يحمل حرفا للعار، محاكا فى ثوبه، كما تفعلين، لكننى سوف أقرأه مرسوما على قلبه ولن يفلت منى. لا تخشى عليه من شىء ألبتة! ولا تعتقدين أننى سأتدخل فى نهج السماء فى قصاصها منه، ولن أعمل فى غير ما أصبو إليه بإلقائه فى قبضة قوانين البشر. ولا تظنى أننى سأبتكر من الأساليب ما يقضى عليه بالموت، أو بتشويه سمعته فليبق حيا يرزق. وليتوار فى الشرف الظاهر ما شاء له! فإنه لن يفلت منى رغم ذلك".

قالت هيستير وهى فى حيرة من أمرها: "أفعالك ظاهرها الرحمة، وقولك يشى بغلظة فيك".

استأنف رجل العلم قائلا: "بما أنك كنت حليلة لى، فإننى ألزمك بشىء واحد، كما حافظت أنت على سر عشيقك، أبق على سرى. فلا يوجد فوق هذه الأرض من يعرف بى، لا تتبسى لمخلوق عنى ببنت شفة، أو تدعينى حليلا لك. هنا وفى أطراف البرارى سأنصب خيمتى، فأنا عابر سبيل أتنقل من مكان لآخر، لا تربطنى بالبشر مصالح أو أهواء، أتيت إلى هذه البلدة، فوجدت امرأة ورجلا وطفلا تربطنى بهم علاقة وثيقة. لا يهم مضمون هذه العلاقة، حبا كانت أم كراهية، صوابا أم خطئا! وأنك وما تملكين يا هيستير ستكونين فى حوزتى، وطنى حيث تكونين. لكنك لن تغررى بي!"، تساءلت وهى

لا تعرف سببا لتلك الرابطة السرية: "ما الذى ترغبه إذا؟ لم لا تفصح عما فى نفسك بوضوح ثم تتخلص منى على الفور؟".

أجاب: "إننى ربما بذلك لن أمنع عارا يوصم زوج امرأة خاطئة. وربما كانت هناك أشياء أخرى. إن هدفى الأوحد أن أحيا وأموت مجهولا لدى الناس. لذا فاجعلينى أمام الناس وكأننى مت، ولن تصل أخبار بشأنى، وسوف لا تتعرفين علي سواء بالكلمة أو الإشارة والنظرة، لا تنطقى بالسر، خاصة للرجل الذى تعرفين حق المعرفة، واحذرى أن تغررى بى. وانتبهى إلى أن سمعته ومنصبه وحياته بين يدى".

قالت هيستير: "سأحافظ على سرك كما حفظت سره".

أردف فى الحال قائلا: "اقسمى على ذلك".

أقسمت هيستير.

قال العجوز روجر شيلينج وورث، كما سيلقب من الآن فصاعدا: "أما الآن سيدة براين، فسوف أتركك وحدك، ومعك ابنتك والحرف القرمزى. ما بال الحرف إذا؟ أيلزمك عقابك بوضع الشارة أثناء نومك؟ ألا تخشين الكوابيس والأحلام المزعجة؟".

تساءلت هيستير، وقد أصابها الجزع من تعبيرات ارتسمت على محياه: "أأنت مثل الرجل الأسود الذى يسكن الأدغال المحيطة؟ أتطوقنى برباط يؤدى إلى هلاكى؟".

رد بابتسامة أخرى: "لا هلاك لك أو لى".

٥

هيستير وشغل الإبرة

ما إن انتهت مدة حبسها، حتى فتح باب السجن لها، فخرجت تتلقى أشعة الشمس التى تسطع للبشر جميعا، ولأن قلبها كان يعانى السقم والكآبة، فقد تصورت أن الشمس لا ترسل ضياءها إلا للكشف عن الحرف القرمزى، الذى تضعه على صدرها. ربما كان ما تعانيه من عذاب وهى تخطو خطاها الوئيدة على عتبة باب السجن، كان أشد وطئا حتى مما سبق وصفنا له، وهى فى الركب وسط الحشود، حين كان عليها أن تقدم مشهد العار بحضور الجميع ليشيروا إليها بأصابعهم. دعمها آنئذ جهد عصبى خارق، فضلا عما تمتعت به من قدرة على المقاومة، دعماها فى أن تحول هذا المشهد إلى حالة من النصر المؤزر.

كان هذا حدثا فريدا بالنسبة لها، ذا طبيعة خاصة، لأنها كانت للمرة الأولى فى حياتها تواجه مثل هذا الحدث. ورغم أنها كانت مقبلة على فاقة وعوز، بعد خروجها من السجن، فإنها كانت بسبيلها إلى استجماع طاقاتها الحيوية، التى كانت ستفى بالغرض المرجو الآن وفيما يلى من العمر. إن نفس القانون الذى أدانها ثم أفرج عنها، هو الذى كبل خطاها، ذلك المارد الجبار بملامحه الصارمة، بل والقادر على المنح والمنع بذراعه الحديدية، وبالحكم الذى أصدره

بحقها، لتكتوى بالعذاب على ما ارتكبت من إثم. لكنها الآن وبعد أن بدأت حياتها العادية بتلك الخطى الوئيدة، عبر باب السجن، كان عليها إما أن تثبت، وتواصل التقدم بما تتحلى به من دعم معنوى، أو أن تسقط من فورها مغشيا عليها على عتبته. لم تعد تستطيع استعارة شىء من المستقبل يعينها على ما تواجه من محن. فكل غد سوف يأتى ببلواه، كذلك ما بعد الغد وما يليهما. كل سوف يحمل معه تجاربه كما حمل اليوم ما تحتمله من عذاب. فالمستقبل البعيد سوف يجئ بنفس ما جاء به اليوم من هموم، عليها أن تحتمل وطأتها دون أمل فى تلطيفها بتوارد الأيام والسنين، بل سيزداد ركامها المضنى، مضافا إلى ركام ما يشينها من عار. خلال هذا كله وبعد أن تضمحل ذاتيتها، سيصبح العار قضية عامة، يشير إليها المصلحون ورجال الدين، فيه يجسدون الرغبة الآثمة بكل قوة، وسهولة الوقوع بين فكاكها. ذلك كى يأخذ الشباب منها العبرة.

والأطهار أخذوا العبر وهم ينظرون إليها، والحرف القرمزى متوهجا على صدرها ينظرون إليها وهى ابنة لأبوين عفين وإليها وهى أم لرضيعة ستصير امرأة يوما ما، وإليها وهى التى كانت عفة ذات يوم، وأنها اليوم تجسيد وتصوير لواقع الخطيئة. وسيكون شاهد قبرها الوحيد، والذى لابد وأن يوضع فوقه، رمز العار.

ما يثير العجب بالفعل، أن العالم بقدر رحابته كان فيه ملاذا لها، فلم يكن فى الحكم الصادر ضدها، فقرة واحدة تقيدها داخل المستوطنة البيوريتانية، فى عزلة عن الناس، وشعور بالوحشة. كان

لها مطلق الحرية فى العودة إلى مسقط رأسها، أو إلى أى بلد أوروبى آخر، ويمكنها هناك أن تغير صفتها وهويتها، وتظهر أمام الناس باسم وافد جديد، كما كان أمامها التوغل فى المسالك المظلمة الوعرة، فى الأحراش، بما يتفق وطبيعتها الجموح، بين أناس، اعتادوا مثل هذه الحياة ومارسوها بمعزل عن قانون البشر، ذلك الذى أدانها، وأن ما أثار الدهشة والحيرة أن هذه المرأة، كانت تعتبر هذا المكان موطنا لها، لا لشىء إلا لأن تكون رمزا للعار. لكن هناك شيئا من القدرية فى هذا الأمر، إحساسا قهريا وملحا لديها، مفاده أن هذا هو قدرها وعليها أن تتقبله، لأنه كالطيف الذى يجبر المرء على البقاء والإقامة فى مكان يتفق أنه سيواجه فيه حدثا كبيرا يقع له، ويظل معه هذا الإحساس ملحا عليه بالبقاء، حتى يقع الحدث، وبصورة أسوأ مما كان متوقعا، ليصطبغ عنده بصبغة الأسى. لقد ضربت الخطيئة والعار جذورهما فى التربة. وكأن الأمر كان إيذانا بميلاد جديد، يشبه كثيرا ما حدث لها فى السابق، بل يتجاوزه، بعد أن انتقلت الأحراش بكل ما حوت من غرائب فى نظر كل حاج إليها وطواف، إلى بيت هيستير براين، ذلك البدائى الكئيب، لتقضى فيه بقية عمرها. لم تتآلف وكل المشاهد الظاهرة فوق ظهر البسيطة. حتى تلك القرية التى تقع فى الريف الإنجليزى، وفيها أيام الطفولة السعيدة وبتولة الصبا، تراءى ذلك كله حتى حين كانت فى كنف أمها، كثياب نضتها عنها منذ زمن بعيد. كان القيد الذى يربطها بالمكان، قيدا من نوع جديد، رسخ فى أعماقها ولا سبيل إلى الفكاك منه.

ربما أبقاها أيضا إحساس آخر داخل المشهد، والدرب اللذين صارا بالنسبة إليها قدريان، وهو إحساس لا مراء فيه، رغم أنها كانت توارى سره عن نفسها، خشية أن يقاوم للخروج من قلبها، كما تخرج الحية من وكرها.

استقرت فى هذا المكان البعيد هناك، مع من حسبت أنه قد ارتبط بها بنكاح، لا يقر به امرؤ على وجه الأرض، سينتهى بهما إلى الوقوف معا أمام عـدالة السماء، ويجـعل من مذبح عرسهما فى الآخرة، عذابا مشتركا لا ينتهى.

كان الشيطان يدفع بهذه الفكرة فى تأملاتها، ويسخر من الأمل بعيد المنال الذى شغل وجدانها كله وتعلقت به، ويجهد فى حثها على التخلى عنه. كان عسيرا عليها مواجهة تلك الأفكار، فتسرع على الفور إلى ردها لمستودعها. إن ما أجبرت على الإيمان به، كان يمثل نصف الحقيقة، ، وكان النصف الآخر خداعا للنفس، وهذا فى حقيقة الأمر كان سبب بقائها فى نيو إنجلاند. قالت لنفسها، بأن هذا المكان شهد عذاب عارها اليومى، لتعويضها بطهارة تختلف عن ما ضاع منها فى السابق، هذا الطهر كان كما ظنت أقرب ما يكون إلى القداسة، لأن خاتمته الاستشهاد.

مع ذلك فإن هيستير براين لم ترغب فى الهرب. ففى الضواحى الواقعة على حدود البلدة، التى تتاخم المنطقة الآهلة بالسكان، كان هناك أحد الأكواخ الصغيرة، المسقوفة بالقش. كان أحد

المستوطنين قد أقامه ثم هجره؛ لأن الأرض المحيطة به كانت بورا، لا تصلح للزراعة، وقد نأت عزلة الكوخ النسبية به عن دائرة العلاقات الاجتماعية، التى تقنن بالفعل عادات وتقاليد المهاجرين. أقيم هذا الكوخ مطلا على حوض بحرى يقع على التلال المحيطة بالأحراش، من ناحية الغرب. لم يفلح دغل الأحراش الخفيض والذى نما وحده فوق شبه الجزيرة، فى أن يوارى الكوخ عن العيان، بما يشى بأن المكان كان قد قصد بإقامته فى هذه الناحية إخفاءه عن العيان أو كان الأفضل أن يبقى على هذا النحو، فى هذه السكنى المتواضعة والمعزولة عن البشر وبوسائل عيش بدائية، وبتصريح من أولى الأمر والنهى، أولئك الذين وضعوها تحت المراقبة الشديدة، استهلت هيستير براين حياتها بصحبة ابنتها، مما فرض ظلالا من الشك حول المكان على الفور.

فالأطفال وهم فى سنى أعمارهم الأولى، لم يكونوا يدركون سببا لنبذ هذه المرأة المسكينة من دنيا التسامح والمحبة، التى تعارف عليها البشر، فدأبوا على التسلل خلسة لمشاهدتها، وهى عاكفة على شغل الإبرة فى شرفة الكوخ، أو واقفة فى المدخل، أو منشغلة بحديقتها الصغيرة. أو وهى ماضية فى طريقها عبر الدروب المؤدية إلى المدينة. ناظرين إلى الحرف القرمزى على صدرها، ثم يتراجعون من ثم، خشية انتقال عدواها إليهم. لم تشأ هيستير أن تخاطر بطلب حاجة ما، فى عزلتها تلك، لافتقادها من يتجاسر ويقدم على الإعلان عن صداقته. كانت تمتلك صنعة تكفى رغم أن انتشارها

فى بلد كهذا، كان محدودا نسبيا، لسد قوت الرضيعة وقوتها. كادت حرفة الحياكة بالإبرة أن تكون الحرفة الوحيدة التى تمتلكها المرأة فى ذلك الوقت وفى أيامنا هذه. لقد حملت فى الحرف الذى أتقنت حياكته على صدرها، مثالا حيا على براعتها فى التخيل وفى رهافة الحس. وفيهما ما تزهو بامتلاكه سيدات الطبقة الراقية، بإضافة أرقى وأسمى ما يبتكر الإنسان من زينة إلى طرز أثوابهم الحريرية والمذهبة. تجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن هذا المكان، كان يشهد دعوة فريدة فى اللون الأسود القاتم البسيط، الذى كان يميز طرز ثياب البيوريتان عامة، إلى الإقبال على المنتجات الراقية من عمل يدها بالإبرة. لم تخطىء ذائقة العصر، بسعيها إلى كل ما أتقنت إنتاجه فى هذا المجال، فى هيمنتها على أسلافنا العابسين، أولئك الذين خلفوا وراءهم الكثير من الطرز، التى قد يصعب الاستفادة منها الآن. فالمناسبات الرسمية، كترسيم الكهنة، وتنصيب القضاة، وكل ما يضفى الأبهة على الصورة التى تظهر بها الحكومة أمام الناس؛ حيث كانت تلك المظاهر، تمثل شأنا سياسيا، تحدد بمجموعة من الطقوس يحدوها الوقار والرشد، وقتامة اللون، بل والأبهة المتعمد الظهور بها أيضا. فأطواق الرقبة المكشكشة المنشاة، والأوشحة التى تحتاج فى تطريزها لمشقة، والقفازات بديعة التطريز، هذه كلها كانت ضرورية لأصحاب المناصب الرسمية، التى يمسك فيها الرجال بمقاليد السلطة. أولئك الذين كانوا يشار إليهم بأصحاب المقام الرفيع، حيث الجاه أو الثروة، حدث هذا حتى فى الوقت الذى أخضعت فيه قوانين الإنفاق

العام هؤلاء وأمثالهم ممن ينفقون ببذخ، لحالة التقشف السائدة. كان هناك طلب متجدد وذو مواصفات محددة، على كل ما كان لهيستير براين أن تقدمه من حياكة لأثواب الجنازات، سواء الخاص منها بالمتوفين أو ما يساير أحزان الأحياء على فراقهم، من زخرفة متعددة الأشكال والألوان، أو من أثواب داكنة أو بيضاء شفافة. قدمت للرضع فى الثوب الكتانى، إمكانية أخرى للعمل بمقابل؛ حيث كانت أرديتهم تعكس حالتهم الاجتماعية.

بالتدريج، أصبح لصنعة يدها ما يمكن أن نعتبره اليوم صيحة فى عالم الأزياء. وسواء قدر هذا للتلطيف من قدر امرأة تعسة، أو كان من فضول بلغ حد المرض، ليجعل من توافه الأشياء قيمة كبيرة، أو أنه فى ذلك الوقت، ولظرف غير محسوس، كان يمنح أشخاص بعينهم بسخاء ما قد يحرم منه آخرين رغم سعيهم إليه، أو أن هيستير براين قد ملأت بالفعل فجوة، لولاها لظلت على حالها، لكنها بعد ذلك كله تأكد أنها كانت بالفعل تمتلك صنعة بمقابل مجز، بعدد من الساعات قد يبلغ أقصاه، وجدتها مناسبة للشغل بإبرتها... يجدر لأصحاب الخيلاء أن يصابوا بالخزى، عند ظهورهم فى مناسبات الأبهة والوقار، بثياب صنعتها يد هيستير الآثمين، كانت صنعتها تبرز فى ياقة الحاكم المكشكشة والمستديرة حول رقبته، وتبرز فى الأوشحة التى يضعها رجال الجيش، والقسس فى أوثقتهم، اعتلت غطاء رأس الصغير، كما طويت لتبلى وتفنى فى أكفان الموتى. ولكن لم يسجل لها ولو مرة واحدة أن براعتها دعيت لتزيين

طرحة الزفاف البيضاء، التى تغطى رأس العروس الحيى الخجول. شذ عن ذلك كله، هذا الوجه الذى ظل على عبوسه واكتئابه، مقابل ما اقترفته من أثم.

لم تسع هيستير وراء منفعة ذاتية، خلا ضرورات الحياة، البسيطة والزهيدة، بقدر يسير يقيم أودها والطفلة. كان ملبسها من خشن الثياب ومن أكثر ألوانها قتامة ولا تزينه سوى حلية بعينها، هى الحرف القرمزى الذى قدر لها أن تحمله. كان ما يميز ثوب الطفلة، لمسة الخيال فيه أو لنقل براعة الابتكار، تلك التى أسهمت بالفعل فى الارتقاء بالجمال الرشيق، الذى بدا يظهر ذاته فى الطفلة الصغيرة، وهى فى هذه السن المبكرة، بل بدا أنه يحمل أيضا لغزا خفيا. وسوف نتحدث فى هذا الأمر لاحقا. أنفقت هيستير براين، كل ما كان يزيد عن حاجاتها الضرورية فى أعمال البر، باستثناء ما كانت تنفقه فى تزيين الطفلة، أنفقته على المعوزين، الأقل منها فاقة، وعلى من تكررت إهانتهم لليد التى أطعمتهم. كانت تكرس الكثير من وقتها الثمين فى صنع ثياب خشنة للفقراء. يرجح أن تكون فكرة الكفارة لديها (وهى العقاب الذى ينزله الآثم بنفسه) قد تركزت فى حرفتها هذه، بعزوفها عن متع الحياة، وإنفاقها الساعات الطوال فى هذا العمل الشاق. كان يميزها الطابع الشرقى المقبل على الحياة والميال إلى الإحساس بالترف، والولع بالجمال الأخاذ، ولم تجد شيئا آخر لتحقق به ذاتها غير هذا المجال، بغض النظر عما امتلكته من براعة فى إنتاجها من العمل بالإبرة.

تجعل النسوة بما جلبن عليه من إحساس رقيق، من اشتغالهن بالإبرة، وسيلة للتسرية عنهن، لا يعرفها الجنس الآخر. لكن هيستير براين، كانت تمارسها للتعبير عن ذاتها، ولكبح الجموح العاطفى المتأصل بداخلها. لقد تجاهلت مشاعرها الأنثوية كما عزفت عن ما يتاح فى الحياة من مباهج، بعد أن أصبحت تلك فى نظرها خطايا. ويخشى أن يكون تدخلها إلى حد المرض، وبوازع من الضمير، فى الأمور غير الحسية، لم يكن عن توبة نصوح، بقدر ما كان أمرا مثيرا للريبة، مؤداه أن خطأ فادحا ما قد توارى وراء هذا برمته.

تقدمت هيستير براين، إلى الحياة على هذا المنحى، لتجعل لها دورا تمارسه فى الحياة. لم تستطع الدنيا أن تسقطها كلية من حسابها، لما تتميز به من قدرات كامنة فيها، وطاقة نادرة، مع أن الدنيا قد واجهتها بشراسة كبيرة، بصورة لا يمكن أن يحتملها قلب امرأة، لم تلقاها إلا مقطبة الجبين، وقد صار سمة من سمات الدهر. لم تشعر مع كل علاقاتها بهذا المجتمع، بأنها تنتمى إليه. كانت كل إيماءة أو كلمة منها، أو حتى صمتها الذى ران عليها عند من كانت لها صلة بهم، كان يفسر بل يفصح بكل وضوح فى الغالب عن أنها لا وجود لها بينهم، وأنهم عزلوها عنهم، وكأنها تعيش فى عالم آخر. إن اتصالها بالطبيعة الأم، كان عبر أحاسيس وأعضاء بشرية أخرى، تختلف عن تلك التى يمتلكها البشر، وقفت بمعزل عن المصالح الزائلة، رغم تيسرها، وسارت كطيف يكرر زيارته لبيت ألف زيارته لأهل هذا البيت لكنه لا يستطيع الظهور للعيان، و ليس له أن يشارك

أهل البيت بهجتهم وسعادتهم، ولا أن يحزن لمصائبهم، ولئن نجح فى إظهار رثائه المكتوم فلن يثير فيهم سوى الكراهية المشوبة بالرعب والفزع. بدا فى حقيقة الأمر أن مشاعر التهكم المرير هى النصيب الأوفر، الذى ظفرت به من الناس. لقد خلا ذلك العصر من الكياسة ومن مراعاة مشاعر الآخرين. أدركت هى هذا الأمر، واستوعبته كلية، ولم يكن هناك خشية من أن تنسى ذلك، فقد كان نصب عينيها، كعذاب يتجدد من لمسة خشنة على سطح رقيق أملس. كان الفقراء كما ذكرنا فى السابق مناط رعايتها، لكنهم كانوا يلعنون اليد التى امتدت لانتشالهم من كبوتهم. فضلا عن أن سيدات الطبقة الراقية اللائى كن يستقبلنها فى بيوتهن لداعى عملها بالحياكة، اعتدن قطر المرارة فى قلبها قطرا، تارة بوازع من كراهية متأصلة فيهن، قد تدفعهن إلى إعداد السم الزعاف من أبسط المواد العضوية، وتارة بألسنة حداد، تقع فى قلب المسكينة العزلاء موقع الضربة القوية فوق جرح لا يندمل. تزودت هيستير بطول صبر وأناة. لم ترد تلك البذاءات، اللهم إلا بالخجل والحياء. تندفع الدماء إلى وجنتها الشاحبة، وتعود ثانية إلى صدرها. كانت مجاهدة للنفس صبورة، دعت لأعدائها، وهى تخشى أن تتحول دعواتها إلى لعنات، رغم غفرانها لهم ذلك عن طيب خاطر.

تواصل إحساسها بوخز لا نهاية له، بعد أن أحكمت عقوبة واجبة النفاذ تدبيرها عليها. كان رجل الدين يقف فى الطريق العام، لإلقاء موعظة عنها، فيتحلق الناس من حوله، مقرنين حنقهم عليها

بمرارة سخريتهم. ولو حدث أن دخلت الكنيسة التى تتبعها فى أيام الآحاد، أملا فى المشاركة فى نيل رضا الرب كباقى البشر، يكون من سوء طالعها أن يتناولها مضمون الخطبة الدينية. أصبحت للأطفال مصدر فزع ورهبة، بعد أن تشربوا من ذويهم، أفكارا مبهمة ومثيرة لهلعهم من تلك المرأة، تلك التى تسعى فى الطرقات، وبرفقتها ابنتها الوحيدة. ورغم أنهم فى البداية، كانوا يفسحون لها الطريق، فإنهم كانوا يشيعونها بصراخ حاد، ويوجهون إليها ألفاظا لا تتناسب مع سنى أعمارهم، بل كان أقلها إثارة للامتعاض، يخرج عن شفاه لا تعى ما تنطق به. بدا الجدل بشأن ما لحق بها من عار، أمرا قابلا للانتشار، فالطبيعة الأم كلها كانت عارفة به، أما هيستير فلن تتأثر على الإطلاق، بتهامس أوراق الشجر بقصتها، بعد تهامس نسيم الصيف بها، وزمجرة ريح الشتاء.

أحست بلون جديد من العذاب فى عيون أخرى. فغرباء المدينة لم يفتهم، التفرس بفضول فى الحرف القرمزى، لم يفتهم مطلقا كيه فى صدرها من جديد، حتى صعب عليها التراجع، بل إنها تراجعت بالفعل عن إخفائه بيدها. لكن نظرة عاودت بل اعتادت سومها سوء العذاب. لم تكن تطاق تلك النظرة الباردة التى ألفتها. كانت هيستير براين، بإيجاز، ومن البداية تتحمل هذا العذاب الرهيب، الذى تسببه نظرات الناس إلى الشارة التى تحملها.

لم يتحول موضع الحرف على صدرها، إلى موضع متبلد بطول المعاناة، بل كان على نقيض ذلك، و صار جحيما لا يهدأ له

أوار، بل أصبح أكثر المواضع حساسية. كانت أحيانا، ولمرة واحدة خلال عدة أيام، أو لو شاءت الظروف عدة أشهر، تشعر بنظرة من عين امرئ، تقع على شعار العار، فتمنحها سكينة لحظية، وكأن هناك من كان يشاركها نصف عذابها، تعود بعدها مباشرة إلى نفس الإحساس بالوخز العميق الملح، فقد أحست أنها فى تلك اللحظة بالذات، كانت تعاود ارتكاب الإثم، فهل كانت هيستير، بمفردها هى الآثمة؟.

تأثرت قدرتها على وضع الأمور فى نصابها، ولو كانت ممن تمسكوا بخلق مترفع وتطبعوا بعقلانية، لبقيت على هذه الحال، لما تتلقاه من عذاب غريب وقعه عليها، تتلقاه للمرة الأولى فى حياتها. كان يتبدى لهيستير براين بين الوهلة والأخرى، خلال تجوالها فى الجيئة والرواح وسط هذا المجتمع الصغير، الذى ارتبطت به نفسها فى الظاهر، أن هذا الذى تمر به لو كان خيالا محضا، لصعب عليها رغم ذلك احتماله تخيلت فى تلك اللحظات أن الحرف القرمزى قد أمدها بإحساس جديد، فشعرت برعدة تشملها، ثم تفكر ولا تقوى على مقاومة فكرة أن الحرف قد علمها كيفية العطف على من وارت قلوبهم الآثام. أصيبت من أفكار موحية كتلك بذعر، فماذا يدفع إليها بتلك الإيحاءات؟ أليست مجرد وسوسة شيطان، يسره ملاحقة امرأة فى محنة، وهى الآن نصف ضحيته، و يوسوس لها بأن التظاهر بالعفة هو الزيف بعينه، ولو أن الحقيقة قد أفصحت عن نفسها أمام الناس، لتوهجت حروف قرمزية أخرى على صدور آخرين، غير

صدر هيستير؟، أيجدر بها أن تتلقى تلك التأملات وهى صاغرة، تلك التى بدأت مبهمة ثم زادت وضوحا بعد ذلك وصارت كالنهار؟ لم يكن هناك فى كل تجاربها الفاشلة، ما هو أسوأ أو أبغض للنفس من هذا الإحساس. كان فيه ما أصابها بالشرود والصدمة لوقوع الحدث دون توقعه، ما جعل لتلك الأفكار دورا حيويا. ربما تسبب العار الأحمر الراقد فوق صدرها فى ألم وجدانى، ذلك أن مرت بالقرب من قس موقر أو قاضى، وهما رمزا العدالة والتقي، ويشملهما العصر بعين الجلال، وكأنه ينظر إلى بشر فان فى صحبة الملائكة. وقد تساءل هيستير نفسها "ما هو هذا الشر الذى أوشك على الحدوث؟". ترفع عينيها مكرهة، فلا ترى فى المشهد ما ينم عن شيء يحمل صفة إنسانية بالمرة، ناهيك عن صورة الملاك الذى يمشى على الأرض هذه! قد تعاود جماعات الرهبنة السرية الظهور من جديد، حين تلتقى بوجه عبوس لإحدى رئيسات تلك الجمعيات، التى طبقا للأقاويل، احتفظت فى صدرها ببرودة الجليد على الدوام، فماذا يجمع بين ذلك الجليد فى صدر راهبة، والعار المشتعل على صدر هيستير براين؟، أم أن صاعقة كهربية، كانت تجدد تحذيرها فى قولها: "انظرن، إن بصحبتنا رفيقة، هى هيستير براين"، فترفع هيستير عينيها، لترى عينى الشابة البتول، ترمق بطرف عينها الحرف القرمزى، ثم تشيح بوجهها على الفور، وحمرة الخجل بادية على وجنتيها، وكأن شيئا من عفافها قد خدش من مجرد لمحة من عينها. ألا أيها الشيطان، يا من كان طلسمه، ذلك الرمز اللعين، ألا تترك

شيئا من الاحترام، من كبير أو صغير، تجاه هذه الخاطئة المسكينة؟، لقد كان الإيمان الناقص على هذا النحو، أحد النتائج المؤسفة للوقوع فى الخطيئة.

دعونا نقبل على وجه اليقين أن الناس لم يكونوا على هذا القدر من السوء والفساد، بشأن حادث سقوط هذه المسكينة فى الزلل، وأن قانون البشر الصارم، جعل هيستير براين، تقاوم الاعتقاد بأنه ما من مخلوق على الأرض إلا وارتكب ما ارتكبته من أثم.

كان البسطاء فى تلك الأزمنة المظلمة، حين كانوا يدلون دوما بدلوهم فى رسم صورة منفرة للرعب، تثير مخيلاتهم، فاحتفظوا بروايات عن الحرف القرمزى، يمكن اعتبارها من الخرافات أو الملح. منهم من أكد أن الشارة لم تكن مجرد قطعة قماش، صبغت فى وعاء الصبغة، بل كان جمرة من نار جهنم، يرى لهبها الذى لا يهمد، كلما غادرت هيستير براين كوخها فى الليل. وعلينا نحن أن نكمل الرواية بأنه كان يكوى أعماق صدر هيستير براين، ولربما كان للرواية مصداقية، تتجاوز ميلنا أو إعلاننا عن تصديقها فى الوقت الراهن.

٦

بيرل (لؤلؤة)

ندر حديثنا حتى الآن عن الطفلة بيرل، تلك المخلوقة الصغيرة، التي شاءت لها إرادة الله، تلك التي لا يحيط بها مخلوق، أن تخرج إلى حياة ملؤها البراءة، كزهرة ندية خالدة، لتنمو وتترعرع من بذرة الإثم. كم كان الأمر غريبا على المرأة المسكينة، وهي تشهد نماء الزهرة، وجمالها الذي يزداد تألقا بمرور الأيام، وترى شارات الذكاء، وقد ألقت بنورها الراجف على قسمات الطفلة الدقيقة. إنها لؤلؤتها! لم تطلق هيستيرعليها هذا اللقب، لملاحتها، التي لا تحمل بالمقارنة، رقة ونقاء هذا الحجر الكريم. لكنها لقبتها ببيرل لعلو قيمتها، فقد ابتاعتها أمها بكل بل بأغلى ما تملك، إنها ثروة أمها الوحيدة! ويا له من أمر يبعث على العجب! رمز الرجل لخطيئة هذه المرأة بالحرف القرمزي، وفيه من القوة والدمار ما جعله يحول بين حاملته وبين عطف البشر، بغض النظر عن كون الحرف يعد آثما هو الآخر. وهبها الله طفلة مليحة، كنتيجة مباشرة لوقوعها في الإثم وجزاء لها على ما اقترفت يداها، وأن مكان هذه الطفلة كان نفس الصدر المدنس، لترتبط بنوتها إلى الأبد بالبشر وبأنسابهم، ولتصبح في النهاية روحا باركتها السماء.

أصابت هذه الأفكار هيستير براين، بالريبة بديلا عن الأمل، كانت تدرك أن ما فعلته، الشر بعينه، مع أنها كانت غير مؤمنة بأن عاقبة ذلك أبدية. كانت فى كل يوم تنظر فى هلع إلى بنية الطفلة، الآخذة فى الكبر، وكانت فى خشية دائمة مما تلحظه فيها من بعض سمات الشر والجموح، ليواكب ذلك الأثم الذى دانت له بوجودها.

لم تلحظ فيها عيوبا خلقية، كانت الطفلة من حيث حيويتها وقدراتها الطبيعية على استخدام كامل أعضائها الصغيرة، وكأنها كانت تستحق أن تولد فى جنة عدن لتشارك الملائكة لهوهم البرئ، بعد خروج أبويها الأصليين منها. كانت الطفلة تمتلك جمالا فطريا، لا يحاكى الجمال البرئ ألبتة، ورغم بساطة الثوب الذى تضعه إلا أنها كانت تترك فى الناظر إليها انطباعا، بأن ذلك الثوب هو المناسب لها من كل الوجوه وليس سواه.

لكن الطفلة بيرل لم تكن تتزيى زى القرويين. فأمها ولغرض فى نفسها أفضل أن نعرفه فيما بعد، ابتاعت الغالى من الأثواب، مما تيسر لديها من مال، ثم أطلقت العنان لقدرتها على الابتكار، لتؤدى دورها كاملا، فى إتقان صنعتها فى إلباس الطفلة أمام الناس. كان يبرز جمال هذا الكائن الصغير، لو وضع فى تلك الثياب، نورا يبزغ من ملاحة بيرل ذاتها، ويتلألأ من أرديتها الرائعة، ليميز الشحوب فى فتنتها، ولتتشكل هالة كاملة من نور، تضىء أرض الكوخ المعتمة. لكن الثوب الخمرى بعد أن يكون قد اتسخ وتمزق من لهو الطفلة الخشن، كان يجعل منها مثالا معبرا عن شخصيتها. تشربت طلعة

بيرل بفتنة، متعددة الجوانب. كان فى هذه الطفلة الواحدة أطفال عدة، مع أخذ الفارق الكبير بين جمال الزهرة البرية فى طفلة بدائية وخيلاء الأميرة فى الحسبان. كانت برغم ذلك توجد مسحة من العاطفة، وشيئا ما يتوارى فى العمق خلف هذا المظهر، لا تفتقده أبدا، ولئن حدث وطرأ عليها تبدلا فى أى من مراحل عمرها، فأصبحت أكثر شحوبا، فإنها قد تتراجع عن كونها بيرل الحقيقية وستتبدل شخصيتها كلية.

أشار التبدل الظاهرى، الذى بدأ يعبر عن نفسه دون إفراط، إلى مجموعة من الملكات المتعددة، كامنة فى الداخل. كان فى شخصيتها من العمق قدر ما فيها من التنوع، ولكنها كانت فى حاجة إلى اتصال وتكيف مع المجتمع الذى نشأت فيه، وإلا تكون مخاوف هيستير قد خدعتها. فالطفلة يستحيل أن تنشأ فى ظل القوانين المتعارف عليها. لأن خروجها إلى الوجود، كان يعد خروجا على القانون الأكبر، وها قد وجد فى الحياة بشرا سويا، ربما كان من مقوماته سمة الجمال والذكاء، لكنها كلها كانت ضربا من الفوضى، لها نظام مستقل بذاته، ومن الصعب بل والمستحيل الكشف عن عنصر التنوع فيها أو العمل على تنسيقه. لم يكن أمام هيستير إلا أن تهتم بشخصية الطفلة رغم ما بها من غموض ونقص، وذلك باسترجاع ما كانت تمر به خلال الفترة العصبية التى كانت روح بيرل خلالها تتشرب من عالم الروح، وجسدها من ماديته. كانت حالة الأم الانفعالية، هى تلك الوسيلة التى نقلت إلى الجنين شذرات من الحالة

المعنوية للأم وبرغم توفر عنصر النقاء فإنها قد تلقت من المادة الدخيلة البقع القرمزية والذهبية، وبريق الانصهار والظل الأسود، والضوء غير المحسوس.

زاد على ذلك أن روح هيستير القتالية، فى ذلك الوقت قد استقرت داخل بيرل، فتمكنت الطفلة من التعرف على ما تحمله الأم من جموح ويأس وجرأة، وميل إلى الهروب، وبعض علامات الاكتئاب والقنوط الناشئين فى قلبها. ألقى عليهما ضوء من النهار فشمل كيان الطفلة الصغير، ولكن كان لابد له لحظة خروجها إلى الحياة، أن يصير مشوبا بهبوب العواصف والرياح.

كان النظام الأسرى فى ذلك الوقت صارما بأقسى مما هو عليه الآن. كان التعامل فيه بتقطيب الوجوه والزجر الشديد واستخدام العصا المتكرر، فضلا عن استخدام السلطة الدينية، ليس فقط فى طريقة توقيع العقوبة بالمجرمين، بل بهدف التطور والارتقاء بالآداب العامة للنشء. وقد تجاوزت هيستير براين رغم ذلك وهى أم عزلاء، الخطأ الناشىء عن تأييد استخدام العنف فى التربية. فإدراكا منها لأخطائها، ولما عانت من أهوال، سعت مبكرا إلى استخدام الرقة مع بعض الصرامة، ومراقبة الطفلة التى أخذت على عاتقها أمر تنشئتها. لكن تلك المهمة قد تجاوزت كل ما كانت على دراية به فى هذا المجال. فبعد ملاحظتها لحالتى العبوس والضحك فى الطفلة، وانعدام الضوابط الواضحة لأى أسلوب للتعامل معها، أجبرت هيستير كلية على التنحى جانبا وترك الطفلة لميولها تتحكم فيها كيف تشاء. كان

الإيذاء البدنى أو الحرمان يأتى ثماره حتى ينتهى أثرهما بالطبع. أما وسائل التربية الأخرى، سواء ما اكتسبه عقل هيستير بالممارسة أو ما عرفته بفطرتها، فقد كانت بيرل تخضع له أو لا تخضع، طبقا لما يحكم المرحلة من أهواء. تعرفت أمها، ولم تزل بيرل رضيعة، على نظرة من عينيها كانت بمثابة تحذير لها، حين لا تفلح المناشدة والإلحاح والملاحقة. كانت تلك النظرة تنم عن ذكاء حاد، وغموض وتحفظ كبيرين، وحقد أحيانا، بل كانت بصفة عامة مصحوبة، بتهور واضح من أنفس عدة، ولم يكن أمام هيستير فى لحظات كتلك إلا أن تشك فى كون بيرل من البشر. بدت أشبه بجنى صغير رشيق، بعد أن يؤدى ألعابه العجيبة، لفترة قصيرة على أرض الكوخ، ينطلق محلقا، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. حينما كانت تلك النظرة تظهر فى عينيها السوداوين البراقتين، والجموحتين، كانت تغلفها بعزلة غريبة، وسرمدية، وكأنها تهيم فى الفضاء ثم تتلاشى، كالضوء الواهن الذى يجىء من حيث لا ندرى ثم يمضى إلى المجهول.

كانت هيستير مجبرة تندفع نحو الطفلة، علها تلحق بالجنى الصغير قبل اعتزامه التحليق مباشرة، فتنتزعها بين أحضانها، وتغرقها بقبلات اللهفة، لا عن حب طاغ، بل لتؤكد لنفسها أن بيرل بشر من لحم ودم، وليست محض خيال. لكن ضحك بيرل بعد أن تمسك بها، كان يجعلها تزداد شكا فى الأمر، رغم أن هذا الضحك كان مشمولا بالمرح والغبطة.

كانت هيستير في بعض الأحيان، تنفجر دامعة، وهي تعاني تلك الفتنة المحيرة، لأنها على هذا النحو قد تتسبب في فصل الطفلة عنها، وهي ثروتها الوحيد، بعد أن ابتاعتها بأغلى ما تمتلك، كما أنها تعد كل ما خرجت به من الدنيا. يبدو على بيرل بعد ذلك بسبب عدم تأثرها بمثل هذه المشاعر، علامات الغضب، فتكور قبضتها الصغيرة، وتتحول قسمات وجهها إلى تعبيرات تحمل قسوة لا رحمة فيها، دالة على عدم الرضا. وأحيانا كثيرة كانت تعاود الضحك من جديد، بأشد من ذي قبل، بما يعكس الغموض والتحفظ، ونادرا ما كان يحدث أن تصاب بنوبة غضب شديد، فتمطر أمها حبا، ويصدر نشيجها بعبارات مبهمة، وتظهر نيتها في إثبات أنها تحمل بين جنبيها قلبا يحس، وذلك بتفطره. كان صعبا أيضا أن تسلم هيستير لتلك الرقة العاصفة، التي تمر بغتة مثلما حلت. كانت الأم وهي غارقة بين أفكارها في تلك الأمور، كمن يستعيد إلى الوجود روحا، ولكن لحدوث مخالفة في استحضارها، تفشل في الظفر بكلمة السر، التي تتمكن بها من السيطرة على هذا المخلوق الذكي، والعصي على الفهم. كان وقت راحتها الوحيد والحقيقي، يحل حين تخلد الطفلة إلى النوم. كانت في ذلك الوقت تتأكد من وجودها، وتتذوق طعم الراحة والحزن والسعادة الحقيقية في آن، إلى أن تستيقظ بيرل، بنظرة معاندة تومض من تحت رموشها المفتوحة.

ما أسرع مرور الزمن، على هذا النحو، فتبلغ بيرل عمرا يجعلها قادرة على التخاطب مع الآخرين، في ظل ابتسامة أمها

الدائمة، والعبارات المبهمة، وكم كان قدر سعادة هيستير براين، وهي تسمع فى وضوح، صوتها الشبيه بصوت طائر، ممتزجا بدمدمة أطفال آخرين!، وأن تميز صوت حبيبتها، من هتاف أصوات متداخلة لجماعة من الأطفال وهم يلهون. لكن هذا لم يكن ليحدث. لأن بيرل قد ولدت فى عزلة عن دنيا الطفولة.

ذلك أنها نسل شيطان، وثمرة ورمز الخطيئة، وليس من حقها مخالطة من عمدوا من الأطفال المسيحيين. لن يكون هناك ما هو أكثر جدارة بالدرس والاهتمام من تلك الغريزة التى أدركت بها الطفلة عزلتها عن المجتمع، واستيعابها للقدر الذى فرض حولها طوقا منيعا، عزلها عزلة كاملة عن بقية أطفال البيوريتان. فلم يحدث أبدا أن وقعت أعين الناس على هيستير بدونها، رضيعة تحملها بين ذراعيها فى بادئ الأمر، ثم فتاة صغيرة ترافق أمها، وتلف قبضتها الصغيرة حول سبابتها، ثم تخطو عدوا ثلاث خطوات، مقابل خطوة واحدة من هيستير. كانت ترى بعينيها أطفال المستوطنة البيوريتانية، على إفريز الطريق المعشبة، أوعلى عتبات بيوتهم، لاهين بطريقتهم المنفرة، أو تراهم بالصدفة البحتة، وهم يلهون فى طريقهم إلى الكنيسة، أو ينعتون الكويكرز بألسنة سليطة، أو يرفعون علامات النصر بعد معركة مصطنعة مع الهنود الحمر، أو حين يسببون لبعضهم البعض الفزع، عند محاكاتهم ما تأتى به الساحرات من غرائب. رأت بيرل ذلك كله، ورصدته بعينيها، لكنها لم تسع قط إلى مصادقتهم. كانت إن تحدثت إلى أحدهم مرة، لا تكرر الحديث. وإذا تجمع الصغار حولها،

كما كان يحدث أحيانا، تراها وقد انتابتها غضبة الطفلة، فتلتقط الأحجار لرجمهم بها، وهى حانقة عليهم، يعقب ذلك صراخ تلقائى يبعث الزعر إلى قلب أمها، وهم يسبون الساحرة الصغيرة بلسان لا يعى ما ينطقه من قول.

كان لدى صغار البيوريتان، كونهم أكثر نسل البيوريتان قسوة، فكرة مبهمة عن أمر ما يتعلق بالأم والطفلة؛ فحواه الترخص والهمجية، والخروج عما تآلف عليه البشر، ولذلك كانوا يكنون لهما فى أنفسهم مقتا شديدا، ويكررون سبّهما.

أحست بيرل بتلك المشاعر، فواجهتها بكراهية مريرة، يفترض أنها تشتعل فى قلوب الصغار أيضا، وجد هذا الحنق الشديد بعض اهتمام الأم ورضاها؛ لأن ذلك فى نظرها يؤكد أن ميول الطفلة تحظى بالجدية الواضحة، بديلة عن التقلبات الطارئة، التى غالبا ما تظهر فى تصرفاتها. لكن هيستير رغم ذلك راعها إحساس دفين بتغلغل الشر فى الطفلة. كان كل ما ورثته من خصومة وانفعال، تابعا أصلا من قلب هيستير، والإرث غير قابل للتحويل. وقفت الأم والطفلة فى نفس طوق العزلة عن المجتمع. كانت شخصية الطفلة قد بدأت تظهر فيها علامات التوتر والقلق التى أصابت هيستير قبل أن تلد بيرل، بل منذ أن هدأت فى هيستير تلك المشاعر بدواعى الأمومة وما فيها من رقة فى المشاعر.

لم تكن لدى بيرل رغبة فى أن يكون لها أصدقاء فى الجوار. أطلقت فيها فتنتها بالحياة وسحرها، ملكة الابتكار، فربطتها بكم هائل من الموجودات كالشحنة الكهربية التى تلقى بضوئها فى أى اتجاه. كانت الأدوات المنفرة كالعصا والخرق البالية، والزهرة، هى أدوات لهو الساحرة الصغيرة بيرل. فتواءمت دون أن يطرأ عليها تغيير ظاهر، مع ما يمكن أن نطلق عليه احتلال الدراما لعالمها النفسى. فصوت الطفلة الفرد فيها، صنع عديدا من الأصوات لشخصيات من الخيال، من كبار السن ومن الصغار. لم تجد أشجار البلوط المعمرة الوقور، التى تزمجر لهبوب الرياح وتنطق بمآس أخرى، لم تجد أدنى مشقة فى تشخيص كبار البيوريتان، وأعشاب الحديقة الضارة صغارهم، فتطؤها بيرل بقدميها بل وتجتثها من الأرض، دون شفقة بها أو رحمة. كان غريبا تنوع الصور الهائل التى تطرح فيها رؤاها، دون ترابط، بل كانت الأغرب حالة النشاط المحموم ما بين تقافز وتواثب وتراقص، ثم لا يلبث هذا كله أن يهدأ، وكأن تدافع رتم الحياة السريع المحموم هو المتسبب فى إجهادها، تعقب ذلك صور أخرى تماثل ما سبق استعراضه يتخللها نفس النشاط الجموح السابق. لا يمكن تشبيه هذه الحالة بغير حركة الشفق الخاطفة للإبصار فى أفق القطب الشمالى. هناك فى الآخرين من الأطفال ما يمكن رصده فى قدرات الذكاء لديهم؛ حيث توضع قدرات التخيل تحت الملاحظة، وتبحث روح الانطلاق والمرح فى عقولهم، ذلك باستثناء بيرل المحرومة من رفاق للهو، فألقت بكثير من قدرتها على ممارسة

الخيال، على حشد من مشاهد ابتكرتها مخيلتها. وتكمن مشاعر الكراهية التى أشرنا إليها فى نشأتها منذ نعومة أظفارها فى قلبها وعقلها، لأنها لم تصنع لها أصدقاء ألبتة، بل كان يحدث دوما بذر الحب على أسنان التنين، لحصد أعداء متأهبين دائما لتواجههم فى ساحة القتال. لا يمكن التعبير عن مدى الأسى، الذى أصاب الأم فى أعماق قلبها، وهى التى تعرف السبب، وترى إنسانة حديثة العهد بالحياة، على علم تام بالخصوم.

ثم تتصرف بشراسة بالغة، عند توجيه قواها لنيل حقها المنشود، في معركة لا سبيل إلى تراجع عن خوضها.

كانت هيستير أغلب الأوقات، وهى تنعم النظر فى بيرل، تلقى بما بيدها من أعمال الإبرة، على ركبتيها، وتهتف بصوت عال، هتافا مصحوبا بالألم، تفضل إخفاءه، بل كانت عباراتها تلقائية، تخرج ما بين المناشدة العادية والأنين: "آه، أبى الذى فى السموات، ذلك إن كنت مازلت أبى، ما شأن هذا الكائن الذى جلبته لنفسى فى هذا العالم بى". تسترق بيرل السمع إلى هتاف أمها أو تنتبه عبر وسيلة ذهنية مرهفة، ثم تلتفت لتقابل بوجهها الباش الجميل وجه أمها، بابتسامة تحمل تعبيرات الجنى الصغير، ثم تواصل اللعب.

تبقى بعد ذلك سمة تميز الطفلة وجب تناولها فى هذا السياق، فنتساءل، ما أكثر ما كان يلفت نظر بيرل من موجودات الحياة؟ ليس ابتسامة أمها لترد عليها، كما يفعل باقى الأطفال، بابتسامة حانية

رقيقة من الفم الرقيق، تستحضرها فيما بعد الذكريات حين يدور حولها شك كبير، ويدور التحاور بشأنها إن كانت نابعة من القلب، أم لا، ليس ذلك بكل المعايير، لكن أول ما أثار انتباه بيرل منذ ولادتها، كان الحرف القرمزى، الذى وضع على صدر هيستير. ذات مرة وحين مالت هيستير إلى مهد الطفلة، شد بصرها وميض، صادر عن الخيوط، تعلقت الصغيرة به بعد أن وضعت يدها الرقيقة عليه، وظهر على شفتيها ابتسامة، لا شك أنها كانت مصحوبة بوميض يؤكد تعبيرا بدا على وجه طفلة تجاوزت سنى عمرها. أمسكت هيستير براين بالشارة الملعونة، وهى تلهث، وتحاول انتزاعها بشكل غريزى، كان فى اللمسة الذكية بيد بيرل قدرا لا يطاق من العذاب لهيستير. تعيد بيرل النظر مرة أخرى إلى عينى أمها وتبتسم، كما لو أن فى ذلك إيماءة إلى أن ما تشعر به هيستير من ألم لم يكن به سوى اللهو معها. لم تهنأ هيستير بلحظة سكينة قط، ولا استمتعت بالراحة والطمأنينة، منذ تلك اللحظة، عدا الفترات التى كانت تخلد فيها بيرل إلى الرقاد. وتمر الأسابيع ولا تقع عين الطفلة على الحرف القرمزى، لكنها على حين غرة تعاود النظر إليه المرة بعد الأخرى، كالموت يأتى بغتة، يصاحب ذلك منها ابتسامة مميزة، وتعبير غامض من العينين.

ظهرت ذات مرة صورة الجنى الصغير فى عينى بيرل، فى الوقت الذى كانت فيه هيستير تحدق فى صورتها المعكوسة من حدقتى بيرل، كما تفعل بعض الأمهات، غشيتها أوهام لا حصر لها،

وهى تحيا عزلتها تلك، فتخيلت وهى تتطلع إلى صورتها فى المرآة السوداء المصغرة لعينى بيرل، إنها رأت وجها آخر، أشبه بوجه شيطان، تغلفه ابتسامة ماكرة، تحمل سمات تعرفها جيدا، مع أن تلك السمات لم تكن تعرف الابتسام قط، ولم يسبق أن ارتسم فيها مثل هذا المكر، وكأن شيطانا قد أصاب الطفلة بمس، وأنه يختلس إليها النظر بسخرية. عانت هيستير كثيرا من هذه الصورة، مع أن ظهورها ندر أو قل بعد ذلك.

بعد ظهيرة أحد أيام الصيف، وبعد أن بلغت بيرل المرحلة التى تعتمد فيها على نفسها فى السير، كانت تتسلى بجمع الزهور البرية، ثم تلقى بالواحدة تلو الأخرى على صدر هيستير، ثم تتراقص كجنى صغير، أملا فى أن تصيب واحدة منها الحرف القرمزى. عقدت هيستير يديها على صدرها، وقاومت من جانبها رد فعلها الانفعالى، ربما للحفاظ على كرامتها، أو استسلاما لواقع الحال، لأن أفضل ما يؤكد التوبة فى نظرها، الانصياع للألم الرهيب. جلست منتصبة وعلى وجهها شحوب الموتى، ناظرة إلى عينى بيرل الجموحتين فى أسى، ليتواصل القذف ويوشك على إصابة الحرف القرمزى، مما جعل ألم هيستير يتزايد، وهى التى لا ملاذ لها فى هذا العالم ولا فى سواه. استنفذت الطفلة فى النهاية كل وسائل القذف، فوقفت تواصل تفرس هيستير، وطرأت فى ذهن الأم صورة الشيطان الساخر، مختلسا إليها النظر من قعر جهنم السحيق فى عينى بيرل السوداوين.

هتفت الأم: "من أنت أيتها الطفلة؟".

ردت الطفلة: "إننى صغيرتك بيرل".

ضحكت بيرل وهى تردد ذلك، وبدأت فى التراقص، أعلى وأسفل، مع بعض إيماءات طريفة من الجنى الصغير، الذى يتوقع أن تكون طرقته التالية، التحليق مرورا بالمدخنة.

سألت هيستير: "أأنت ابنتى حقا؟".

لم يكن السؤال برمته من باب العبث، ولكنه كان فى تلك اللحظة به قدر كبير من الجدية؛ ذلك لأن بيرل كانت من الذكاء بحيث جعلت أمها بين شك ويقين، فيما لو كانت لا تعرف الرقية الخاصة بطلسم وجود ابنتها، وأنه ربما لا تكشف عنه الآن. رددت الطفلة وهى تواصل طرفها: "أجل أنا الطفلة بيرل".

قالت الأم بين جد وهزل، فروح المرح تغلبت وسط عذاباتها: "إنك لست ابنتى، لست لؤلؤة خاصتى، أخبرينى إذا، من تكونين؟ ومن جاء بك إلى هذا المكان؟".

ردت الطفلة، بعد أن اقتربت من هيستير فضغطت بجسدها ركبتيها: "أخبرينى أنت يا أماه، أخبرينى أنت!".

أجابتها الأم: "أرسلك أبوك الذى فى السموات".

ذكرت ذلك بعد تردد منها، ولأن ذلك لن يغيب عن ذكاء الطفلة. وسواء كانت شقوة بيرل المعهودة، قد دفعتها إلى ذلك أو أن

روحا شريرة أمرتها بفعله، فإنها رفعت إصبعها ولمست الحرف القرمزى به ثم هتفت قائلة: "أنا لم يرسلنى أحد، فليس لى أب فى السموات".

ردت الأم وهى تكتم فى نفسها آهة: "صه بيرل صه، لا يجدر بك أن تتحدثى بتلك الطريقة، فهو الذى أرسلنا إلى هذا العالم، أرسلنى أنا... أمك، فضلا عن أنه قد أرسلك، وإلا فاذكرى لى أيها الجنى الصغير من أين أتيت؟".

قالت بيرل بعد أن تخلت عن الجد، وبدأت تضحك وتطفر فوق أرضية الغرفة: "أخبرينى! أخبرينى! أنت التى يجدر بك أن تخبرينى!".

لكن هيستير لم تستطع حل اللغز، ذلك أنها كانت واقعة فى متاهة الشك المظلمة. تذكرت ما بين ابتسام وخشية، تحاورأهل الجوار، أولئك الساعين إلى تنشئة الطفلة، تحت عيون آخرين دونها، وأنهم وقد لاحظوا ما فى الطفلة من غريب سمات، توصلوا إلى أن بيرل الصغيرة المسكينة، نسل شيطان، وذلك ما ورد من العهود الكاثوليكية البائدة، التى قالت بأن الشيطان يظهر على الأرض من آن لآخر بسبب خطايا أمهاتهن وتحقيقا لأغراضه الدنيئة. كان لوثر طبقا لفضيحة أطلقها خصومه من الرهبان، يعد فى نظرهم نسل شيطان مريد، وليست بيرل هى الطفلة الوحيدة التى نسبت إلى تلك النطفة الشيطانية.

٧

قصر الحاكم

ذهبت هيستير ذات يوم إلى مقر إقامة الحاكم بيللينجهام ومعها زوج من القفازات حاكتهما وطرزتهما بطلب منه، ليظهر بهما فى مناسبة رسمية كبيرة، ففرص الانتخابات قد تراجعت بهذا الحاكم السابق خطوة أو اثنتين عن المنصب الأكبر، لكنه لا يزال يحتفظ بنفوذه وبنفس المكانة الشرفية بين أعضاء الهيئة الحاكمة للمستعمرة.

كان هناك سبب آخر أكثر أهمية من تسليم زوج القفاز المحاك بيديها، أجبر هذا السبب هيستير فى هذا الوقت، على العمل على تهيئة إحدى الفرص للقاء إحدى الشخصيات ذات النفوذ والفعالية فى شئون المستوطنة، بعد أن وصل إلى سمعها أن هناك تدبيرا من أولى الأمر من أهل المدينة، رغبة منهم فى تعزيز نهج الصرامة الأشد فى النواحى الرسمية والدينية، بحرمانها من رعايتها لابنتها.. وتماهيا مع مقولة أن بيرل بالفعل قد اعتبرت من أصل شيطانى، دار حوار جاد بين أولئك الصالحين من الرجال، ولأسباب لا تخفى على أحد، حول أن الأمر يتطلب منهم لصلاح العقيدة المسيحية فى نفس الأم، إلزام أنفسهم بإزالة تلك العقبة الكأداء من طريقها.

وإذا كانت الابنة من جانبها، مهيئة بالفعل للتنشئة الدينية والخلقية، وتتوفر لديها مقومات الخلاص الكامل، فسيتأكد آنئذ

استفادتها بما هو مأمول من استحقاقات بنقل كفالتها ورعايتها إلى من هم أجدر بذلك من هيستير براين. كان الحاكم بيللنجهام من بين أصحاب تلك التدابير، وهو الذى قيل بأنه الأكثر انشغالا بالأمر. قد يبدو غريبا وداعيا إلى السخرية أن أمرا بهذا القدر من الأهمية، والذى صار فيما بعد أحد شئون القضاء ولا دخل لوجهاء البلدة فيه، كان فى تلك الفترة يناقش علنا، ثم يحدد الوجهاء بعد ذلك مواقفهم بشأنه. لذلك شهد العهد الذى اتسم بالسطحية فى معالجة الأمور، خلطا كبيرا بين أمور توافه، لا تهم الرأى العام فى شىء، بل تقل كثيرا فى الأهمية عن شأن هيستير وابنتها، وبين شئون الدولة التشريعية منها والخاصة. فى فترة سبقت أحداث روايتنا، ندر بل استحال، حدوث خصومة بشأن ملكية خنزير، دون أن يتسبب هذا فى نزاع مرير وشرس بين أعضاء الهيئة التشريعية فى المستعمرة فحسب، بل كان ينتج عنه تعديل جوهرى فى الهيكل التشريعى ذاته.

لذلك خرجت هيستير براين من كوخها البعيد، وهى تدرك حقها جيدا بل كانت أكثر إدراكا له. وبعد أن تبين عدم تكافؤ الصراع، فعامة الناس فى كفة وامرأة عزلاء فى الكفة الأخرى، ليس لها ظهير إلا تعاطف الطبيعة وإياها. كانت بيرل بالطبع رفيقة دربها. فهى الآن فى سن تمكنها من السير برشاقة إلى جانب أمها، فى حركة دائبة من الصباح حتى الغروب، وهى تستطيع إكمال مسيرة أطول من تلك. ورغم أنها كانت ودون سبب، تطلب أن تحمل على ذراعى أمها، فإنها كانت على الفور تلح فى النزول ثانية، لتتخطى مسير

هيستير فوق الطريق المعشبة مع تقافز وشـــقلبة لا تـــهدأ ولا تلين. كنا تحدثنا عن جمال بيرل الصارخ، جمال فيه من العمق والحيوية، والبشرة الناعمة، والعينين اللتين تحتفظان بالحدة، والشعر البنى الغزير الناعم، الذى قد تحوله السنون إلى اللون القاتم.

كشفت النار فى داخلها ومن حولها عن أنها نتاج علاقة عابرة، خلت من الرغبة. لقد أفسحت الأم المجال عند ابتكارها ثوب الطفلة، لنزعات الخيال لديها أن تؤدى دورها ببراعة، لإلباسها تلك التنورة بلونها القرمزى، تفرد طراز حياكتها بالإبرة، وقد حليت بالخيوط الذهبية الزاهية البديعة. كانت هناك قدرة بالغة فى انتخاب الألوان التى يجدر أن تبرز فى وجنتى الزهرة الشاحبة قدرا من البهوت والرقة بما يلائم جمال بيرل، ما جعلها دفقا رقيقا بالغ التألق للهب دائم التراقص فوق الأرض لكنه لوحظ فى هذا الزى، وهى تلبسه، إلحاحا على الناظر إليه وإجبارا له على تذكر الرمز الذى قدر على هيستير أن تحمله على صدرها. كان هذا الثوب حرفا قرمزيا بوجه آخر. الحرف القرمزى بعد أن دبت فيه الحياة. الأم ذاتها أخرجت الشبيه وكأن العار الأحمر قد سفع فى عقلها فانتحل أفكارها فصنعت الشبيه بعناية فائقة، منفقة فى ذلك الساعات الطوال، بحاسة إبداعية متأصلة فيها لتخلق تناظرا بين لواعج الهوى لديها ورمز الخطيئة وعذابها، لكن بيرل حقيقة كانت أحدهما فضلا عن الآخر وكان السبب الوحيد الذى من أجله ابتكرت هيستير ذلك التطابق ليمثل الحرف القرمزى فى صورتها الخارجية.

حين كانت عابرتا السبيل على مشارف المدينة، تحول أطفال البيوريتان بأبصارهم عما شغلوا به من لهو أو ما حسبه صغار القنافذ العابسين لهوا فقال أحدهم للآخر:

"انظر، وأمعن النظر، ها هي ذي المرأة حاملة الحرف القرمزي فضلا عن مثيله الذي يهرع بجانبها، هلموا إلى قذفهما بالأوحال".

لكن بيرل الطفلة الباسلة، ضربت الأرض بقدمها بعد فورة غضب، وهزت يدها الصغيرة بإشارات الوعيد، واندفعت بغتة نحو عصابة الأعداء، وأجبرتهم جميعا على الفرار. كانت في مطاردتها الشرسة أشبه بطاعون الأطفال، الحمى القرمزية أو بملك الحساب الذي يستر الريش نصف جسده ويتفشى فيهم للقصاص من خطايا الجيل الصاعد. كانت تهتف وتصرخ بنبرة مروعة. لا شك أنها جعلت قلوب الهاربين تهتز فرقا. تحقق النصر وعادت بيرل في هدوء إلى أمها ونظرت في وجهها ضاحكة.

وصلتا إلى مقرالحاكم دون أن تواجههما مخاطر أخرى. كان بيتا خشبيا كبيرا، بنى على طراز لا تزال نماذج منه مقامة عبر طرقات مدينتنا القديمة، بعد أن افترشتها الطحالب، وأصابها الهرم، وتوالت عليها الأحداث، السار منها والمحزن والباعث في القلوب الشجن، وسواء عادت إلى الذاكرة لتلك الأحداث أو لم تعد، فقد حدث ما حدث وتوارى في غرفها المعتمة. رغم ذلك احتفظت أبوابها

بنضارة العام المنصرم وبهجته، وعكست أشعة الشمس ما تعارف عليه الناس بأن الموت لا سبيل إلى نفاذه من شرفاتها.

كان وجه المدينة مشرقا بالفعل، فالجدران تغطت بنوع من الجص، ثبتت فيه بكثرة شظايا من كسر الزجاج، حتى إن أشعة الشمس كانت حين تسقط على واجهة المبنى، يضيء ويتلألأ وكأن قطعا من الماس قد تناثرت فوقه.

ليس هذا الألق إلا قصر علاء الدين، كما هو الآن حال مقر حاكم البيوريتان العابس والطاعن فى السن.

كان المقر مزينا أيضا باللوحات والتماثيل التى تشير إلى معانى البطولة، وذلك ما كان يحاكي ذائقة العصر القديمة، والتى اقتصرت على الجص حين أعيد استخدامه من جديد، وقد صار الآن أكثر قوة وصلابة، حتى صار مثار إعجاب الأجيال التالية.

بدأت بيرل وهى تنظر إلى تلك الفتنة الظاهرة، فى القفز والرقص راغبة فى إلحاح فى نزع قطعة من ضياء الشمس من واجهة المبنى، وإعطائها إياها للهو بها.

قالت الأم: "لا يا ابنتى، اجمعى ضياءك أنت. فليس لدى منها ما أعطيه لك".

وصلنا إلى المدخل الذى اتخذ شكل القوس، والمثبت على جانبيه برجان صغيران لينيرا المبنى من الداخل، بكل منهما شرفة، لها مصاريع خشبية لغلقها وفتحها حسب الحاجة، قامت هيستير

باستدعاء من بالداخل بطرق مطرقة حديدية معلقة على المدخل، فأجابها أحد الرقيق القائم على خدمة الحاكم، وهو إنجليزى الأصل، يعد الآن عبدا مملوكا لسبع سنوات. اعتبر خلال هذه الفترة من ممتلكات الحاكم كالسلعة التى تعرض للبيع أو الرهن أو كالفأس أو قطعة من الحديد. كان يرتدى بزة زرقاء، وقد اعتاد الخدم وضع هذا الزى لفترة طويلة وفترة سبقتها، فى البلاط الإنجليزى القديم.

سألت هيستير: "هل سيادة الحاكم بيللنجهام بالداخل".

رد العبد وهو يرمق الحرف القرمزى بعينين واسعتين؛ لأنه كان حديث عهد بالمدينة ولم تقع عليه عينه من قبل: "أجل، أقصد نعم، سيادة الشريف بالداخل لكنه بصحبة موقرة من القسس أو موقرين فضلا عن الطبيب أزعم أنك لن تقابليه الآن".

قالت هيستير: "سأدخل رغم ذلك". ربما حسب العبد من الرمز الذى يبرز ويلمع على صدر هيستير، ما يشير إلى أنها رفيعة المقام فى البلدة فلم يتعرض لها بالمنع.

هكذا سمح للأم والابنة بالدخول إلى قاعة الاستقبال. أدخل الحاكم بللينجهام على سكنه الجديد عددا من التعديلات بعد أن أقام فيه قبله عدد من السادة ذوى المنزلة الرفيعة من أبناء وطنه الأم، وذلك لطبيعة المبنى، واختلاف البيئة وأسلوب الحياة الاجتماعية.

يمتد بطول القصر بهو فسيح، ارتفاعه مناسب، ويعد وسيلة الاتصال العامة بجميع غرف البيت بطريقة أو بأخرى. يدخل الضوء

إلى هذا البهو الرحب فى طرف منه عبر شرفتى البرجين وقد شكلتا فجوة صغيرة على كل من جانبى المدخل أما الطرف الأقصى فرغم احتجابه جزئيا بستارة، فإنه يضاء بقوة من شرفة مقوسة طالعناها، فى الكتب، وقد زود هذا الركن بأريكة مغطاة بوثار، وضع على الأريكة مجلد كبير يحتمل أن يكون خاصا بالتاريخ الإنجليزى، أو بفرع من فروع الأدب، وهذا ما نفعله الآن، فنترك بعض المجلدات القيمة على إحدى الموائد ليقلب فيها زوارنا الوافدون. اشتمل أثاث البهو على بعض المقاعد الضخمة والتى نقش على أظهرها بيد ماهرة الزهور السنديانية، فضلا عن إحدى الموائد التى تحاكى النمط نفسه، لتؤكد وجودا حقيقيا للعصر الإليزابيثى أو ربما للعصر السابق عليه، وتؤكد أن ما خلفه العصر يحظى بقيمة حقيقية. على المائدة وفى إشارة إلى أن تقاليد الكرم الإنجليزية لا تزال باقية، انتصب إبريق طويل من المعدن اختلست هيستير أو بيرل النظر إلى القاعة وربما رأتا بقايا الثمالة من شراب الجعة وقد أفرغ من شرابه للتو.

علق على الجدران صف من اللوحات الزيتية، تمثل السالفين من عائلة بيللنجهام، بعضهم يضعون على صدورهم الدروع، والآخرون بلباس مدنى وياقات محيطة بالرقبة ينعمون بالسلام. تميزوا كلهم بالوجوه القاسية العابسة التى اعتادت اللوحات القديمة إظهارهم فيها هكذا، كأنهم أشباح وليسوا مجرد صور لعظماء رحلوا عن الدنيا، يتفرسون الأحياء بين لوم وزجر بسبب انكبابهم على الدنيا.

علقت فى الوسط من صف اللوحات المصنوعة من أخشاب البلوط، مجموعة من الدروع، حديثة العهد وليست بقدم اللوحات التى تحتفظ بالذكريات، لأنها صنعت فى لندن بيد أمهر الصناع، فى العام نفسه الذى وفد فيه الحاكم إلى نيو إنجلاند اشتملت المجموعة على خوذة من الصلب ودرع للصدر، واق للرقبة، وزوج من القفازات الواقية وسيف معلق بأسفلها، لمعت كلها وخاصة الخوذة ودرع الصدر وخرج عنها بريق، نشر ضياءه على أرضية البهو.

لم يكن المقصود من عرض تلك الدرع الكاملة، مجرد النظرة العابرة فحسب، بل لأن الحاكم كان قد تدرع بها فى كثير من جولاته التفقدية المهيبة وفى ساحات القتال، فضلا عن تألقها عليه كقائد لفرقة حرب البكيود. ورغم أنه بدأ حياته المهنية محام وألف الحديث عن بيكون وكوك ونوى وفينش كزملاء له فى المهنة فإن واجبه نحو موطنه الجديد، جعل منه مقاتلا فضلا عن كونه رجل دولة وحاكم.

قضت الصغيرة بيرل بعض الوقت، وهى تنظر إلى المرآة اللامعة فى درع الصدر، بعد أن سرت كثيرا بالدرع الكاملة ذات البريق كما سرتها من قبل واجهة البيت المتألقة.

هتفت: "إننى أراك هنا يا أماه. انظرى. انظرى".

نظرت هيستير بطريقة تبعث السرور إلى نفس الطفلة، فرأت الحرف القرمزى قد تميز ظهوره فى المرآة المحدبة، وتضخم وفاق حجمه بكثير، ليكون أكثر الأشياء بروزا. وبدا أنها قد توارت بالفعل

خلفه كلية. أشارت بيرل هى الأخرى إلى أعلى، نحو الصورة المماثلة فى الخوذة، ضاحكة من صورة أمها، بذكاء الجنى الصغير الذى ألف الظهور على قسمات وجه بيرل الدقيقة. انعكست من المرآة نظرة امتزج فيها مرح الطفولة الشقية، بالصورة العريضة المكثفة مما جعل هيستير براين تشعر بأن الصورة لا يمكن بحال أن تكون لابنتها بل لجنى صغير يسعى إلى الزج بنفسه فى وجه بيرل. قالت وهى تجذبها نحوها: "تعالى، بيرل، تعالى، انظرى إلى هذه الحديقة الغناء. إن فيها زهورا أكثر جمالا من تلك التى نجدها فى الأحراش".

هرعت بيرل بالتالى إلى النافذة المقوسة، فى أقصى البهو ونظرت بين الأشجار لمشهد الحديقة المترامى، وقد غطتها الأعشاب المشذبة، وعلى حدودها بدا أن محاولة عسيرة، لم يكتب لها النجاح قد جرت من قبل، لاستنبات بعض الشجيرات، وبدا أن المالك الأصلى قد تخلى يائسا عن البقاء على هذا الجانب من الأطلنطى، فوق أرض قاحلة وصراع مرير من أجل البقاء، مع ذائقة إنجليزية أصيلة فى استنباتها للزهور.

نبت الكرنب على قطعة أرض مسطحة وتجذرت شجرة يقطين، فى مسافة مشتركة بينهما، كما استودعت إحدى ثمارها الضخمة تحت شرفة البهو مباشرة وكأنها تنبه الحاكم إلى أن أغلى حلية تتقدم بها إليه أرض نيو إنجلاند، كومة الذهب الأخضر هذه. فهذه آجام للورود، وتلك عدد من أشجار التفاح؛ ربما قام السابقون من آل السيد المحترم بلاكستون بزراعتها؛ حيث إنه أول من استوطن

شبه الجزيرة، حتى إن تلك الشخصية الأسطورية، ثبتت أقدامها فى تاريخنا القديم، راكبة على متن ثور.

بدأت بيرل وهى تنظر إلى آجام الورود، فى الصياح لأنها رغبت فى وردة حمراء و لم تكف عن ذلك.

قالت الأم جادة: "صه يا صغيرتى، أيتها العزيزة بيرل، لا تواصلى صياحك فأنا اسمع أصواتا قادمة من الحديقة. الحاكم قادم وبصحبته السادة. وهذا ما حدث بالفعل، فمن بين شجيرات الحديقة ظهرت مجموعة من الأشخاص قادمين نحو البيت، أما بيرل ونتيجة تعنيف أمها لها انطلقت منها صرخة مدوية، ثم لاذت بعدها بصمت مطبق، لا من قبيل طاعة الأم بل لأن طبعها الغريب يدفعها للتحول من حالة إلى أخرى بغتة، بعد أن حركه ظهور هؤلاء الأشخاص بغتة.

يرافقه العجوز روجر تشيلينج وورث، ذلك الشخص الذى أثبت براعة فى مهنة الطب القديم، وقد استوطن المدينة منذ عام أو عامين، وشاع أن هذا العالم بعد ممارسته المهنة، صار صديقا للقس الشاب، الذى كان قد تدهورت صحته فى الأيام الأخيرة جراء بذله جهدا يفوق طاقته فى المهام والواجبات الكنسية.

ارتقى الحاكم من درج السلم واحدة أو اثنتين، متقدما ضيوفه، ثم فتح مصراعى شرفة البهو الكبيرة، ليجد نفسه وجها لوجه أمام الصغيرة بيرل، بينما سقط ظل الستارة على هيستير براين، فحجبها جزئيا.

قال الحاكم وهو ينظر فى دهشة إلى القوام القرمزى الصغير الذى أمامه: "ماذا لدينا هنا؟ أقر بأننى لم أر مثل هذا من قبل، منذ طيش الشباب، أيام الملك جيمس، حين كنت أميل إلى الاعتقاد بأن الدعوة إلى حضور مسرحية فى البلاط الملكى، بمثابة خدمة كبيرة لى! وقد جرت العادة على وجود حشد كبير من أمثال هذه القطع الصغيرة، أيام العطلات، وكنا نطلق عليها أطفال اللورد ميسرول (فوضى). ولكن كيف دخل مثل هذا الزائر إلى قاعتى؟".

قال العجوز ويلسون بصوت عال: "بلى، وايم الحق، من عساه يكون هذا الطائر قرمزى الريش؟ أظن أننى أرى من هم على هذه الشاكلة، وقتا ترسل فيه الشمس أشعتها على شرفة مكتملة الطلاء لتنعكس خيالاتها الذهبية والقرمزية على الأرض. لكن هذا كان يحدث فى موطننا الأول. استمحك عذرا أيها الصغير من عساك تكون؟ وماذا أصاب أمك حتى تلبسك دون أن تبصر هذا الثوب الغريب؟ أأنت طفل مسيحى.... هه؟ ألديك علم بمبادئ العقيدة المسيحية؟ أم أنك جنى صغير أو حورية، كنا ظننا أننا تركناها مع ما خلفناه من معتقدات دينية عتيقة فى إنجلترا القديمة العزيزة".

أجاب الشخص القرمزى: "أنا ابنة أمى. أدعى بيرل".

رد القس العجوز، مادًا كفه عبثا فى محاولة منه للوصول إلى وجنة بيرل ليربت عليها: "لؤلؤة؟ ياقوتة..... أجل! أم مرجانة! أم زهرة حمراء، إن الحكم عليك يأتى من مظهرك على أقل تقدير.

ولكن أين أمك هذه؟ آه! الآن فهمت" وأردف بعد أن التفت إلى الحاكم بيللنجهام هامسا: "إنها نفس الطفلة التي دار بشأنها الحديث بيننا، وهذه هي المرأة المسكينة أمها هيستير براين؟".

٨

الطفل الجنى والقس

تقدم الحاكم بيلينجهام كل مرافقيه، فى ثوب فضفاض وقلنسوة واسعة، كعادة الكهول فى إلباس أنفسهم فى مختلاهم، بدت عليه سيماء الوقار والزهو بما أجرى من تطوير واضح. جعل من محيط الياقة الواسعة والعريضة تحت لحيته المشيبة، والمصممة على الطراز القديم فى عهد الملك جيمس، جعل رأسه تقترب كثيرا فى الشبه من جون الراهب مع الفارق. صعب عليه مع هيئته الصارمة وبروده الذى تجاوز سن الخريف، التماهى ومظاهر البذخ الذى بدا واضحا أنه أحاط نفسه بها إلى حد كبير. لكننا نرتكب خطأ لو حسبنا أن أجدادنا المحترمين، جعلوا من عزوفهم عن الاستمتاع بوسائل الراحة أو حتى الرفاهية فى كل ما تطاله أيديهم، مسألة ضمير رغم أنهم ألفوا الحديث وشغلوا أنفسهم فى أن وجود الإنسان فى الحياة ليس إلا للسعى من أجل العيش وخوض الحروب، رغم إخلاصهم فى إعداد أنفسهم للتضحية بالغالي والنفيس حين يدعو الداعى.

لم يلقن السيد الموقر ويلسون والواقف بجوار الحاكم بيللنجهام كتفا بكتف مثل هذا المبدأ، حتى بعد أن صارت لحيته شهباء كالثلج، وهو على سبيل المثال الذى اقترح أن الوقت قد حان لزراعة الخوخ والكمثرى فى طقس نيو إنجلاند، وأن العنب الأحمر، يجدر أن تتوقف

زراعته أمام جدار الحديقة الذى تسقط عليه الشمس طول الوقت. لقد نشأ رجل الدين العجوز فى حضن الكنيسة الإنجليزية الوثير، وكان لديها ذائقة حقيقية وأصيلة لكل ما هو طيب وباعث للراحة، رغم أنه يظهر نفسه فى خطبة الوعظ على نحو متشدد وزاجر لعامة الناس وناهيهم عن ارتكاب المعاصى كما فعل مع هيستير براين، فإنه لا يزال محبا للعطاء فى خاصته ليحظى من الناس بحب كبير لم يحظ به أى من أقرانه فى المهنة.

جاء خلف الحاكم والسيد ويلسون، اثنان من الضيوف، كان أحدهما الموقر آرثر ديمسديل الذى يتذكره القارئ، حين أدى دوره القصير والذى قبل أدائه على مضض، فى المشهد الذى حمل عار هيستير براين.

هتف الحاكم: "أهذا رأيك؟ كلا، بل يجدر بنا أن نعتبر أما على هذه الشاكلة، لابد وأن تكون امرأة قرمزية، وأنها لجديرة بأن تنسب إلى بابل! ولكن، ولكن وقد أتتنا فى الوقت المناسب، فسوف ننظر فى أمرها فى الحال".

تخطى الحاكم بيللنجهام الشرفة ودخل البهو متبوعا بزواره. قال وهو يركز صرامته التلقائية نحو حاملة الحرف القرمزى: "هيستير براين، لقد دار مؤخرا بشأنك جدل كثير. وإننا بصدد بحث الأمر بروية، إن كان خيرا لنا ونحن أولو الأمر والنهى، إخلاص ضمائرنا بوضع نفس كتب لها البقاء، كتلك الطفلة الواقفة هناك، تحت

رعاية من وقعت فى الزلل وسط هذا العالم المحفوف بالمخاطر. تكلمى وأنت أم الطفلة! قلبى فى الأمر، ألا يجدر، حرصا على سعادة صغيرتك الراهنة والأبدية، إخلاء مسؤوليتك من رعايتها، وإلباسها ثوب الاحتشام، وإخضاعها لنظام رعاية صارم، وتلقينها التعاليم الدينية والدنيوية؟ فما الذى تقدمينه للطفلة فى هذا المجال؟". ردت هيستير براين وهى تضع إصبعها على الشارة الحمراء:

يمكننى تلقين درتى الصغيرة ما لقننى هذا إياه.

أجاب الحاكم مكفهر الوجه: "إنه شارة عارك يا امرأة، وبسبب الوصمة التى يشير إليها الحرف نزمع تحويل رعاية الطفلة إلى أياد أخرى".

قالت الأم فى هدوء رغم تحول ملامحها إلى الشحوب: "ومع ذلك فإن الشارة تلقننى، تلقننى كل يوم وإنها لتلقننى فى هذه اللحظة ذاتها ومنها قد تصل ابنتى إلى الأفضل والأعلم، مع أننى لن أظفر أنا من الشارة شيئا".

قال بيللنجهام: "سنكون حريصين على القضاء فى هذا الأمر، وسنبحث ما علينا القيام به، إننى أدعوك أيها المعلم الصالح ويلسون، إلى اختبار لؤلؤة هذه، ذلك لو أن هذا هو اسمها، وأن ترى مدى إلمامها بمبادئ تعاليم العقيدة فيما هو صالح لمن هم فى مثل سنها".

اتخذ القس العجوز مجلسه على كرسى بمسندين، ثم بذل جهدا فى سحب بيرل إلى ما بين ركبتيه. لكن الطفلة وهى لم تألف العطف

والحنان من غير أمها، فرت منه إلى الشرفة المفتوحة، ووقفت أعلى الدرج، وهى تنظر كطير استوائى جموح، غزير الأهداب، يتأهب للتحليق فى الفضاء الفسيح. استغرب السيد ويلسون منها هذا الجموح ذلك لأنه كان بمثابة الجد، وعادة ما أحبه الأطفال حبا كبيرا، لكنه رغم ذلك شرع فى إجراء الاختبار، قال لها فى تؤدة وأناة: "يجدر يا بيرل أخذ التعليم مأخذ الجد حتى تتمكنى فى الوقت المناسب من حمل درة ثمينة على صدرك. هل تستطيعين يا صغيرتى، أن تخبرينى عمن خلقك؟".

كانت بيرل فى هذه اللحظة تعرف جيدا خالقها؛ حيث كانت هيستر، وهى من بيت تقى، قد بدأت مباشرة بعد حديثها مع الطفلة عن أبيها الذى فى السموات إبلاغها بهذه الحقائق التى تتشربها روح الإنسان فى مراحل تنشئته، بنهم شديد وبذا أمكن لبيرل بما اكتسبته خلال ثلاثة أعوام من عمرها، دخول اختبار حقيقى فى كتب المراحل الابتدائية فى نيو إنجلاند، أو فى المرحلة الأولى لفصول وستمنيستر لتعاليم العقيدة المسيحية، رغم عدم إلمامها بالإطار الخارجى لأى من تلك الأعمال القيمة. لكن ما يظهر على الأطفال من معاندة كتلك بطريقة أو بأخرى، والتى توفرت فى بيرل بقدر كبير، فى هذا الوقت بالذات، بعد أن سيطرت عليها تلك الحالة بشكل كامل، فأطبقت فمها ومنعتها من نطق الكلمات ووضع إصبعها فى فمها مع رفض ممجوج للإجابة على سؤال السيد الصالح ويلسون، ثم صرحت الطفلة فى آخر الأمر بأنها لم تخلق على الإطلاق، لكن أمها قد اجتنتها من أجمة الزهور البرية التى أينعت على باب السجن.

من المحتمل أن تكون الطفلة قد ابتكرت هذا الخيال من زهور الحاكم الحمراء التى تقارب الأجمة المذكورة فى الشبه؛ حيث كانت بيرل قد غادرت من القاعة ووقفت فى تلك اللحظة فى الشرفة، محتفظة في ذهنها بأجمة زهور السجن، تلك التى مرت بها وهى في طريقها إلى مقر الحاكم.

همس العجوز روجر تشيلينج وورث بابتسامة، بشىء فى أذن القس الشاب. نظرت هيستير براين إلى الرجل المحنك، وهى بين فكى رحى، شاعرة بهلع من تأويل ما طرأ على ملامحه من إشارات يا لقبحها كم بدت بشرته الكالحة أكثر كلاحة فى عينيها، وهيئته أكثر قبحا من تلك التى طالما عرفته بها من قبل معرفة وثيقة. التقت عيناها بعينيه لوهلة، لكنها تراجعت فى الحال لتوجه جل انتباهها للمشهد الذى تدور الآن أحداثه.

هتف الحاكم فى أناة بعد استفاقته من الدهشة التى انتابته جراء رد بيرل: "هذا أمر يبعث على النفور؛ لأن لدينا هنا طفلة، فى الثالثة من العمر، ولا تستطيع معرفة خالقها. إنها ولاشك تتساوى فى الضلالة مع ما فى روحها من فساد مقيم وما قدر لها من مصير مجهول! وأظن يا سادة أننا لسنا بحاجة بعد الآن إلى المزيد".

ضمت هيستير بيرل إليها بقوة، واجتذبتها بين ذراعيها، مواجهة الحاكم البيوريتانى العجوز بانفعال، كاد أن يبلغ مبلغ الشراسة. شعرت وهى وحيدة بين الناس، منبوذة منهم، ومعها هذا

الكـنز الفريد الذى دأب على بث الحياة فى قلبها، بأن لها حقوقا فيها لا ينازعها أحد فى هذا العالم، وأنها مستعدة للدفاع عن تلك الحقوق حتى الموت.

هتفت هيستير: "لقد وهبنى الله الطفلة، وهبنى إياها، لقاء ما سلبتمونى إياه، فهى سعادتى، وهى أيضا عذابى! إن بيرل هى سبب بقائى على قيد الحياة! كما أن بيرل سبب عقابى! ألا ترون أنها تمثل الحرف القرمزى وهو الوحيد الذى لديه القدرة على أن أحيطه بالحب وقد وهب من القوة ما يجعله قادرا على إنابتى؟ سأموت قبل أن تأخذوها منى".

قال الحاكم غليظ القلب: "امرأتى المسكينة، إن الطفلة ستلقى من الرعاية الكثير! وأكثر مما تقدمينه أنت لها".

ردت هيستير براين وقد بلغ صوتها حد الصراخ: "وهبنى الله حق رعايتها ولن أتخلى عن هذا الحق"، ثم التفتت هيستير على نحو مباغت نحو القس الشاب السيد ديميسديل، وهو الذى حتى تلك اللحظة بدا صعبا عليها أن توجه إليه عينيها مباشرة، فقالت له:

"تكلم أنت من أجلى، تكلم يا من تتولى رعاية روحى، وتشرف عليها، وتعرف عنى ما لا يعرفه هؤلاء الرجال. إننى لن أتخلى عن الطفلة! تكلم من أجلى! يا من تعلم ولديك من الرحمة ما يفتقر إليه هؤلاء الرجال! تعلم ما بقلبى، وما للأم من حقوق، وتعرف مدى قوة هذه الحقوق، حين لا يكون لدى هذه الأم سوى هذه الطفلة والحرف

القرمزى! فلتنظر فى هذا الأمر! ولتعلم أننى لن أتخلى عن الصغيرة!".

إزاء تلك الاستغاثة الجموح من قبل شخصية عزلاء، ظهر أن حالة هيستير النفسية قد تدهورت بل كادت تبلغ مبلغ الجنون، تقدم القس الشاب خطوة إلى الأمام، وقد اكتسى وجهه بالشحوب، واضعا يده على قلبه، كما هى عادته حينما كانت حالته المزاجية الغريبة تصل إلى حد التوتر. بدا عليه الإرهاق الآن والضعف، بقدر يفوق وصفنا لحالته حين كانت هيستير براين تقف أمام الناس لاستعراض العار، وسواء حدث هذا لاعتلال فى صحته أو لأى سبب آخر، فإن عينيه الواسعتين أصاب عمقهما المؤرق والحزين، ألم بالغ.

بدأ القس بصوت متهدج حلو النبرة بل كان فيه من القوة، ما جعل صداه يتردد فى القاعة، ورنينه يجلجل فى الدرع الأجوف: "الصدق كل الصدق ما قالت هيستير، وما استلهمت من مشاعر. فالله وهبها الطفلة، كما وهبها أيضا معرفة غريزية بطباعها وحاجاتها، وكلاهما ذو طبيعة خاصة لا يستطيع مخلوق الإلمام بها وبغض النظر عن ذلك كله، أليس هناك تكريس رهيب فى العلاقة بين هذه الأم وهذه الطفلة؟".

تدخل الحاكم مقاطعا إياه:

"أجل، اشرح ذلك أيها المعلم الصالح ديميسديل، وضحه لنا من فضلك".

أردف القس: "لابد للأمر أن ينحو هذا المنحى. لأننا إذا شئنا له العكس، فهل تصبح نيتنا من ذلك أن الأب الذى فى السموات، الخالق، يدرك بسهولة فعل الخطيئة، ثم لا يعمل حسابا للفرق بين شهوة عجلى وحب مقدس؟؟، إن عاقبة الأثم الذى ارتكبه والد هذه الطفلة، والعار الذى جلبته أمها، أن تجىء هذه الطفلة بمشيئة الله، لتعمل على قلبها بوسائل كثيرة؛ لأنها هى التى أطلقت لهفة الاستغاثة، شاعرة بغصة نبعت من روحها، مطالبة بحق الاحتفاظ بها. لقد جرى ذلك قصدا لنيل البركة بها، وهى البركة الوحيدة فى حياتها. ولا أشك أن ذلك كان الغرض منه، كما توحى به الأم نفسها، عقابا، وعذابا، تعانيهما فى أوقات لا قبل لأحد بحصرها. آلام وعذاب لا ينقطعان، حتى فى لحظات البهجة المشوبة بالقلق. ألم توحى بذلك، فى ثوب الطفلة المسكينة لتذكيرنا وبقوة بالشارة الحمراء التى تسفع صدرها؟".

هتف السيد الصالح ويلسون: "نعم القول، مجددا إننى أخشى ألا يكون لدى المرأة فكرة أفضل من جعل ابنتها إحدى المشعوذات".

أردف السيد ديميسديل: "أوه، ليس إلى هذا الحد، ليس إلى هذا الحد، صدقنى لو قلت أنها تعرف المعجزة الجليلة التى أتى بها الله فى خلق هذه الطفلة، وربما تشعر أيضا بما أعتقد أنه صدق الإيمان، كان القصد من هذه المنة أيضا، وقبل أى شىء، أن تبقى روح الأم حية، وأن تصونها من الوقوع فى مهاوى الخطيئة السحيقة التى كان الشيطان يسعى لجرها إليها! لذا فإن من صالح هذه الخاطئة البائسة أن تبقى الطفلة معها إلى الأبد، كمخلوق قادر على منحها إما مسرة

أبدية أو شجن برعايتها لها وسهرها عليها لتتولى دربتها على نحو قويم وذلك سيذكرها كل لحظة بسقوطها فى الزلل بل ويعلمها أيضا، وكما ورد بعهد الخالق المقدس بأنها تقبل بالطفلة على الله، فالطفلة بالتالى ستقبل بوالدتها عليه فى الدار الآخرة! وها هى ذى الأم الخاطئة أسعد حالا من أبيها. وأننا سعيا فى أثر مصلحة هيستير براين التى لا تربو على مصلحة الطفلة، علينا تركهما وشأنهما حيث يشاء الله لهما".

قال له العجوز روجر تشيلينج وورث وهو يبتسم: "إنك يا صديقى تتكلم بتركيز غريب".

أضاف الموقر ويلسون: "وإن ما يقوله أخى الشاب يحمل مغزى كبيرا، فما قولك يا سيادة الموقر بيللنجهام؟ ألم يدافع بقوة عن المرأة المسكينة؟؟".

أجاب الحاكم: "إنه يقوم بذلك خير قيام، ويقدم من الأسانيد ما يفيد بأننا سوف ندع الأمر على ما هو عليه، شريطة ألا تقدم المرأة على ارتكاب عمل مشين آخر على أقل تقدير. على أن يأخذ بعين الاعتبار وضع الطفلة تحت اختبار زمنى محدد حول مبادئ العقيدة المسيحية تحت إشرافك أو المعلم ديمبسديل. فضلا عن أنه ينبغى على الحاضرين هنا وفى الوقت المناسب الاضطلاع بذهابها إلى المدرسة والكنيسة من أجل الصلاة".

تراجع القس الشاب، بعد أن أنهى حديثه، بضع خطوات عن الجميع ووقف وقد توارى جزء من وجهه فى طيات ستارة الشرفة

الغليظة، فى حين كان ظل جسده، الذى ألقى به ضياء الشمس على الأرض، يهتز نتيجة حماسه الذى أبداه فى دفاعه عن المرأة. تسللت بيرل وهى الجنى الصغير الطائر والجموح، واتجهت نحوه فى رقة، وتناولت يده بين قبضتيها الصغيرتين، ثم وضعت خدها فوقها، وطبعتها بقبلة بالغة الرقة، ودون أدنى تكليف، مما جعل أمها تسأل نفسها وهى تتابع هذا المشهد: "أهذه لؤلؤتى بيرل؟"، لقد عرفت فى تلك اللحظة أن فى قلب الطفلة إحساسا بالعطف مع أنها تكشف عن نفسها بانفعال فى أغلب الأحيان، ويصعب أن تكرر نفسها لتبلغ هذه الدرجة من الرقة الحادثة الآن.

نظر القس حوله؛ لأنه بغض النظر عن خبرته الطويلة مع المرأة، لم يكن هنالك ما هو أحلى من المشاعر التى أظهرتها الطفلة، وقد صدرت تلقائيا عن ملكة فى الروح، تبين أن دواخلنا تحظى بشىء ما علينا أن نعشقه.

وضع يده على رأس الطفلة و تردد لوهلة ثم وضع قبلة على جبهتها. تلاشى بسرعة ما حرك الطفلة من رقة فى المشاعر، فشرعت فى الضحك، والقفز على أرضية البهو، برشاقة لا توصف، مما جعل السيد العجوز ويلسون يشك إن كانت أطراف أصابع قدميها قد لامست الأرض، وقال للسيد ديميسديل: "أقر بأن الشابة الصغيرة تضم بداخلها إحدى الساحرات. وهى فى غير ما طلب لعصاة عجوز لتطير بها".

علق العجوز روجر تشيلينج وورث على ذلك بقوله:

"يالها من طفلة عجيبة، من السهل أن نجد بداخلها بعض صفات أمها. ألا يمكن لباحث في الفلسفة تناول مثل هذا الأمر، يحلل شخصية الطفلة، ومن خلال ما يرى ويصوغ، يقدم لنا حدسا بارعا حول شخصية والد الطفلة، فكروا فى هذا الأمر يا سادة".

قال السيد ويلسون: "كلا، فمن الإثم تقفى أثر الفلسفة الملحدة، إن الخير فى هذا الشأن، فى الصوم والصلاة، والأفضل ترك اللغز حالما يكشف عنه، ذلك إذا لم يكشف الله عنه حيث شاء. وبهذا يكون واجبا شرعيا على كل مسيحى طيب، إظهار حنان الأبوة نحو طفلة مسكينة لا أب لها".

انتهت المسألة على نحو يرضى الجميع، وغادرت هيستير براين وابنتها البيت. وبينما هما تهبطان درج السلم، إذا بأحد مصاريع شرفة إحدى الغرف يفتح وينطلق منه في وضح النهار المشمس، وجه السيدة هيبينز، شقيقة الحاكم بيللنجهام، حادة الطبع، وهى نفس التى تم إعدامها فى بضع سنين بتهمة ممارسة السحر.

قالت ونذر الشر بادية على سحنتها، لتلقي ظلا على واجهة البيت المشرقة بضياء الشمس: "بس! بس! ألا تأتين بصحبتنا الليلة؟، ستجتمع فى الغابة رفقة لهو، وقد وعدت الرجل الأسود بأن تكون هيستير براين واحدة من تلك الصحبة".

ردت هيستير براين بابتسامة تعبر عن نصر مبين: "قدمى له اعتذاراتى لأنه يجدر بى المكوث بالبيت، للسهر على صغيرتى بيرل. فإن حدث وأخذوها منى فلن تسرنى سوى صحبتك فى الغاب، والتوقيع باسمى فى دفتر الرجل الأسود أيضا وسيكون ذلك بخالص دمى".

قالت السيدة الساحرة وهى تتسحب برأسها إلى الداخل فى حنق: "ستكونين بصحبتنا عما قريب".

لو افترضنا صحة ما دار من حديث بين السيدة هيبينز وبين هيستير براين وأنه لم يدر حوله خلاف فنحن هنا أمام موقف واضح تمثل فى دفاع القس الشاب ضد الحيلولة، بين أم ساقطة وبين ما أثمر عنه هذا السقوط. وبهذه السبيل نجت الطفلة فى وقت مبكر من الوقوع بين براثن الشيطان.

٩

الطبيب

توارى الرجل لقب روجر تشيلنج وورث، بعد أن قرر حامله، كما سيذكر القارئ، ألا يذكر بلقبه الآخر. وارتبط بهذا الأمر ذلك الرحالة المسن الذى كان يقف وسط الجموع لمشاهدة عرض الخزى الذى كانت تقدمه هيستير براين، وكان وافدا حينئذ لتوه من الأحراش، ليباغت بالمرأة التى كان يأمل أن يعثر عليها مثالا لدفء الأسرة وسعادتها، واقفة أمام الناس رمزا للخطيئة. لقد وطأت أنوثتها كل الأقدام. كان العار يتحامق فى ثرثرة تدور على كل الألسنة، فى ساحة السوق. أما أهلها، فيجدر أن تصل أخبارها إليهم يوما ما، وأما صويحباتها ورفيقات درب حياة العذرية، فلن يبقى سوى أن ينتقل إليهم عارها على عجل، ولن يتراجع هذا العار عن ذيوعه فى تناسب وانسجام مع كل ما يربطها بالعلاقات الحميمية والمقدسة فيما مضى بينهم من علاقات. فلماذا إذن فى وقت كان يملك فيه هذا الرجل خيارا، يجعله، وهو الذى ارتبط بالمرأة الخاطئة بأسمى ما تحظى به العلاقات من ود وقدسية، يتقدم مطالبا بحقه فى إرث لا رغبة له فيه؟، لقد قرر ألا يقف إلى جانبها على نصب عارها. واختار وهو مجهول للجميع عدا هيستير، ويملك الحل والعقد فى التزامها الصمت، أن يشطب اسمه من سجلات البشر، وأن تذهب مصالحه وعلاقاته

السابقة بالناس، طى النسيان، وكأنه بالفعل يرقد فى قاع المحيط، حيثما ألقت به إحدى الشائعات.

وإذا تحقق له ما أراد، فسوف تظهر على الفور اهتمامات جديدة، ومعها رغبة جديدة، ملؤها الشر إن لم يكن الإثم، لكنه فى الحقيقة بلغ من القوة ما يجعله مرتبطا برباط وثيق بكل ما تستطيع قدراته تحقيقه.

ولكي يوضع قراره هذا موضع التنفيذ، اتخذ له مكانا للإقامة فى بلدة البيوريتان، تحت اسم روجر تشيلينج ووزث، دون معلومة أخرى عدا العلم والذكاء اللذين حقق من ورائهما ما يجاوز قدراته العادية. فأبحاثه، فى فترة سابقة من حياته، قد حققت له شهرة ضخمة فى مجال الطب فى تلك الفترة بعد أن عرف نفسه على أنه طبيب، فاستقبل ذلك منه بحفاوة ظاهرة.

ندر وجود من برع فى مهنة الطب والجراحة داخل المستعمرة؛ بسبب افتقارهم إلى التمسك بالوازع الدينى، الذى دفع بالمهاجرين الآخرين إلى عبور الأطلنطى. ولعل ما حققوه من براعة وتقدم مادى، من خلال البحث فى جسم الإنسان، جعلهم يفتقدون الناحية الروحية فى الوجود، وسط التعقيدات التى أحدثتها الآلية المبهرة، والتي بدا أنها برعت تماما فى تشكيل كل مناحى الحياة بطريقتها. فى كل الأحوال، كان يعهد بالصحة العامة لأهل مدينة بوسطن الطبيبين وبما كان يتوفر فى مجال الطب من ممكنات، لكل

من الصيدلى والشماش العجوز، الذى كان الورع والتقى هما خير دليلين على أدائهما عملهما، مما لو أثبتا ذلك بشهادة علمية كالدبلوما. كان الجراح الوحيد فى البلدة أحد الذين جمعوا بين ممارسة عرضية لذلك الفن النبيل والاستخدام اليومي للمبضع، الذى كان يلقى رواجا. اكتسب روجر تشيلينج وورث المعية في الجانب المهنى. ذاع صيته على الفور، فى أساليب الغش والخداع، المتوفرة في مجال الطب القديم أو الذى كان كل عقار فيه يشتمل علي عدة مكونات غريبة المنشأ ونادرة، يتم تركيبها بعناية وكأن نتاجها يفترض أن يحمل إكسير الحياة.

وفضلا عن ذلك فإنه حين كان أسيرا لدى الهنود الحمر، ألم بخصائص الجذور والأعشاب البرية، ولم يحجبها عن مرضاه؛ حيث إن هذه العقاقير البسيطة، قد وهبتها الطبيعة للبدائى الجاهل، إلا أنها كان لها دور فى الثقة به لا يقل عن دور المستحضرات الطبية الأوروبية، التى أنفق كثير من العلماء من الأطباء قرونا فى بحثها.

أصبح العالم الغريب عن البلدة، قدوة يحتذى بها، فى الظاهر لحياة دينية فى صورتها البدائية؛ لأنه اختار لدى وصوله مباشرة السيد الموقر ديميسديل مرشدا روحيا له. كان رجل الدين الشاب، الذى لا يزال صيته كأحد العلماء حيا فى أوكسفورد، يعد من قبل مريديه فى منزلة لا تقل عن منزلة الحواريين، قدر له العيش والعمل لوقت معلوم، ليحقق إنجازات كبيرة للكنيسة الإنجليزية الجديدة التى تشهد الآن مراحل ضعفها، ذلك ما كان قد حققه الأسلاف المؤسسون

للعقيدة المسيحية الناشئة فى المنطقة. لذا وفى تلك الفترة وضح أن صحة السيد ديمسديل آخذة فى التدهور. ووصلت الأخبار ممن كانوا على علاقة وثيقة به، أن الشحوب البادى على وجنة القس الشاب. قد فسر بأنه نتج عن دأبه على البحث، والإسراف فى إلزام نفسه بأداء واجباته الكنسية والدينية بكل دقة وحزم، فضلا عن قيام الليل والصيام اللذين لا ينقطع بالكلية عن ممارساتهما بانتظام، للحد من غريزة الجسد الفانى التى تعمل على بث الظلام إلى الروح وإعاقتها عن ممارسة دورها الأسمى. أشار آخرون إلى أن السيد ديميسديل فى طريقه إلى قضاء نحبه بالفعل، وليس هذا إلا لأن العالم لا يستحق أن يطأه بقدميه. أما هو فقد أقر بأنه إذا شاء الله له أين يقضى أجله، فليس ذلك إلا لأنه لم يكن يستحق إسناد الرسالة المقدسة له فوق هذه الأرض. ومع تضارب الآراء حول سبب مرضه، لم يكن هناك من يشكك فى تلك الحقيقة. نحل جسده، ورغم احتفاظه بطلاوة صوته وقوته، فإن فيه ما كان يشى بهلاكه، وذلك لما يحمل من شجن، كان يغلب عليه إن تعرض لطارئ عابر، أو حادثة مباغتة، وضع يده على قلبه مع تورد في وجهه، لا يلبث أن يتحول الشحوب، ما يشير إلى شعور بالألم.

تلك كانت حالة القس الشاب، والتى وضح للعيان من خلالها أن نجمه آخذ في الزوال، قبل الأوان، ولم يحدث ذلك إلا مع قدوم روجر شيلينج وورث إلى البلدة. عند أول ظهور له فى الصورة، وقد ذكر بعض الناس آنئذ، أن مجيئه هابطا من السماء أو أن العالم

السفلى قد انشق عنه، كان يحمل فى طياته لغزا، وكان من السهل وضعه فى مرتبة الإعجاز. وصل الأمر إلى الإشادة بحنكته، التى شهد له بها ما يجمع من أعشاب ومن براعم الزهور البرية واجتثاثها من جذورها، واقتطاف الأغصان من أشجار الغابة، كخبير بفوائدها الخفية التى تبدو غير ذات قيمة لدى الآخرين. سمعه الناس يذكر "كينيلم ديجبى"، وآخرين من المشاهير، أولئك الذين لم تكن إنجازاتهم العلمية تقل عن الخوارق فى شىء، يتناولهم بالذكر كأنهم أقران له، فلماذا إذن وهو على هذه الدرجة من العلم، وفد إلى هنا؟، دارت أقاويل على الألسنة، لحل هذا اللغز، ورغم سخفها فإنها راجت بين العقلاء فى البلدة، مفادها أن السماء قد صنعت معجزة لا ريب فيها، بنقلها لطبيب بارز فى الطب القديم مثله من إحدى الجامعات الألمانية، عبر الفضاء، وإلقائه على باب مكتب السيد ديميسديل!، أشخاص على قدر كبير من الإيمان، كانوا يعلمون أن الله يحقق مشيئته دونما حاجة إلى استعراض لما يدعى وساطة من إحدى الخوارق، مالوا إلى رؤية يد الله فى وصول روجر تشيلينج وورث فى الوقت المناسب.

دعم هذه الفكرة الاهتمام البالغ الذى أظهره الطبيب برجل الدين الشاب، لقد ألحق نفسه به كواحد من رعايا أبرشيته، وسعى لكسب صداقته وثقته من خلال طباع القس من خلال ما يعرف عن القس من رهافة فى الحس. نبه الرجل إلى خطر كبير أحاق بحالة القس الصحية، بل كان متلهفا على علاجه، وأنه كلما اضطلع بذلك فى مرحلة مبكرة، كانت النتيجة المرجوة غير بعيدة المنال. كان

الكبار من رجال الدين والشمامسة، وكبار الراهبات، والبتولات الشابات والعذارى، من جماعة السيد ديميسديل، كانوا كلهم على السواء، يلحون عليه في أن يجرب العرض الصريح الذى تقدم به الطبيب البارع. وكان السيد ديميسديل يرفض مناشداتهم بأدب، ويقول: "إننى في غير حاجة إلى علاج".

ولكن كيف استطاع القس الشاب أن يزعم هذا فى الوقت الذى كانت تتوالي عليه أيام الآحاد فى الكنيسة، وهو يزداد ضعفا وشحوبا، وتبين الرجفة فى صوته بأكثر من ذى قبل، وفي الوقت الذى أصبح قيامه بضغط يده على قلبه، عادة ملازمة له أكثر من كونها إشارة عابرة؟، فهل يحدث هذا نتيجة إجهاد فى العمل؟ وهل يرغب حقا فى الموت؟ كانت تلك الأسئلة تطرح بأدب على السيد ديميسديل من قبل كبار القسس في مدينة بوسطن، ومن شمامسة كنيسته، وهم الذين دأبوا على ترديد عبارتهم "تعامل معه"، لينفضوا عن أنفسهم إثم رفضه العون الذى ثبت أن الله قد ساقه إليه. استمع إلى كل ذلك في صمت، ووعد بالتشاور مع الطبيب.

قال السيد الموقر ديميسديل، حين طلب مشورة العجوز روجر تشيلينج ورث، وتنفيذا لما وعد به: "إذا كانت هذه إرادة الله، فإننى قانع تماما بأن متاعبي، وأحزاني، وذنوبي، وآلامي، سوف تنتهى بنهايتى، وما كان منها دنيوى سيوارى فى قبرى، وما هو روحاني سيذهب معى إلى مقرى الأبدى، وذلك خير من وضع راعتك لكي تحقق ما يجلب الخير لى".

قال العجوز روجر تشيلينج وورث، بهدوء ظاهر في مسلكه، مفتعلا كان أو طبيعيا: "أجل. إنه لجدير بقس شاب أن يتحدث بنفس أسلوبك، فالشباب وهم يفتقدون أسس الرسوخ في الحياة، يسلمون قيادهم لها دون أي عناء! ورجال الدين الذين يسيرون بصحبة الله على الأرض، سوف يفرحون بمصاحبته في المسير، هناك فوق الأفاريز الذهبية في أورشليم الجديدة".

رد القس الشاب، وقد وضع يده على قلبه، و ظهرت على محياه إشارة الإحساس بالألم: "كلا، فلئن كنت أستحق السير هناك، فالأفضل لي أن أقنع بالشقوة هنا".

قال الطبيب: "الأخيار يفصحون عما في دواخلهم بتواضع جم".

على هذا النحو أصبح العجوز الغامض روجر تشيلينج وورث، المستشار الطبي للموقر السيد ديميسديل. ولم يكن ذلك من اهتمام بالمرض فحسب، وإنما لأنه كان في حركة دائبة، يبحث في سمات المريض وفي شخصيته، ووصل الأمر برجلين، فارق السن بينهما كبيرا، ألا يفترقان عن بعضهما البعض في أغلب الأوقات على نحو تدريجي. فمن أجل السهر على صحة القس، ولكي يتمكن الطبيب من جمع نباتات يخرج منها البلسم الشافي؛ كان عليهما أن يقطعا المسافات الطويلة على شاطئ البحر سيرا على الأقدام، أو بالتجوال في الغابة، مازجين الحديث في شتى الأمور بما للأمواج من هدير

ورذاذ، وما لهزيم الريح من مهابة بين أعالى الأشجار. غير أنه كان يغلب أن يكون أحدهما ضيفا على الآخر فى مكتبه وفى مختلاه. كان القس مفتونا بصحبة أحد العلماء، تعرف فيه على نضج فكرى لا يجده عمق أو مجال، فضلا عن أفكاره المتحررة والمرتبة، التى كان يسره البحث فيها مع العاملين فى مهنته. لقد روع فى حقيقة الأمر إن لم يكن قد صدم بسبب كشفه لهذه السمات فى الطبيب. كان السيد ديميسديل راهبا بحق، ورجل دين نابه، ذلك غير ما كان يتمتع به من إحساس بالمهابة، ورجاحة عقل لزمت جادة اليقين، وتحملت عبء اجتيازه فى زمن قياسى. وبغض النظر عن كونه فى نظر الناس، مؤمنا بأفكار حرة، فإنه كان يلزم لإحساسه بالرضا، إحساسه بالإيمان محيطا به من كل جانب، وداعما له، فى الوقت الذى كان يطوقه هذا اليقين بنظامه الصارم. ومع أن الإقدام على المتعة يصحبه شعور بالخوف، فقد كان يحس براحة وقتية لدى النظر إلى الكون، من خلال ناقل لنوع آخر من الفكر يختلف عن تلك الأفكار التى تعود الماجلة بشأنها. وكأن شرفة قد انفتحت لتسمح للهواء النقى بالدخول إلى المكتب المغلق والمحروم من الهواء. لقد كانت حياته تبدد سدى، بين ضوء المصباح، أو حرمان من ضوء النهار، مع أريج المعتق، روحى كان أو مادى، مما تزفر به الكتب. لكن الهواء كان باردا ومنعشا وصالحا لاستنشاقه فى راحة ورضا. وبذلك التزم كل من القس الشاب والطبيب ثانية، بما كانت تعرفه كنيستيهما بحدود الاستقامة.

على هذا المنوال كان روجر شيلينج يقوم بفحص مريضه بدقة، فى أى وقت تقع عليه عيناه، سواء كان ذلك فى حياته العادية، متبعا فى ذلك مبحثا معروفا فى الطب يرصد مجال ما يألف القس من فكر، أو لدى وجوده داخل إطار مشهد سلوكى آخر فريد، يستدعى الكشف عما يطرأ من جديد على شخصيته من الخارج. وجد أن ذلك من الأمور الحيوية لمعرفة الرجل، قبل محاولة إبلاله. وأينما وجد العقل والقلب، فإن أمراض الجسد تصطبغ بما لديهما من مقومات. إن فكر وخيال آرثر ديميسديل، فى حالة نشاط متصل، وإفراط بالغ فى الحساسية يرجح أن يكون مرضه العضوى له صلة بهما. لذلك دأب روجر شيلينج وورث وهو الخبير والطبيب الوفى الحنون، على التغلغل داخل صدر المريض، مقلبا بين ظنونه ومدققا فى أفكاره، وباحثا كل شىء بيد الخبير، الباحث عن كنز فى كهف مظلم. يمكن لأسرار قليلة أن تغيب عن الباحث، بعد أن تواته الفرصة، ويسمح له بمهمة الكشف عن ذلك اللغز، ويجدر به أن يستخدم حنكته فى سبيل تتبعها. ويجدر بالرجل إذا حمل سرا تجنب الحميمية مع طبيبه خاصة. فإذا كان الأخير يملك ذكاء بالفطرة وكثيرا مما نطلق عليه البداهة، ولم يكن يظهر تطفلا لا داعى له، فضلا عن انعدام تمتعه بسمات عدم القبول، ولديه من قوة الحضور العقلى ما تأصل فيه منذ الصغر للتآلف مع مريضه، بحيث ينطق الأخير لا شعوريًا بما يخال إليه أنه محض توارد أفكار، فيتلقفها الأول دون تجاوب ظاهر معه، ولم يبادله عبارات الرثاء، بل يقابله بصمت، وهمهمة، وبعد ذلك

بكلمة من هنا وأخرى من هناك، ليوضح له أن الأمر برمته يتعسه فهمه، فإذا ألحقت سمة ثقته بنفسه بالمزايا السابق ذكرها، مع شخصيته المعروفة كطبيب، فإنه يجدر خلال وقت قصير، أن تتكشف أمامه، حالة المريض النفسية وتفيض روحه بما تختزن فى جدول رقراق وتكشف عما بداخلها من غموض.

استحوذ روجر شيلينج وورث على كل ما ذكر آنفا من سمات أو حاز أغلبها. لذلك مر الوقت وزادت الألفة، كما سبق أن ذكرنا، بين عقلين نابهين، وسعا كل ما فى المجال الإنسانى من فكر ودرس، بلقياهما معا، لبحث كل ما يربط الأخلاق والعقيدة من فكر، بشئون المجتمع، وباستقلال شخصية الفرد، وتبادل الاثنان الكثير من الأمور التى بدت لهما أمور خاصة، بل والتى لا تحظى أيضا بالسرية، والتى تخيل الطبيب وجود سرية بها، فتتسلل من وعى القس دون أن يدرى ويبوح بها هامسا فى أذن صاحبه. كان لدى الأخير توجس من أنه لم يستطع حتى الآن الكشف عن طبيعة مرض القس البدنى. ذلك أنها كانت غريبة فى تحفظها.

بعد مرور بعض الوقت وبإيعاز من الطبيب، قام أصدقاء السيد ديميسديل بترتيب ضم الرجلين فى مسكن واحد، حتى يصبح كل مد أو انحسار فى حياة القس اليومية تحت عين طبيبه الملازم له والساهر عليه. سرت البهجة فى البلدة، حين تحقق هذا الهدف المنشود. فقد كان هذا يعد أفضل سبيل متاح لتحقيق الفائدة لرجل الدين، وإلا كما يحدث فى الغالب ممن يهتمون بتلك الأمور؛ بأن عليه

أن يختار شابة مليحة من بين كثيرات، تكرس حياتها روحيا له كحليلة مخلصة له. لم يظهر فى هذه الخطوة الأخيرة ما يشير إلى أن آرثر ديميسديل قد يقدم على قبولها، فقد رفض كل الاقتراحات من هذا القبيل وكأنما عزوبية الراهب أحد البنود التي وضعها فى لائحة الكنيسة. لذلك شوهد بملء إرادته، يقتات كسرات من الخبز تعافها الأنفس على موائد الغير، ثم يقاسى زمهرير الشتاء، حيث كان أجدر به التماس الدفء فى بيت آخر، وبدا فى الحقيقة أن ذلك الطبيب العجوز الذكى والمحنك والبار، علاوة على إظهاره مشاعر الأبوة والاحترام، تجاه الراهب الشاب، هو نفسه والوحيد بين بنى البشر، الذى كان على الدوام رهن إشارة منه.

كان يشارك الصديقين السكنى الجديدة، أرملة طيبة. ذات منزلة رفيعة، أقامت فى بيت كاد أن يشغل المكان الذى أقيم عليه مبنى كنيسة الملك المهيب ذلك الوقت. كان فى جانب منه يشمل الجبانة، التي كانت فى الأصل بيت أسحق جونسون الريفى، ناسب هذا تداعى الأفكار المهمة، التي تتفق ووضع شاغلي البيت المهنى المرموقين، ممثلا فى القس ورجل الطب. كانت الأرملة الطيبة مكلفة بالرعاية المنزلية لغرفة السيد ديمسديل، التي تدخلها الشمس، وتصنع ستائرها الغليظة ظلال الظهيرة، عند الحاجة. كانت الجدران مغطاة بمفارش مطرزة بالرسوم، قيل إنها مصنوعة بأنوال جوبلين، وهى فى كل الأحوال تمثل قصصا من الإنجيل لكل من داود وبيتشبع، والنبى ناثان، لم تخب ألوانها لكن تلك الرسوم جعلت من المرأة الجميلة

عبوسا، كعرافة تنذر بشر محدق. رتب رجل الدين المريض له مكتبة فى هذا البيت، زخرت بمجلدات خطها الأسلاف بأيديهم وبدائرة رابيس المعرفية، ودائرة معارف الرهبان الجامعة وهى التى كان رجال الدين البروتستانت، حتى بعد تشويههم وبخسهم قدر واضعيها من الكتاب، قد عادوا مجبرين فى الغالب للتزود بمعارفها.

اتخذ العجوز روجر شيلينج وورث مكتبا له ومعملا، على الجانب الآخر من البيت، ليس كعالم متحضر ينظر إليه على كمال استعدادته من كل الوجوه، بل زود المعمل بجهاز للتقطير، وبلوازم تركيب العقاقير، والمواد الكيماوية، تلك التى خبر الكيميائى معرفة كيفية العمل على تحقيق الغرض من تراكيبها.

فى ظل تلك الظروف المواتية، استقر حال العالمين، كانت الألفة تعبر من إحدى الغرف إلى الأخرى، فيتبادل كل منهما دون فضول بحث شئون الآخر.

تخيل أصدقاء الموقر آرثر ديميسديل من العقلاء والعارفين ببواطن الأمور كما ألمحنا من قبل، بأن هذا كله جرى بتدبير من السماء، لا لشيء سوى استعادة القس الشاب كامل عافيته، وتلبية لأدعية كثير من الناس فى السر والعلن، ولكن ينبغي الآن أن يثار أن قدرا لا بأس به من الناس، شرعوا مؤخرا في اتخاذ موقف من العلاقة التي تجمع بين السيد ديميسديل والطبيب العجوز الذى يكتنفه الغموض.

حين يحاول الجهلاء من عامة الناس تفحص شيء بأعينهم، فإنهم يفرطون فى خداع أنفسهم. ورغم أن ذلك فى الغالب يشكل حكما نابعا بالبديهة من قلبهم الكبير والمفعم بالمشاعر، فإن النتائج المحققة على هذا النحو يغلب عليها النزاهة والعمق وكأنهم يملكون الشخصية الإيمانية الكاشفة لخوارق الطبيعة.

أناس على هذه الشاكلة، استطاعوا تبرير ظلمهم روجر شيلينج وورث دونما سند أو حجة تستأهل تأكيدهم ما يدعون.

كان هناك من كبار السن أحد الحرفيين من أهل لندن أيام حادثة مقتل السير توماس أوفر بيرى، وبعد مرور ثلاثين عاما على الحادثة، جاء الآن ليشهد أنه رأى الطبيب، تحت لقب آخر، ضاع الآن من ذهن راوى القصة، بصحبة الدكتور فورمان، الساحر العجوز الشهير، الذى كان له ضلع فى حادثة أوفر بيرى.

أشار اثنان أو ثلاثة، بأن الرجل المحنك، خلال أسره لدى الهنود الحمر تزود بالمكتسبات العلمية لدى انخراطه فى تعلم الرقى الخاصة بالرهبان الذين يحيون بعيدا عن المدنية، ويعرفهم الجميع بالسحرة الأفذاذ، ويقومون أمام الناس بتقديم العلاج المعجز من خلال ممارستهم السحر الأسود. أكد الكثيرون من هؤلاء وأولئك ممن يوصفون بالوقار، ومن أولى الأبصار، فآراؤهم فى الغيبيات تأخذ بعين الاعتبار، أكدوا بأن محيا روجرتشيلينج وورث قد طرأ عليه تغيير ملحوظ منذ أقام فى المدينة، خاصة منذ أقامته مع السيد

ديميسديل. كانت تبدو عليه السكينة فى بادئ الأمر، والاستقامة، وكان يظهر بمظهر العالم.

أما الآن فقد بدأ وجهه يحمل الشر والنفور، اللذين لم يلحظا عليه من قبل، واللذين لا يزالان يزدادان وضوحا لمن تغلب متابعته. وتماهيا مع فكرة رعناء فحواها أن النار التى فى معمله، قد استحضرها من البقاع السفلى، بعد أن زودت بنار جهنم، وتبعا لذلك فإن وجهه قد كلح بفعل السناج.

فى نهاية المطاف ظهر رأى يدحض هذا الرأى بشدة، فالموقر آرثر ديميسديل، ككل الشخصيات الأخرى من أصحاب القداسة، فى العالم المسيحى فى كل العصور، قد يلبسه الشيطان نفسه، أو مبعوثه، فى شخص العجوز روجر تشيلينج وورث. أخذ هذا المبعوث الشيطانى، الإذن من السماء، ولفترة بذاتها، للتودد إلى رجل الدين، والكيد له. نقر بأنه لا يوجد عاقل، يصيبه شك فى أى الطرفين بسبيله إلى تحقيق الانتصار على الطرف الآخر. لقد تطلع الناس، بأمل لا يحده حد، إلى أن يخرج القس من الصراع مكللا بالنصر، الذى لا شك أنه سيحققه بزعمهم. ورغم ذلك فإن ما كان يدعو إلى الأسى، التفكير بأن لابد وأن يواكب العذاب الجسدى، مكافحته لتحقيق الأبلال.

وأن ما كان يبعث على الأسى، اعتبار أن ما فى عينى القس الغائرتين من هلع وكرب، فيه دلالة على أن المعركة مريرة، والنصر مضمون.

١٠

الطبيب ومريضه

اتسم العجوز روجر تشيلينج وورث حياته كلها بهدوء الطبع ولين الجانب، ولم يكن ذلك عن رقة فى الأحاسيس، بقدر ما كان فى تعامله مع الناس، رجلا يتصف بالنزاهة والاستقامة. لقد استهل العمل فى بحث، توخى الأمانة فيه والإحساس بالمسؤولية، وكان يتخيل أن ما يسعى إليه لا لغرض إلا السعى وراء الحقيقة، حتى لو كان اللغز لا يحيط به سوى خطوط مرسومة فى الفراغ، أو أرقام فى معادلة هندسية، وليس مشاعر إنسانية، ومظـــالم يرتـــكبها فى حـــق نفسه. لكنه وهو يباشر مهمته، كانت الشراسة لا تزال غائبة عنه، وحماقة الفتنة فى مهدها نائمة، ثم أحكم قبضته على الرجل فى إلحاح ولم يتركه، حتى ينفذ كل ما يسعى إليه. إنه الآن يحفر فى قلب رجل الدين المسكين، كباحث عن الذهب، أو كمن ينقب فى قبر بهدف العثور على درة ووريث فى صدر ميت، ولكن الراجح أنه لن يجد سوى الفناء والعفن. فأسفا عليه، لو أن هذا ما كان يسعى إليه. كان فى بعض الأحيان يخرج من عينى الطبيب، شعاعا متوهجا بالزرقة ينبئ عن شر، كالذى يخرج من موقد نار، بل دعنا نقول إنه يشبه اللهب الشاحب، المرتعش على وجه حاج بعد أن ينسل عند باب

بونيان المنفر فى الجحيم. وتصادف أن تصل الحفار الشرير إشارات مشجعة من التربة التى كان يعمل فوقها.

قال لنفسه فى لحظة من تلك اللحظات: "إن هذا الرجل وهو على هذه الدرجة من الطهر الذى يصفونه به، وحسب ما يظهرعليه من سمو روحانى، قد ورث بنية جسدية سليمة عن أمه أو أبيه، فلنحفر أعمق قليلا فى تجاه هذا العرق".

وهكذا، وبعد بحث طويل فى باطن القس المظلم، وتقليب كل ما يعد ذا قيمة، وراء وهم يقول بأنه يفعل هذا من أجل أبناء جنسه، وفى سبيل المحبة الحقيقية بين البشر، والولاء الطبيعى لهم، وأنه قد دعم ذلك بالفكر والبحث وكشف عن ذلك ما توهمه، بما جعل الذهب بالنسبة لما أوهم به نفسه، سقط متاع، بأنه سيعود مجددا بعد إحباط، ليبدأ من جديد للعمل فى بحثه فى مكان آخر. فالذهب نفاية قياسا لما يسعى الباحث إليه.

تحسس الرجل طريقه خلسة، بخطى حذرة، واحترازا مما قد يواجهه، كاللص الداخل إلى إحدى الغرف، التى كان الراقد فيها بين سبات ويقظة، أو ربما كان هذا الراقد فى تمام يقظته، وذلك لسرقة الثروة التى يختصها هذا الراقد بالسهرعليها وحراستها كمقلة عينه. ورغم حرصه البالغ، فقد يصدر بين لحظة وأخرى عن أرض الغرفة صرير، وعن ثيابه حفيف، وقد يقع ظله، فى لحظة فارقة فوق ضحيته. وبعبارة أخرى فان السيد ديميسديل غالبا ما تنبه حساسيته المفرطة، ببداهة متأصلة فيه، فيتنبه إلى أن شيئا غامضا يهدد سكينته،

لقد زج بنفسه فى الغرفة وصار قريبا منه. لكن العجوز تشيلينج وورث له أيضا مداركه الذهنية التى أوشكت على البدهية، حتى إن القس حين ألقى بعينيه المؤرقتين عليه، وجد الطبيب، الشفوق والحنون والساهر على راحته، وليس الصديق المتطفل عليه.

ويحتمل أن يكون السيد ديميسديل قد رأى، شخصية هذا الرجل مكتملة من جميع الوجوه، إن لم يكن ما تأصل به من مرض، تتعرض له القلوب السقيمة، قد أسلمه إلى الشك فى كل الناس. ولأنه لم يكن يثق فى صداقة مع أحد، فإنه لم يميز عدوه حين ظهر الأخير بالفعل أمامه. وقد كان مع ذلك محافظا على الاحتفاء به. وكان يستقبل الطبيب العجوز فى مكتبه يوميا، أو يزوره فى معمله، وبدافع الترويح عن النفس، يشاهد العمليات التى يجريها ليحول بها النباتات البرية إلى عقاقير ذات فعالية.

يوما ما تحدث مع روجر تشيلينج وورث، وقد أسند جبهته على يده، واتكأ بمرفقه على عتبة الشرفة، المطلة على الجبانة، بينما كان العجوز يقوم بفحص مجموعة من النباتات قبيحة المنظر. فسأله وهو يرمقه بطرف عينه؛ ذلك لأن ما لوحظ على رجل الدين، فى تلك الأيام، أنه ندر أن ينظر إلى أى شيء بشرا كان أم جمادا تجاهه مباشرة: "من أين يا طبيبى الطيب تجمع هذه الأعشاب ومعها تلك المجموعة من أوراق النبات الواهنة السوداء؟".

أجاب الطبيب وهو يواصل عمله: "إنها تعد جديدة بالنسبة لى حتى وإن كانت فى الجبانة المتاخمة، لقد وجدتها مستنبتة على أحد

القبور الذى لا يحمل شاهدا فوقه أو شيئا يذكر بالميت سوى هذه الأعشاب القبيحة التى أخذت على عاتقها أن يبقى صاحب القبر فى الذاكرة. استنبتت من قلبه، كى تشير إلى سر دفين، وورى معه، وكان خيرا الإقرار به وهو حى يرزق".

قال السيد ديمسديل: "ربما كانت لديه رغبة قوية فى ذلك، ولكنه لم يستطع".

رد الطبيب: "ولم لا؟ لم لا، وكل قوى الطبيعة تطالبه بقوة بالاعتراف بالخطيئة حتى إن هذه الزهور البرية، قد خرجت من قلبه إلى الوجود لتكون خير شاهد على جريمة لم يفصح عنها؟".

أجاب القس:

ذلك أيها السيد الطبيب محض خيال منك. ولو منحنى الله قول الصواب، فإنه لا توجد قوة على ظهر الأرض، لا تدركها رحمة الله، فى الكشف بالقول أو بالرمز أو بالإشارة، عن أسرار قد تتوارى فى قلب إنسان. فالقلب يرتكب ذنبا فى حق نفسه بكتمه بالضرورة أسرارا كتلك، حتى يأتى اليوم الذى لابد أن يكشف فيه عما توارى منها، وما كان يجدر بى أن أكون قارئا أو مفسرا للكتاب المقدس إلا لأدرك أن الكشف عن أفكار إنسان أو أفعاله، وما سيفعل مستقبلا، ليس سوى جزء من العقاب. مؤكدا أن ما تقول فيه تبسيط للمسألة. كلا، لأن الكشف عن أسرار كهذه لا يقصد منه، إن لم أكن مخطئا، سوى إرضاء ذكاء كل المخلوقات العاقلة، التى تقف مترقبة، أن ترى فى يوم ما مشكلة الحياة العويصة وقد حلت. فالخبرة بقلوب الناس تستلزم

حل تلك المعضلة من جميع الوجوه. وإنني فضلا عن ذلك أدرك أن القلوب وهي تحتفظ بتلك الأسرار المشينة، التي لن يكشف عنها كما تقول إلا في اليوم الآخر، لن تتعرض لإكراه، بل ستكشف عنها عن طيب خاطر".

سأل روجر تشيلينج وورث بتؤدة، وهو يرنو بطرف عينه إلى القس: "فلماذا إذن لا يكشف عنها هنا؟ ولم لا يجدر بالمذنب أن يفوز بما يكشفه من سلوان يجل عن الوصف".

قال رجل الدين، وهو يضغط بيده على صدره بقوة، كمن شعر بوخز ألم رهيب: "إنه غالبا ما يفعل ذلك، فكثير من الأنفس الضالة، تمنحني ثقتها، ليس على فراش الموت فحسب، بل وهي تتمتع بالقوة وذيوع الصيت، وهم أحياء يرزقون. فأي راحة تلك التي دائما ما أشهدها، في أولئك الأخوة الخاطئين بعد أن يفيضوا بما في قلوبهم! حتى فيمن يتنسم في نهاية المطاف الهواء النقي، بعد أن ظل فترة طويلة، يعاني الاختناق مما يستنشقه من هواء فاسد. فكيف يمكن أن يحدث عكس ذلك؟؟ ولماذا يفضل من أقدم على.. لنقل القتل، وقد أدركه الهلاك، الإبقاء على جيفة عفنة في قلبه، ثم لا يخرجها في التو، ويجعل الناس يتولون أمرها".

علق الطبيب الوديع على ذلك بقوله: "إن بعض الناس أيضا، يوارون أسرارا كهذه". رد عليه السيد ديميسديل:

"فعلا. هناك أناس على هذه الشاكلة. وليس لديهم علل واضحة، سوى أن احتفاظهم بصمتهم ليس إلا طبعا متأصلا فيهم. ثم

ألا يمكننا أن نفترض أنهم وهم المذنبون على هذا النحو، لا يزالون رغم ذلك، فى شوق إلى مجد الرب وخير البشر، يخشون عرض أنفســهم وهم على هذا النحو من الفســق والضلال على الملأ، لأنه لا خير يرجى منهم بعد الآن، ولن يبز العمل الصالح سابق ما اقترفوا من إثم، لذلك يجولون بين ذويهم من البشر، ويبدون فى الظاهر أطهارا، كندف الجليد، بيضاء من غير سوء، وهم بذلك يتعذبون عذابا رهيبا، وقد لوث الإثم قلوبهم ووصمها بحيث لا يمكن لأرواحهم الخلاص منه".

قال روجر شيلينج وورث بحماس يفوق ما اعتاده من قبل، وهو يشير بسبباته إشارة عابرة: "هؤلاء الرجال يخدعون أنفسهم، فهم يخشون تبنى العار المنتسب إليهم شرعا. فربما تتعايش أو لا تتعايش تلك البواعث الدينية، كحبهم للناس، وحماسهم فى خدمة الرب، فى قلوبهم مع الشر الذى يشاطر الإثم فى السكنى، بعد أن فتح له الباب، ولابد أن يتكاثر فيما بينهما نسل الشيطان. ولكنهم إذا كانوا صادقين في تمجيدهم الرب فلا يرفعون أيديهم الدنسة إلى السماء! ولو أنهم كانوا في خدمة ذويهم فعليهم أن يكونوا شهداء علي ما للضمير من نفوذ وقوة، ترغمهم على إذلال أنفسهم طلبا للتوبة!، أتريد منى الاعتقاد أيها الصديق الحكيم والورع، بأن المظهر الخادع، يمكن أن يكون أفضل وأكثر فضلا فى تمجيد الرب أو في خدمة البشرية من حق الله ذاته؟؟ ثق فيما قلته لك، بأن هؤلاء الناس يخدعون أنفسهم".

قال رجل الدين بحيادية وكأنه يمسك عن مناقشة اعتبرها خرجت عما قصد منها، وأنها غير مرغوب فيها، فقد كان لديه قدرة متأهبة لهروب فعلي من أى موضوع يثير طبعه الحساس، سريع التوتر: "ربما كان الأمر على هذا النحو، ولكنني الآن بصدد سؤال طبيبي البارع، بهدوء بالغ، فيما لو أنه يعتقد بأنني استفيد من عطفه بالسهر على جسدي المريض؟".

قبل أن يتمكن روجر تشيلينج وورث من الإجابة. وصل إلى سمعهما صوت ضحك مجلجل من طفلة جموح، يأتي من جهة الجبانة المتاخمة. نظر القس بتلقائية من النافذة المفتوحة فقد كان الوقت صيفا فرأى هيستير براين ومعها الصغيرة بيرل، مارتين عبر الإفريز الذى يحد السياج. بدت بيرل جميلة كضوء النهار، لكنها كانت فى إحدى حالاتها التى تحتفظ فيها بروح المرح، فحين تسيطر عليها هذه الحالة، فإنها تخرجها كلية من مجال المشاركة الوجدانية فى التعامل مع الآخرين. إنها الآن تنطلق وثبا دون انقطاع من قبر لآخر، إلى أن وصلت إلى شاهد لأحد القبور، وهو قبر عريض، مسطح، يحمل ذكرى أحد الراحلين من النجباء ربما كان إسحق جونسون نفسه وانبرت ترقص فوقه. وإذعانا منها لأوامر أمها، ولمناشدة تقترب إلى التصنع، توقفت بيرل عن جمع الأعشاب الإبرية من إحدى الآكام العريضة، النامية بجوار القبر. وبعد أن تناولت حفنة منها، رتبتها فى هيئة خطوط الحرف القرمزى الذى زين صدر الأم فالتحمت به الأعشاب بقوة، لحكيتها. ولم تقدم هيستير على انتزاعها.

اقترب روجر تشيلينج وورث في هذه اللحظة من النافذة، ونظر إلى أسفل مبتسما ابتسامته الصفراء.

أشار بقوله، كأنه يتجه إلى نفسه بالحديث وليس إلى صاحبه: "لم يحدث أن اختلط بقانون، ولا بتوقير لسلطة ما، ولا بعودة لأعراف أو مبادئ، خطأ كانت أم صوابا، تركيب طفلة كتلك، لقد رأيتها بالأمس ترش الحاكم نفسه بالماء، عند مسقى الماشية بزقاق سبرنج. فمن عساها تكون بحق السماء؟ أهي جنى ديدنه الشر؟ وهل لديها مشاعر إنسانية؟ ألها أصل مستحدث في الوجود؟".

أجاب القس بهدوء بالغ وكأنه يحاور نفسه: "لا شيء من ذلك، ناهيك عن الحرية في الخروج على القانون، فهل لدى القانون القدرة على الإصلاح، إننى جواب لذلك".

يحتمل أن تكون الطفلة قد سمعت صوتهما لأنها نظرت إلى أعلى، نحو الشرفة بابتسامة رغم شقوتها فقالا: "إنها حملت الإشراق والفطنة والذكاء". رمت بإحدى إبر العشب، في تجاه السيد الموقر ديميسديل. تراجع رجل الدين، الحساس، إلى الخلف، فزعا من تلك القذيفة الراشقة. صفقت بيرل بيديها الرقيقتين، في نشوة ظاهرة، انتظارا لرد فعله. نظرت هيستير براين هي الأخرى إلى أعلى، وتبادلوا الأربعة النظر إلى بعضهم البعض، في صمت.

بادل الكبير الصغيرالنظرة ذاتها، ثم ران صمت بددته بيرل بصاخب ضحكها، وهتفت قائلة: "هلمي يا أماه، هلمي وإلا أمسك بك

الرجل الأسود الواقف هناك! إنه يمسك الآن بتلابيب القس، هلمى يا أماه قبل أن يمسك بك، أما عنى فإنه لن يستطيع الإمساك بالصغيرة بيرل".

وهكذا جذبت أمها بعيدا، وهى تتراقص وتطفر، وتتمايل فى رشاقة بشكل مثير للإعجاب، بين شواهد قبور الموتى، كمن ليس هناك ما يربطه بالجيل الذى سبقه أو بأجيال السالفين، مع أنه ليس هناك ما ينسبها إليهم، بدا الأمر وكأنها خلقت مجددا من عناصر أخرى، وتركت بالتالى لتحيا حياة تقتصر عليها، وتخضع من ثم لقانونها الخاص، دون أن يعتبر نزقها خروجا عليه.

أردف روجر شيلينج وورث بعد وهلة: "هناك امرأة ذاهبة إلى حيث شاءت، ولا تبقى على سر الخطيئة الذى كان متواريا عن الناس والذى تعتبر أنت الكشف عنه مصيبة كبرى، وإذا نحينا نقائص هذه المرأة جانبا، فهل هيستير براين أقل بؤسا مع الحرف القرمزى الذى على صدرها ، كما تعتقد أنت؟".

أجابه القس: "إننى أعتقد ذلك بحق. ومع ذلك، فإننى لا أستطيع الإجابة نيابة عنها. فهناك شعور بالألم، أفضل الإحجام عن رؤيته. لكننى لا أزال أعتقد، بأنه من الخير للمبتلى أن يكون له مطلق الحرية فى إظهار آلامه، مثلما تفعل المسكينة هيستير، وإلا يواريها كلها فى قلبه".

مرت وهلة أخرى ثم عاد الطبيب مرة أخرى إلى تفحص النباتات التى كان قد جمعها، وقال فى النهاية: "لقد طلبت رأيى منذ لحظات فيما يتعلق بصحتك".

رد القس:

"قد فعلت. ويسرنى أن تحيطنى بذلك علما. أرجوك أن تفصح فى صراحة، حياة كانت المسألة أم موتا".

قال الطبيب وهو لا يزال مشغولا بنباتاته، لكنه كان متابعا للسيد ديمسديل باهتمام: "بصراحة إذا ووضوح، أن العلة فريدة، ليست بهذا الانتشار فى حد ذاتها، ولم تظهر لها أعراض تظهر أمامى بوضوح عند الفحص على أقل تقدير. فأنا أيها السيد الصالح أراك كل يوم وأراقب ما يرتسم على وجهك من علامات، وقد مر شهر على ذلك، ولابد أن اعتبرك رجلا يعانى شدة المرض، وأنك لم تبلغ حتى الآن حد اليأس من الشفاء، ولكن على الطبيب العالم والساهر عليك أن يتحلى بالأمل. لكن المرض، ولا أدرى كيف أشرح لك، ذلك يبدو فى الظاهر وكأنى أحيط به، ورغم ذلك فإننى لا أعلم شيئا عنه".

قال القس المريض وهو يرنو بطرف عينه خارج النافذة: "إن ما تتفوه به، سيدى العالم محض أحاجى".

أردف الطبيب حديثه بقوله: "فلنتحدث إذن بصراحة أكثر. إننى أرغب بشدة فى الاعتذار سيدى لو توجب ذلك اعتذارا لأن الأمر يتطلب فى حديثى الصراحة. دعنى أتساءل كصديق لك كمن تقع عليه

المسؤولية عن حياتك بعد الله والطبيب الساهر على راحتك، هل حدث وتحقق كشف واضح لهذا المرض ثم تكرر هذا الكشف؟".

سأل القس: "كيف يمكنك توجيه استفسار يتعلق بهذا الأمر؟ إن من المؤكد أنك حين تستدعى طبيبا ثم توارى عنه الألم، فإنك بذلك تلهو لهو صغار".

قال روجر شيلينج وورث بتؤدة، وهو يسدد إلى وجه القس نظرة يشع منها ذكاء جاد: "ستقول لى إذن، بأننى أعرف كل شيء. فليكن ذلك! وللمرة الثانية! إن من يعرف العلة الجسدية والأعراض الخارجية، لم يدع فى الغالب إلا لمعالجة نصف العلة فحسب. فمرض الجسد الذى نحن بصدد فحصه، والذى نرى أنه فى ذاته وحدة كاملة، غير منقوصة، ليس سوى عرض من أعراض علة فى الجانب النفسى. وإننى أقدم اعتذارى للمرة الثانية، سيدى الصالح، عن أن حديثى يقدم الجانب السيئ من الصورة. إنك سيدى، من بين من عرفت من الرجال، الوحيد الذى أنفق جسده على الكتمان، واصطبغ، وتطابق إذا جاز التعبير بالروح الذى يعتبر وسيلة لها".

قال رجل الدين فى شيء من العجلة وهو ينهض من كرسيه: "لا حاجة لمزيد من الاستفسار إذن، أفهم أنك لا تتعامل والطب الذى يهتم بالنفس البشرية".

أردف روجر شيلينج وورث، مواصلا حديثه، دون التفات إلى مقاطعة، بل انتصب واقفا، مواجها القس ذا الوجنة الشاحبة الهزيلة،

بهيئته الكالحة وجسده القصير والمعيب: "لذا فإن المرض، العلة، موضع الألم، إن جاز لنا هذا التعبير يكمن فى روحك، وتتضح سرعة انتشاره فى جسدك كله فهل تطلب رغم ذلك أن يعالج طبيبك داء الجسد؟، وكيف يتأتى له ذلك، إذا لم تكشف له أنت عن الجرح أو القلق الذى يعتريك من الناحية النفسية؟".

انفعل السيد ديميسديل، وسدد عينيه الواسعتين واللامعتين، نحو روجر شيلينج وورث، وبشىء من الجموح، قال له بصوت عال: "كلا، ليس فى حضرتك أنت وليس فى حضرة طبيب من أهل الدنيا، لن يحدث هذا فى حضورك. وإن كانت النفس هى مصدر علتى، فعلى أن أعهد بنفسى لمعالج لأمراض الروح، فهو الذى يمكنه علاجى لو كان يقبل ذلك عن رضى، وهو أيضا الذى يستطيع إزهاق روحى! فليفعل بى الخير، بعدله وحكمته، ولكن من تكون أنت حتى تزج بنفسك فى هذا الشأن؟ ومن الذى يجترأ على إقحام نفسه فى علاقة المبتلى بربه؟".

قال روجر شيلينج وورث لنفسه وهو يتابع خروج القس بابتسامة صفراء: "إن كل شىء موضوع فى نصابه خلال هذه المرحلة، ولم افتقد شيئا، سنعود ثانية أصدقاء. ولكن انظر الآن قدر ما سيطر على الرجل من انفعال، أذهب عقله! ثم تلاه انفعال آخر فى حاله هذا. إن هذا السيد الورع ديميسديل يرتكب فى حق نفسه خطأ جسيما بسبب ما يعتمل بقلبه من حرارة الانفعال".

لم يكن من الصعب استعادة علاقة الود بين الرفيقين، على نفس الأسس القديمة وبنفس الدرجة. فبعد ساعات من اختلاء رجل الدين بنفسه، أدرك أن المرض العصبى الذى يعانى منه، قد دفع به إلى انفلات أعصابه بصورة لا تليق، لأن عبارات الطبيب لم يكن بها ما يبرر ما بدر منه أو يستدعيه. لقد تعجب بالفعل من العنف الذى عاد به على الرجل الطبيب المسن، فى الوقت الذى لم يقم فيه الآخر سوى بتقديم النصح له، وهو ما كان قد عهد به إليه، وسمح به القس. بمشاعر تحمل الندم، لم يفته تقديم وافر الاعتذار، ومناشدة صديقه مواصلة معالجته له، فإن لم يأت ما يفعله بنتيجة فى استعادته عافيته، فإنه بكل الاحتمالات، يعتبر سببا رئيسا فى بقائه على قيد الحياة حتى هذه الساعة. كان روجر شيلينج وورث مستعدا للقبول بإشرافه الطبى على القس، باذلا ما وسعه من جهد، ومتفان، بل كثيرا ما كان يغادر غرفة المريض، فى نهاية الجلسة العلاجية، وقد ارتسمت على وجهه بسمة محيرة، ملؤها الغموض.

لم يكن لهذه التعبيرات أن تظهر عليه فى حضرة القس، بل كانت تظهر مجسدة بعد أن يبارح الطبيب عتبة باب المريض.

حدث نفسه همسا: "إنها حالة نادرة تتطلب أن اتتبع مسارها لأبعد من ذلك. إن هناك تجانسا غريبا بين النفس والجسد! فإن كنت أفعل ذلك إظهارا للبراعة فحسب، فعلى بحث هذا الأمر حتى النهاية".

لم يمض وقت طويل على المشهد السابق رصده، حتى سقط السيد ديميسديل، ظهيرة أحد الأيام منهكا، بعد أن فقد وعيه وراح في غفوة عميقة وهو جالس على كرسيه وأمامه مجلد مفتوح، خط بالأحرف الكبيرة السوداء، يحتمل أن يكون من الكتب التى اتسع انتشارها، والخاصة بالتنويم المغناطيسى، والتى يتناولها الذى يرد ذكره فى مجال الأدب. كان نوم القس من العمق بحيث يستدعى التأمل. لأنه أحد الذين يألفون نوما خفيفا ومتقطعا، ومن السهل ترويعه، كالطير الوديع الذى يطفر على جذع شجرة. انسحقت روحه فى عزلة لم يألفها، حتى إنه لم ينتبه فى كرسيه، بعد أن ولج العجوز روجر شيلينج وورث الغرفة، دون استئذان لم يألفه من قبل. تقدم الطبيب مواجها مريضه مباشرة واضعا يده على صدره، ومزيحا بيده صدره الكهنوتى، الذى ظل يحجبه عن العين المدربة حتى تلك اللحظة. انتفض السيد ديميسديل، وانتبه قليلا.

غادر الطبيب المكان فى لحظات.

كان على وجهه انفعال يحمل الدهشة والرعب والرضا! وكان يفضحه الشعور بنشوة حارة، لم تفصح عنها سوى العين وقسمات الوجه، ومع شهود ذروة انفعالاتها على بنيته المنفرة، إلا أنها كانت تفصح عن نفسها بإفراط، إيماء بيدين مدهما إلى سقف الغرفة، وقدم مثبتة على أرضيتها.

لو رأى امرؤ العجوز روجر تشيلينج وورث فى لحظات نشوته تلك، فلن يكن بحاجة إلى بحث فى مدى غبط الشيطان نفسه، حين تفقد نفس بشرية مكرمة، طريقها إلى الله، ليظفر الشيطان بها فى مملكته. لكن ميز نشوة الطبيب عن الشيطان، قدر ما تحمل تلك النشوة من غرابة.

١١

أعماق قلب

بعد الحادثة السابق ذكرها، اتخذ الحوار بين كل من الطبيب ورجل الدين منحى آخر، رغم أنه فى ظاهره لم يطرأ عليه تغيير. لقد خلا الطريق تماما أمام روجر شيلينج وورث. لم يكن هو نفسه يتوقع هذا بالتحديد. ظل يضمر الحقد في قلبه رغم ما أبداه من هدوء ورقة ورباطة جأش، وها هى نفس مشاعر الحقد تعاود نشاطها فى نفس هذا العجوز التعس، فاقتاده من ثم إلى التفكير فى الثأر لنفسه، ثأر لم يسبق لمخلوق أن أنزله بخصمه. فيظهر نفسه على أنه الخل الوفى، لشخص لن يجد مفرا سوى أن يفضى إليه بدواعى خشيته وندمه وعذابه، وتوبة لا أمل فى قبولها، وأفكار أثيمة تلح عليه ولا سبيل إلى الفكاك منها! لقد توارت عن الناس مصيبة وقوعه فى الأثم، وأولئك يمكن لقلبهم الكبير أن يغفر ويرحم، ولكن الأمر قد ينكشف لمن خلا قلبه من الرحمة والغفران. أغدق كنز الشر من عطائه على هذا الرجل ولن يصلحه شيء آخر لسداد مقابل ثأره.

عطل رجل الدين الخجول، والمعهودة عنه سرعة الانفعال، ما يدبر له من كيد. لذلك مال روجر شيلينج وورث إلى الشعور بعدم الرضا كلية، بسبب سير الأمور على هذا النحو، وذلك لأن السماء قد أبدلت مكائد الشر التى دبرها بتسخيرها صاحب الثأر وضحيته فى

تحقيق مشيئتها هى، وربما يأتى العفو منها من حيث بدا أنه العقاب. كاد أن يصل الأمر به إلى ذكر أنه قد رزق الوحى. لا يهم فى ذلك إن كان ما يأتيه من السماء أو من مكان آخر سواها. وبعون من إلهامه، ومن خلال ما يربطه بالسيد ديميسديل من صلات لا تنفصم عراها، ليس من حيث ظاهر تلك العلاقة، بل من حيث ما يستنبطه منه ويلحظه أمام عينيه، حتى يدرك ما يدور فى داخله لحظة بلحظة. لن يبقى منذ تلك اللحظة مجرد متفرج فى عالم القس المسكين، بل صارعاملا رئيسا فيه، لقد تمكن من لعب الدور الذى اختار لنفسه. فهل يحرك فيه وخز الألم؟ كانت الضحية دوما فوق أداة العقاب ولن يستدعى الأمر سوى التحكم فى زر تشغيلها.

صار الطبيب يعرفه حق المعرفة! فلا يروعه بهلع مباغت؟ وكما تفعل عصا الساحر، فى استنهاضها الشبح الرهيب، بل فى استنهاض آلاف الأشباح فى صور لا حصر لها، كصورة الانهيار التام أو العار المشين، وكلها تحيط برجل الدين وتشير بأصابعها نحو صدره.

تم كل شيء ببراعة تامة، ورغم أن القس كان يدرك بعض الشيء أن هناك شرا ما يحيط به، فإنه لم يتمكن أبدا من التعرف على طبيعته الأصلية. صحيح أنه كان ينظر فى خشية وخوف، إلى هيئة الطبيب العجوز المعيبة، حتى وصل الأمر به إلى أن يرمقها بكراهية حافلة بالمرارة والرعب. كانت ملامحه وطريقته فى السير، ولحيته وقد اختطها الشيب، وطريقة اختياره ملبسه، وتصرفاته المزرية

الشاذة، كانت كلها قمينة فى عين القس، وإشارة تفيده فى دلالتها، فى أن ما يضمره هذا الأخير فى صدره، كان أعمق مما كان يسمح بأن يبوح به حتى لنفسه. ونظرا لاستحالة تحديد سبب لانعدام الثقة والكراهية تلك، كان السيد ديميسديل يدرك أن السم الذى أصاب مكانا بعينه، قد تفشى فى نياط القلب كله، ولم يرجع إحساسه المسبق هذا إلى أى أسباب أخرى. عنف نفسه بسبب ذلك الإحساس الذى راوده نحو روجر شيلينج وورث، ولم يكترث بالدرس الذى كان يجدر به الاعتداد به، بل عمد إلى استئصال هذا الإحساس من شأفته. ومع أنه كان غير قادر على إنهاء ما يعقد عليه العزم، كمسألة مبدأ، فإنه واصل ما اعتاده من ود متبادل مع العجوز، فأعطى الفرصة تلو الأخرى لتحقيق هدف كرس صاحب الثأر نفسه من أجله، وهو المخلوق الحقير بل الأحقر من ضحيته.

حقق السيد الموقر ديميسديل صيتا كبيرا فى مجاله وهو يعانى وطأة مرضه الجسدى، وعذابه وألمه لما اعترى نفسه من اضطراب، واستسلام لما يدبر له من مكائد من قبل خصمه اللدود. ظفر القس بجزء كبير من هذا الصيت، بسبب ما يتعرض له من معاناة. وقد ظلت مداركه العقلية والسلوكية، وقوة مشاعره فى التواصل مع الناس والتفانى من أجلهم، على حالها، بل زادت بصورة تجل عن الوصف لتسير جنبا إلى جنب مع ما يعانيه بصفة يومية من كرب وضيق.

ولأن صيت القس كان لا يزال فى اتجاهه التصاعدى، فإنه بز أقرانه من رجال الدين الذين كان ينظر إليهم بعين تتجاوزه وقارا،

وبعض هؤلاء من البارزين، ومن العلماء بعد أن أمضوا الأعوام الطوال فى تحصيل المعارف التى تستعصى على التحصيل، وارتبطوا بعلوم العقيدة، وقتا أطول مما عمر السيد ديميسديل، لذلك كان لهم النصيب الأكبر فى تحقيق كل ثمين وراسخ من المنجزات فى مجالهم، بما يفوق ما تحقق على يد القس الشاب. ذلك فضلا عن رجال كانوا أكثر منه وأقوى رجاحة فى العقل، ووهبوا قسطا أوفر من الثبات والرسوخ، وأدراك الحقائق بثبات لا يهتز ولا يلين، امتزج ذلك بقوة بقدر وافر من مقومات العقيدة، التى تتمثل فى طقوس كنسية، عديدة بالغة الأثر، ينظر إليها بعين الاعتبار. هناك أيضا آخرون، كانوا بحق آباء أتقياء، ارتقت قدراتهم الفكرية بسعيهم الدؤوب بين الكتب، والمثابرة على إعمال الفكر، فضلا عن رفعتهم لتواصلهم بالأخيار من رجال الدين، أولئك الذين التزموا العفة فى كفاحهم الدؤوب، وأوشكوا على الاقتداء بتلك الشخصيات المحاطة بالتقديس، التى لا تزال أردية الموت عالقة بهم. كان كل ما ينقص هؤلاء تلك المنة التى هبطت على الحواريين الأخيار، فى عيد الخمسين فى ألسنة من اللهب، لا لترمز كما يبدو إلى قدرة على التحدث بألسنة غريبة، بل لإعلان الأخوة بين بنى البشر بلغة المشاعر القلبية الأم. كان هؤلاء الآباء وهم على هذه الدرجة البابوية، فى حاجة إلى البرهان السماوى الأندر والأخير على أداء رسالتهم الدينية، وهو لسان اللهب. إنهم قد يسرون بالسعى، إن كان السعى هو حلمهم الدائم، للتعبير عن إيمان مطلق عبر الكلمات المعروفة والرؤى

وهى أكثر الوسائل تواضعا. تهبط أصواتهم مبهمة، من مكان بعيد، من الأعالى حيث اعتادوا المقام.

كان سيصبح من الأمور الشاذة، عدم انتماء السيد ديميسديل إلى هذا الصنف الأخير من الرجال، بسبب تعدد سمات شخصيته. فقد يعن له الصعود إلى ذرى مرتفعاتهم المليئة بالتقوى والإيمان، غير آبه بما تكبد من أعباء، من جرم كانت أو من كرب، مترنحا تحت وطأة قدره المشئوم. لقد هوى به مع الهاوين، هو الذى يحظى بتلك الملكات السامية، فضلا عن أن الملائكة كانت تستمع إليه بل وتردد معه! لكنهما بهذه الصفة، قدم له وبقوة، المشاركة اللصيقة مع إخوانه الآثمين من بنى البشر، فيما يلقون من آلام، ليبعث بالتالى بنبض آلامه عبر آلاف من قلوب أخرى بأنين الأسى ولسان الصدق.

بلسان بليغ مقنع فى أحيان كثيرة ودافع إلى الهلع أحيانا! ما كان للناس أن يدركوا القوة التى تحركهم فى هذا الاتجاه. اعتبروا القس معجزة من السماء. وتخيلوه لسانها فى تبليغهم الحكمة وعبارات المحبة والزجر. فالأرض التى يطؤها بقدميه، مقدسة فى أعينهم. تحلقت من حوله عذراوات الكنيسة، وهن شاحبات الوجه، وضحايا مشاعر الحب، التى اصطبغت كلية بالمشاعر الدينية، حتى إنهم تصوروها دينية خالصة، فأخرجوها من قلوبهم الطاهرة علانية، وهم يقدمونها قربانا، رجح قبوله، أمام مذبح الكنيسة. أما أعضاء جماعته من كبار السن، وهم يرون جسد السيد ديميسديل آخذا فى النحول فى الوقت الذى عصف المرض بهم، اعتقدوا أنه قد يصعد إلى السماء

قبلهم، فأوصوا أبناءهم بأنه يجدر بهم أن يواروا عظامهم النخرة، بالقرب من القبر المقدس الذى يضم رفات راهبهم الشاب. تصادف خلال تلك الفترة، أن كان السيد ديميسديل يفكر فى قبر له، فسأل نفسه حول إمكانية زرع بعض الكلأ فوقه، لأن شيئا أصابته اللعنة لابد أن يوارى معه.

كان لا يطيق ذلك العذاب جراء تقديس الناس له. فقد كان دافعه الحقيقى عبادة الحق، واعتبار ما عدا ذلك من أشياء أشبه بالعدم، بعد أن خلت الحياة تماما فى نظره من أى مضمون، لأنها لم تكن تحمل فى طياتها جوهر العبادة. فمن عساه يكون إذن؟ أمن مادة هو؟ أم من أكثر الظلال حلوكة؟ لقد ظل يتحدث من منبره على الملأ، وبأعلى صوت له، فيخبر الناس عن نفسه بقوله: "ها أنذا يا من ترونى فى ثياب الرهبنة السوداء، إننى ذلك الذى اعتلى المنبر المقدس، ويمم وجهه الشاحب شطر السماوات العلى، ملزما نفسه بالأصالة عنكم، بتناول العشاء الربانى، مع رب العالمين، أنا هو من تطالعون فيه كل يوم قداسة أينوخ، أنا من تظنون أن خطاى، تخلف وراءها نورا على دربى فى الدنيا، سوف يستضىء به الحجاج السائرين خلفى وأنا أهديهم إلى الأراضى المقدسة، أنا من وضع يد المعمودية على أبنائكم، ونطق بصلاة الوداع على من رحل من أصدقائكم، من استجيب له بآمين من العالم الذى رحلوا عنه، أنا راهبكم الذى توقرون وتمنحون ثقتكم، لست إلا كاذبا ضالا.

كان السيد ديميسديل يكرر تلك العبارات كل مرة يعتلى فيها المنبر، وليس له من هدف، قبل النزول منه إلا تكرار عبارات كتلك. وكان يتوقف مرات عديدة، بزفرة عميقة طويلة متقطعة فيها اختلاج، يخشى فى خروجها ألاّ تحمل معها شيئا سوى سره الدفين. كان يتحدث إلى الناس مئات المرات! مخاطبا إياهم، ولكن على أى نحو؟ يخبرهم عن ضلوعه فى الوضاعة من كل الوجوه، وأنه رفيق أحقر من فى الأرض، وأنه أسوأ الخاطئين، والمقيت الآثم بما يجل عن الوصف، وكان الشىء الوحيد الذى يثير الاستغراب، أنهم لم يروا جسده الهزيل ذاو أمام أعينهم، من غضب الله االشديد! ولكن هل كان هناك تبيان أوضح من هذا الحديث؟ أينهض الآن الناس جميعا من مقاعدهم، بدافع الغضب والحنق، ويأخذون بتلابيبه وينزلونه من على المنبر الذى اعتلاه؟ إن هذا فى الحقيقة لم يحدث!؛ لأنهم استمعوا إلى ما قاله حتى النهاية، ثم زادوه وقارا ووقارا! كل ما فعلوه أنهم حزروا قليلا فى المعنى الرهيب الذى انطوت عليه عبارات جلد الذات تلك. قالوا لبعضهم البعض: "الشاب الورع! القديس على الأرض! وا أسفا، لو كان يرى إثما بهذا الشكل يصيب روحه الطاهرة، فأى مشهد مريع، ذلك الذى قد يراه بى أو بك!"، كان القس بمكره وتظاهره بالندم، يعرف جيدا النحو الذى سيفسر على أساسه اعترافه الغامض، فقد دأب على خداع نفسه بالإقرار بضمير آثم، ولكنه لم يكتسب بذلك سوى خطيئة جديدة وعار لا يعرفه سواه، ودون أن يلتقط أنفاسه من خداع نفسه مرة تلو المرة. لقد قال الحق الذى لا مرية فيه، ثم حوله

إلى زيف لا يحتمله الشك. إنه أيضا كان محبا للحق، لأنه من طباعه، ويكره الكذب. ومع ذلك وقبل كل شيء، كان يكره نفسه البائسة.

قادته روحه القلقة إلى القيام ببعض الممارسات، يميل بها إلى مسايرة ما سبق في روما من إيمان فاسد، أكثر من مسايرته النور البازغ للكنيسة، والذى نشأ فى هديه وترعرع. كان السيد ديميسديل السرى يوقع بنفسه عقابا رهيبا فى مختلاه السرى المغلق بالقفل والمفتاح. كان غالبا ما يأخذ على عاتقه تطبيق معتقدات البروتستانت والبيوريتان، بطريقة تهكمية مريرة، محقرا ذاته دون هوادة أو رحمة، على ما بدر منها من تهكم وسخرية. كان الصيام أيضا من طقوسه، كما هو طقس الآخرين من البيوريتان الأتقياء، وفى ذلك طهارة للبدن، وجعله الوسيلة الأكثر تلاؤمًا لتلقي النور السماوى، ولكنه كان يحمل نفسه ما لا تطيق، إلى أن تصاب ركبتاه برعدة، معتبرا أن ذلك فيه تكفير للذنوب.

كما ألزم نفسه بقيام الليل، يقضى الليلة تلو الليلة، بين ظلام دامس أحيانا وفى ضوء خافت أحيانا أخرى، وفى بعضها يطالع وجهه فى المرآة، مركزا ضوء المصباح عليه كى يراه فى أوضح صورة. وهو فى هذا يطبق طريقة الاستبطان المتواصل لأفكاره ومشاعره، ومنها يكون عذابه لذاته، ولكنه على هذا النحو لن يطهر ذاته من ذنوبها. ومع طول قيامه الليل، كان عقله غالبا ما يحدث به اضطرابا، فتتحرك الأخيلة أمامه، وقد يزايله شك فى رؤيته لها، وذلك مع ما يصدر عنها من ضوء خابى، بعيدة عنه فى عتمة الغرفة

المنعزلة، أو بجواره فى الضوء المكثف الذى تصدره المرآة العاكسة. تبتسم عصبة من الصور الشيطانية ملء أشداقها وتسخر من القس الضعيف، وتشير إليه باصطحابها، ثم تتحول فى لحظة إلى جماعة من الملائكة النورانية، متاقلة فى صعودها إلى السماء، مكبلة بالأحزان، ولكن أحمالها كانت تخف كلما تسامقت فى الصعود، وها هم أصدقاؤه الراحلون فى سن الشباب قد وفدوا إليه، ووفد أبوه ذو اللحية الشهباء، مقطبا جبينه كالقديسين، وأمه التى تشيح بوجهها وهى مارة به. وأظن أن طيف الأم، ويا له من طيف رقيق، كان ينبغى فى لحظة كتلك أن يحمل لابنها نظرة حانية.

وعبر هذه الغرفة التى جعلتها هذه الرؤى الواردة مكانا يعج بالأشباح، ها هى هيستير براين وقد انسلت إليها كطيف، تتبع قيادها الصغيرة بيرل، بردائها القرمزى، فتشير فى البداية بسبابتها إلى الحرف القرمزى الذى تحمله على صدرها، ثم بعد ذلك تشير إلى صدر القس نفسه.

لم ينخدع أبدا بأى من تلك الطيوف. فقد كان بإرادته وفى أية لحظة، يمكنه إدراك ماهيتها، وافتقاد الهيولية فيها العنصر المادى، يلى ذلك إقناع نفسه بأنها، خلت من عنصر الصلابة، كتلك المائدة المنحوتة من خشب البلوط أو ذلك المجلد الدينى الضخم، مربع الشكل، وله مقبض من النحاس ومغلف بالجلد.

ولكنها ومن أجل ذلك كله، كانت هذه تعد أكثر الأشياء التى تعامل معها رجل الدين المسكين واقعية. إنها مأساة لا توصف لحياة ملؤها الزيف كحياته، لأنها تستولى على لب وثمرة كل ما يحيط بنا من حقائق والتى قصدت السماء بها بث البهجة فى نفس البشرية.

كان العالم فى نظر رجل واهم هو الزيف، كونه لا يدرك بالحواس، وأنه يتناهى فى قبضته إلى عدم. ويصبح هو نفسه بعد ذلك شبحا، لا وجود له على الإطلاق، حين يظهر نفسه فى الضوء الخادع للنظر. كانت الحقيقة الوحيدة إلى تثبت وجود السيد ديميسديل الحقيقى على هذه الأرض، ذلك العذاب الذى يحس به فى أعماقه، وما يتظاهر به مرتسما على وجهه فى تلك التعبيرات. فإن واتته مرة قدرة على الابتسام، وظهرت أسارير البهجة على وجهه، فلن يكون بحال هو نفس الرجل.

فى إحدى تلك الليالى الكئيبة، التى أشرنا إليها إشارة عابرة، والتى سوف نعاود تفصيلها الآن نهض القس من مقعده. طرأت فى رأسه فكرة جديدة. ربما كانت تحمل فى طياتها فرصة لإشعاره بالطمأنينة. هبط درج السلم بهدوء، آخذا نفسه بأسباب الحيطة والحذر. وكأنه ذاهب إلى صلاة جماعية، ثم انطلق خارجا من البيت.

١٢

قيام ليل القس

وصل القس إلى المكان الذى كانت هيستير قد أمضت فوقه أول ساعة لها فى مشهد عرض العار أمام الناس، سائرا فيما يشبه الحلم، تحت تأثير ما يعرف بالسير أثناء النوم. ظلت نفس السارية أو المنصة منتصبة مكانها فى مواجهة شرفة المصلى، وقد بدت ظاهرة فيها عوامل الطقس بتعرضها لأشعة الشمس أو للريح العاتية، طوال سبع سنوات مضت، فأكلحتها، وأتلف قاعدتها خطى العديد من المجرمين، الذين اعتلوها من قبل.

كانت إحدى ليالى أوائل مايو الموحشة؛ حيث ضرب سماءها ضباب كثيف من القمة حتى خط الأفق. وإذا قدر للحشد الذى وقفوا من قبل شهودا على تلقى هيستير براين عقوبتها، الاحتشاد الآن، فلن يجدوا أثرا لأحد فوق السارية، ولن يحددوا طيف امرئ فى دجنة الليلة الكثيفة. فالمدينة كلها كانت ترقد فى سبات. لم تكن هناك خشية من تعرض أحد للأنظار. يمكن للقس أن يقف هناك ما يشاء له الوقوف، حتى ينبلج ضوء النهار من الشرق، دون التعرض لخطر ما، سوى سريان برودة هواء الليل والرطوبة إلى جسده. فتتيبس أطرافه من داء المفاصل وينسد حلقه من النزلة الشعبية والسعال، وبذلك يحرم من لقيا من يتوقعوا حضوره صلاة الغد وإلقائه الخطبة

الدينية. لن تقع عليه عين امرئ، خلا عينى واحدة لا تغفل عنه، وتراه فى مختلاه، حين يوقع بنفسه العقاب الدامي. فما الذى جاء به إلى هنا، إذن؟ التكفيرعن ذنبه بما يدعو إلى السخرية؟، سخرية لا تزيد عن كونها الحط من قدر نفسه! سخرية بكت منها الملائكة ووجلت، وابتهجت بها الشياطين بضحكها المجلجل! دفع به إلى هنا، إحساس بالندم، طارده فى كل مكان، وأن شقيقة هذا الدافع ورفيقة دربه السيدة "جبانة"، تلك التى تلح عليه فى التراجع عن القدوم إلى هذا المكان بقبضتها المرتعشة، فى الوقت الذى كان الآخر يدفع به إلى شفير انكشاف أمره. يا له من رجل مسكين تعس! أى حق هذا الذى يجعل علة كعلته تحمل عنه ارتكاب الحماقة؟.

حماقة يتجاسر على ارتكابها من هم أهل لها، وخيارهم إما تحمل أعبائها، أو التعرض لضغط نفسى شديد، يجعلهم يخرجون ما بدواخلهم من شراسة وجموح لتحقيق أهداف نبيلة، فيتخلصون على الفور من أدرانها! لن تقوى الأنفس التى تتسم بالانفعال الشديد والضعف على الإقدام على اختيار أى من هذين الاحتمالين، لأنها وهى واقعة فى شرك لا فكاك منه بين هذا وذاك، تعانى عذاب إثم الخروج عن طاعة الله، والتوبة غير النصوح.

بينما كان يقف فوق السارية على هذا النحو، فى عرض مصطنع للتكفير عن ذنبه، انتابت السيد ديميسديل حالة فزع ذهانى رهيبة، وكأن أناسا يحملقون فى العلامة القرمزية فوق صدره العارى، والتى تأتى مباشرة فوق قلبه. وتوخيا للصدق، فإنه عانى فى

هذا الموضع ولفترة طويلة، ألما ضاريا، ينهش لحمه. صدرت عنه صرخة مدوية دون إرادة منه أو قوة من جانبه لكبحها، دوت الصرخة فى الليل الساكن، فتردد صداها من بيت إلى بيت، ورجع صداها من التلال المجاورة، وكان جماعة من الشياطين وهى تستبين ما فيها من رعب بالغ وشقاء، طفقت تتلاعب بالصوت وتتقاذفه جيئة وذهابا.

دمدم القس، مواريا وجهه بيديه: "ها أنا قد فعلتها، ها هى المدينة كلها بسبيلها الآن إلى اليقظة، والخروج والعثور على فى هذا المكان".

لكن ذلك لم يتحقق له. ربما دوت الصرخة فى أذنيه الموتورتين بما يفوق قوتها الحقيقية. لكنها لم تستنهض أهل المدينة من سباتهم، ولو كان ذلك قد حدث، فإن السادرين فى سباتهم يكونون قد أخطأوا المقصود بها، إن كانت كابوسا مزعجا أو جلبة من الساحرات التى كانت تسمع عابرة المستوطنات، أو الأكواخ المنعزلة، وهن فى ركب الشيطان عبر الفضاء. لذلك رفع رجل الدين يديه عن عينيه، ونظر حوله، فلم يصل إلى سمعه أثر لحدوث جلبة. من نافذة إحدى الغرف فى مقر الحاكم بيللينجهام، الذى يقع على مسافة قصيرة، على الناحية الأخرى من الطريق، ظهر الحاكم بنفسه وفى يده قنديل، وعلى رأسه قلنسوة المساء بيضاء اللون، يلف جسده معطف أبيض. بدا كشبح خارج من القبر لتوه، ويبدو أن الصرخة قد دوت على غفلة منه فروعته.

كما ظهرت من إحدى النوافذ الأخرى للبيت السيدة العجوز هيبينز، أخت الحاكم، وبيدها قنديل هى الأخرى، كشف على البعد عن قسمات وجهها العبوس وقد شابه القلق. أطلت برأسها من النافذة، ثم نظرت إلى أعلى والقلق يؤرقها. انتاب سيدة كتلك الساحرة الوقور ظل من شك، بعد أن سمعت صرخة السيد ديميسديل، فأولتها طبقا لعدد رجع صداها، على أنها من صخب الشياطين وجنيات الليل، والمعروف عنها أنها تصحبهم فى رحلات داخل الغابة.

أطفأت العجوز مصباحها بسرعة واختفت، بعد أن اكتشفت ضوء قنديل الحاكم بيللنجهام. ربما بعد ذلك تكون قد صعدت ما بين الضباب. ذلك لأن القس لم ير سوى تحركاتها. تراجع الحاكم من النافذة، بعد أن أجرى فى الظلام نظرة تفقدية، رغم أنه لن يكن ليميز قدر ما يميزه داخل رحاة.

رنا على القس هدوء نسبى. احتفت عيناه ببصيص ضوء، يدنو من مقدم الشارع بعد أن كان بعيدا فى أول الأمر. جاء مصدر الضوء بإشارة تميز مكتب البريد فى اتجاه معين وسور الحديقة من جهة أخرى، ونافذة زجاجية مغلقة بالشيش فى ناحية ثالثة وطلمبة للمياه هناك، مزودة بحوض معبأ بالمياه، وهناك أيضا باب مقوس من البلوط، مزود بمطرقة من الحديد، وألواح خشبية هى الدرج المؤدى للباب. تابع السيد الموقر ديميسديل هذه المرؤيات السريعة، حتى بعد أن اقتنع تماما بأن قدره البائس قادما نحوه يتسلل فى خطوات وصل سمعها إلى أذنيه الآن، وأن ضوء المصباح بسبيله إلى السقوط فوقه،

فى اللحظات القادمة، ليكشف عن السر الذى طالما احتفظ به. حين اقترب الضوء أكثر، رأى من خلال هالته أخاه رجل الدين، وأباه بحكم المهنة تحديدا، فضلا عن كونه صديقه المقرب إليه، السيد الموقر ويلسون، وقد كان كما ظن السيد ديميسديل، يصلى بجانب فراش أحد الراحلين. وفد القس الكبير الطيب للتو من غرفة احتضار الحاكم وينثروب، الذى رحل من الأرض إلى السماء فى هذه الساعة. وهو الآن كباقى الراحلين الأخيار من رفاقه القدامى، محاط بهالة من نور، تضىء له حلوكة هذه الليلة الآثمة، وكأن الحاكم الراحل قد خلف وراءه إرثا من مجده، أو كأنه اقتطع لنفسه ضياء المدينة العلوية البعيد، ناظرا إلى العلى ليرى الحاج المكلل بالنصر مارا من أبوابها، لم يتعد الأمر سوى أن السيد ويلسون كان فى طريقه إلى بيته بأعلى التل، يقود خطاه قنديل مضاء. أوحى الضوء العادى للقنديل للسيد ديميسديل بالأفكار التى تغشاه وذكرناها آنفا، فظهرت على شفتيه ابتسامة، لا، بل كاد يضحك من تلك الأفكار، ثم شك فى احتمال بلوغه حد الجنون.

حين مر السيد الموقر ويلسون بالقرب من المنصة، لفع حول جسده عباءة الكهنة بإحدى ذراعيه، وأمسك بالقنديل وجعله بحذاء صدره بالذراع الأخرى، لم يستطع القس منع نفسه من الكلام.

"مساء الخير أيها الأب الموقر ويلسون!، أرجو أن تصعد هنا، وتقضى معى لحظة مسرة".

يا للسماء! هل تكلم السيد ديميسديل بالفعل؟ اعتقد لوهلة أن هذه الكلمات قد مرت من بين شفتيه، ولكن لم ينبس بها إلا خياله. واصل الأب الموقر ويلسون تقدمه ببطء، متفحصا الطريق الموحلة أمامه حيث خطا ولم يلتفت قط نحو السارية الوضيعة. حين خبا ضوء المصباح شيئا فشيئا، اكتشف القس وقد أصابه الإعياء، أن الدقائق القليلة التى مرت كانت محض أزمة نفسية حادة، مع أن عقله هو الذى يسرى عنه بشىء من لهو خفى حافل بالإثارة.

تلا ذلك مباشرة، معاودة إحساس طاغ بالجنوح إلى التفكه، منسل بين مثاليات فكر وقور. شعر بأن أطرافه بسبيلها إلى التيبس، ببرودة الليل التى لم يعتدها، وخامره شك فى تمكنه من هبوط درج السارية. سينبلج الصبح، كاشفا عن وجوده. وسيبدأ أهل المنطقة فى إيقاظ بعضهم البعض. وسيخرج أول الناهضين مع أول خيوط النهار، فيبين لهم شبحا خفيا بأعلى سارية الخزى، وسيذهب كالمجنون ما بين حذر وهلع، طارقا بابا بعد باب، داعيا الجميع حسبما يطرأ بباله، لرؤية شبح أحد من قضوا نحبهم من المجرمين فوق السارية. وستفرد جلبة العتمة أشرعتها من بيت لبيت. وحين يزداد ضوء النهار انبلاجا، ينهض رجال الدين من الشيوخ مسرعين، كل بثوبه الداخلى، ولن تتأنى الراهبات الكبيرات فى خلع ملابس النوم. وسيعتبر الجميع أن ظهور كل الشخصيات الموقرة، فى هذه الساعة، أولئك الذين لم يسبق أن ظهرت شعرة واحدة من خوافض رؤوسهم، ما هو إلا مقدمة لكابوس مزعج.

وسوف يحضر الحاكم العجوز بيللنجهام، والعبوس باد على وجهه، بالياقة المكشكشة كطوق مائل فى رقبته، من طراز الملك جيمس، وبصحبته السيدة هيبينز، التى علقت بعض غصينات من الغابة على حواشى ثوبها السفلية، وقد ازدادت على وجهها علامات النكد عن ذى قبل؛ حيث كان من الصعب حصولها على قسط وافر من النوم بسبب جولتها بالليل، ويأتى السيد ويلسون أيضا بعد قضاء نصف ليلته بجوار فراش المحتضر، وهو الذى لا يحب أن يقلقه أحد هكذا مبكرا من أحلامه بالقديسين الأبرار. وفضلا عن كل هؤلاء قد يفد كبار وشمامسة كنيسة السيد ديميسديل، والأبكار الشابات اللائى يضعونه من السمو فى منزلة رفيعة، بعد أن صنعن له محرابا فى صدورهن وأنهن لم يجدن ما يكفى من وقت عبر ما يحدث من جلبة واضطراب لتغطيتها بأربطة العنق. فى عبارة واحدة، سيأتى كل الناس على عجل من فوق عتبات بيوتهم، وييممون وجوههم وقد لفها الذعر والدهشة صوب السارية، فمن ترى ستقع أعينهم عليه والضوء الأحمر القادم من الشرق على جبينه؟ من سيكون سوى الموقر آرثر ديميسديل، وقد تجمد حتى الموت، وأحاط به العار من كل جانب، وها هو يقف حيث وقفت هيستير براين!!.

انطلق القس بغتة، إحساسا منه بخطر محدق به فى ضحكات مدوية، بعد أن غشى مشاعره ما ارتسمته هذه الصورة من هلع. جاء الرد عليها فى الحال بضحكات طفولية رشيقة رقيقة، أحس منها

برجفة فى قلبه، لكنه لم يميز إن كانت من وخز ألم هى أم من فرط مسرة، وذلك بعد أن ميز سمعه نبرات صوت الطفلة بيرل.

هتف: "بيرل، بيرل"، ثم توقف لحظة وقال بصوت مكتوم: "هيستير، هيستير براين، أأنت تلك التى هناك؟".

ردت بنبرة تحمل الاستغراب، وقد سمع القس خطواتها قادمة من منعطف الطريق وحيث كانت متوجهة: "نعم هذه هيستير براين، هى أنا ومعى طفلتى بيرل".

سأل القس: "فيم قدومك، إذا يا هيستير؟ وماذا أتى بك إلى هنا؟"

أجابت هيستير براين: "كنت ساهرة أمام فراش أحد المحتضرين، الحاكم وينثروب، لأجرى قياسا لعمل رداء منية له، وأنا بسبيلى إلى صعود الطريق المؤدية إلى بيتى".

قال السيد الموقر ديميسديل: "اصعدى إلى هنا يا هيستير أنت والصغيرة بيرل، لطالما كنتما هنا من قبل، ولم أكن برفقتكما. عاودا الصعود وسنقف ثلاثتنا معا".

صعدت الدرج فى صمت، ووقفت فوق السارية ممسكة بيرل. تحسس القس ذراع بيرل الأخرى ثم أمسك بها. طرأ فى اللحظة التى فعل فيها ذلك، تدفق مختلج لحياة جديدة، حياة أخرى تختلف وتجاوز تلك التى يحياها، ينهمر فى قلبه كالسيل، ويتسارع دفقه فى شرايينه،

وكأن الأم والابنة يقومان بمد جسده الذى خمل نصفه بما يلزمه من طاقة. ليشكل ثلاثتهم دائرة كهربية.

همست الطفلة بيرل: "إنه القس!".

سألها السيد ديميسديل: "ما رأيك يا ابنتى"؟.

استفسرت بيرل: "أتقف معى وأمى هنا ظهيرة الغد".

أجاب القس، لأنه مع دفء اللحظة الطارئ، عاوده كل ما فى مشهد العار من رعب، ظل يعذبه لفترة طويلة، وكان يرتعد بالفعل من الرابطة التى وجد نفسه الآن أحد أطرافها رغم ما طرأ فيها من إحساس بالبهجة: "كلا، ليس الأمر على هذا النحو يا صغيرتى بيرل، ليس على هذا النحو يا ابنتى إننى سأقف معكما بالفعل، أنت وأمك، يوما آخر، ولكن ليس فى الغد".

ضحكت بيرل منه، وحاولت أن تجذب يدها. لكن القس ما لبث أن أسرع بالإمساك بها.

قال لها: "مزيد من الوقت يا ابنتى!".

سألته بيرل: "لكن عليك أن تعدنى، بأن تمسك بيدى ويد أمى، ظهيرة الغد".

قال القس: "كلا يا بيرل. ولكن فى وقت آخر".

ألحت الطفلة: "أى وقت آخر؟".

همس القس، وكان ما يثير الغرابة، إحساسه بكونه أستاذا ضليعا فى مهنته، قد أجبره على إجابة الطفلة على هذا النحو: "لابد أن يقف ثلاثتنا معا أنا وأنت وأمك فى الزمان والمكان المحددين أمام كرسى العدالة، يوم الحساب العظيم! لكن نهارا فى هذا العالم لن يشهد لقاءنا". عاودت بيرل الضحك.

ولكن قبل أن يشرع السيد ديميسديل فى الحديث، ومض ضوء من بعيد وسع السماء الملبدة بالغمام. كان ولا شك من أحد الشهب، تلك التى يراها طوارق الليل تومض محترقة حتى تخبو، فى الفضاء الفسيح. كان نوره من القوة بحيث غطى بضيائه لبدة السحب الكثيفة التى تشغل الأفق ما بين السماء والأرض. برقت بالنور قبة الفضاء الفسيح، كقبيبة مصباح ضخم. فكشفت عن صورة الشارع المألوفة، بمعالمها الواضحة فى منتصف النهار، وبنفس الهيئة المنفرة التى رانت على الموجودات المألوفة بضوء لم تألفه. بدا كل ما فيها ظاهرا فى الضوء، البيوت الخشبية بطوابقها البارزة، وحواف جمالوناتها العجيبة، ودرج الأبواب وأعتابها، والعشب النامى من حولها والموغل فى القدم، وقطع الحدائق الصغيرة، وقد اسودت بعد تحول تربتها وقد حفتها الخضرة من كل جانب، كلها ظهرت ولكن بشكل مميز بدا أنه يمنح مفهوما أخلاقيا آخر لهذا العالم لم يسبق له أن حمله من قبل. هناك وقف القس ويده على قلبه، وهيستير براين والحرف المطرز يلمع على صدرها، والطفلة بيرل، وهى ذاتها الرمز، والرابطة التى تجمع الاثنين. وقفوا فى ألق ذلك النور المهيب والعجيب، وكأنه

الضوء الكاشف عن كل الأسرار، والفجر الذى سوف يوحد أولئك الذين ينتمى كل منهم إلى الآخر.

كانت الساحرة فى عينى الطفلة بيرل، على وجهها وقد التمعتا حين رفعت رأسها نحو القس، وعلى هذا الوجه ابتسامة تحمل سوء الطبع مما جعل الجنى الصغير يكتسى تعبيرات وجهها. سحبت يدها من يد السيد ديميسديل، وأشارت نحو الشارع لكنه كان قد أطبق كلتا يديه على صدره، وألقى ببصره نحو الأفق.

لم يكن فى تلك الأيام ما هو أكثر شيوعا من تأويل كل ما يظهر من شهب أو يحدث من ظواهر طبيعية أخرى، أقل انتظاما من ظهور وأفول الشمس والقمر، وحيث تكشف خوارق الطبيعة عن مصادرها. وهكذا كانت رؤية رمح يشتعل، أو سيف من اللهب أو قوس أو جعبة سهام، تظهر فى السماء فى منتصف الليل، إلا وتتبئ بحرب مع الهنود. وكانت وسيلة الوقاية من الطاعون، وابلا من الضوء القرمزى. ونشك إن كان هناك حادث بعينه، شرا كان أم خيرا، قد سبق وقوعه فى نيو إنجلاند، منذ عهد الاستيطان حتى أزمنة الثورة، لم يصل عنه للأهالى إنذار مسبق من قبل مشاهد من هذا القبيل. ولم تندر رؤية تلك المشاهد من قبل جماعات من الناس. لذلك كانت صحة رؤيتها تقع على صدق بعض من رأوا هذه المشاهد وحدهم، لأنهم فحسب من رأوا الخارقة بأخيلتهم التى تضخم الأمور وتحرفها، ويصورها بعد ذلك فى ذهنه بحيث لا تحتمل الشك. كانت الفكرة تحاط فعلا بالمهابة، حتى صار ينبغى الكشف عن مصائر

الأمم، بتلك الهيروغليفية المخيفة على صفحة السماء. فلفيفة البردى على سعتها، لا تعتبرها السماء بهذا القدر من السعة لتسجل عليها أقدار البشر. كان هذا المعتقد يستهوى أجدادنا الأوائل، كإشارة إلى أن وحدة مصالح أبنائهم برعاية السماء تكمن فى التواد الخالص والالتزام، ولكن ماذا يجدر بنا أن نقول حين يكشف شخص عن أحد تلك المشاهد فينفرد بمخاطبة نفسه على نفس صفحة السجل الرحبة! فى حالة كتلك لن يعدو الأمر إلا أن يفسر على أنه عرض من أعراض اضطراب عقلى، حين يتمادى غرور إنسان غارق فى تأملاته، بسبب مرض لا يعرف به أحد، ظل يعانى منه فترة طويلة، فوصل به إلى مجال الطبيعة الرحب، حيث كان يجدر ألا تظهر قبة السماء بعد ذلك إلا على هيئة صفحة مطابقة لتاريخ حياته وقدره.

إننا نرجع ذلك إلى مرض أصاب عين الرائى بالـذات وقلبه، لا شىء غير ذلك فالقس وقد رفع بصره نحو الأفق، رأى حرفا ضخما، هو حرف A الكبير تحده خطوط من ضوء أحمر باهت، وليس ذلك سوى الشهاب، الذى أضاء تلك البقعة باحتراقه فى الظلام، عبر حجاب كثيف من السحب، ولم يكن على تلك الصورة التى قدمها له خياله الآثم، أو بقدر الاتضاح القليل الذى قد يرى فيه إثما آخر، رمزا آخر.

ظهرت فى نفس اللحظة واقعة أخرى شخصت حالة السيد ديميسديل النفسية. فمع أنه كان يتطلع إلى الأفق، فإنه كان طوال هذا الوقت يعى تماما أن الصغيرة بيرل كانت تشير بإصبعها نحو العجوز

روجر تشيلينج وورث الذى كان يقف على مقربة من السارية. لقد ظهر أن القس يراه بنفس النظرة التى كان يرى بها الحرف المميز. أضفى ضوء الشهاب على قسمات وجهه تعبيرات جديدة كالتى أضفاها على الموجودات الأخرى، أو ربما لم يكن الطبيب يحرص كما هو حاله فى المرات السابقة، على مداراة الحقد الذى كان ينظر به إلى ضحيته. ومن المؤكد أن الشهاب إذا كان قد أضاء السماء، وكشف عن وجه الأرض، على نحو من الرهبة أدهش رجل يوم الحساب كما أدهش هيستير براين، فإن روجر شيلينج وورث سيدخل معهما إلى إبليس، ليقف أمامه وعلى وجهه إشارة السخرية والعبوس، مطالبا بنصيبه.

كان هذا التعبير من القوة، ومن إدراك القس له، ما جعله يبدو محتفظا بنفس قوته فى الظلمة، حتى بعد أن اختفى الشهاب، وخلف وراءه أثرا يوحى بأن الشارع وموجوداته قد تلاشوا جميعا.

قال القس لاهثا لإحساسه بالرعب: "من يكون هذا الرجل، يا هيستير؟ إننى اقشعر منه! أتعرفين هذا الرجل؟ إننى أمقته، هيستير!".

تذكرت قسمها، فلزمت الصمت.

دمدم القس مرة ثانية: "أقول لك إن نفسى تقشعر منه! فمن يكون؟ من يكون؟ ألا يمكنك أن تفعلى شيئا من أجلى؟ بى رعب منه يتعذر وصفه؟".

قالت الطفلة بيرل: "أيمكننى إبلاغك عنه أيها القس؟".

قال القس وهو يحنى أذنه نحو شفتيها: "بسرعة، إذا، يا ابنتى، بسرعة، وبأقل صوت يمكنك الهمس به".

غمغمت بيرل بشىء ما فى أذنه، بدا فيه بالفعل ما يتخاطب به البشر، لكنه كان كثغاء الأطفال، يسمع منهم ساعة لهوهم. وإذا كان هذا فى كل الأحوال يحمل معلومة سرية بشأن روجر شيلينج وورث، فقد ورد بلغة مجهولة لرجل الدين واسع الاطلاع ولم يفعل سوى أن أربك عقله. صدر عن الطفلة الجنى ضحكة عالية.

قال القس:" أتسخرين منى الآن؟ ".

قالت له الطفلة: "أنت لست شجاعا! ولست صادقا. لأنك لم تعدنى بتماسك ثلاثتنا أنا وأنت وأمى ظهيرة الغد".

قال الطبيب وكان بعد أن وصل إلى أسفل السارية: "السيد المحترم، السيد الورع ديميسديل! أصحيح أن هذا هو أنت؟ غريب، حقا! فنحن رجال العلم، من وضعوا رؤوسهم فى كتبهم، نحتاج إلى رعاية شديدة. نحلم فى يقظتنا ونسير فى رقادنا فتعال، سيدى الطيب وصديقى العزيز، دعنى من فضلك أصحبك إلى البيت".

سأل القس فزعا: "كيف علمت أننى هنا؟".

أجابه روجر شيلينج وورث: "فى الواقع وبكل أمانة، لم أكن أعرف شيئا فى هذا الشأن، لأننى قضيت الجزء الأكبر من الليل بجوار فراش الحاكم الموقر وينثروب، باذلا خبرتى المتواضعة فى جلب السكينة له. فقد كان راحلا إلى عالم أفضل، فضلا عن أننى

كنت فى طريقى إلى البيت، حتى حدث هذا الضوء الغريب. إننى أرجوك أيها السيد الموقر أن تأتى معى، فإن لم تفعل، فإنك لن تتمكن من القيام بواجبك غدا الأحد. آها، لاحظ الآن، كيف تربك العقل هذه الكتب! هذه الكتب! يجب أن تقلل من القراءة، سيدى الطيب، وأن تحصل على قسط قليل من الراحة، وإلا فإن هذه الأفعال الغريبة ستكون بسبيلها إلى القضاء عليك".

قال السيد ديميسديل: "سأذهب إلى البيت معك".

استسلم للطبيب وتم اقتياده، مثبط الهمة، كمن يصحو وقد تخدرت أعصابه من حلم فظيع.

ولكون اليوم التالى يوم أحد، فقد ألقى خطبة دينية، اعتبرت الأكثر زخما وقوة والأكثر تضمنا للمفاهيم الروحية، من بين كل ما نطقت به شفتيه من قبل. يقال إن الناس جميعا وليسوا فرادى، قد رد إليهم وعيهم بالحق، بفعل تلك الموعظة، وأقسموا فيما بينهم على الحفاظ على العرفان المقدس نحو السيد ديميسديل من الآن فصاعدا. لكنه ما إن نزل من فوق درج المنبر، حتى التقاه راعى الكنيسة، أشيب اللحية، وفى يده قفاز أسود، عرف القس أنه له.

قال راعى الكنيسة: "لقد عثر عليه هذا الصباح فوق السارية، حيث يقف الأشرار أمام العيان موقف العار. ألقى به الشيطان هناك، وأفهم من ذلك أنه ما قصد بذلك إلا أن يرمى نيافتك بطرفة سخيفة.

ولكـــنه فى الواقع كان أحمقا وأعمى، كما هو حاله دائما. فيد طاهرة لا تحتاج إلى قفاز يغطيها".

قال القس بتؤدة ووقار، لكن الفزع قد نال من قلبه، فالذاكرة مضطربة، وأنه كاد أن يقنع نفسه بأن أحداث الليلة الماضية لم تكن إلا حلما: "شكرا لك، صديقى الطبيب. بلى يبدو فى الواقع أنه قفازى!".

أشار الراعى العجوز، وعلى وجهه ابتسامة منكرة بقوله: "ولما رأى الشيطان أنه أعد العدة لسرقته، فإنه يجدر بك يا صاحب الوقار من الآن فصاعدا أن تنال منه دون قفازات، ولكن هل سمع نيافتك بالنذير الذى شوهد ليلة أمس؟ حرف أحمر هائل فى السماء، الحرفA، وقد أولناه بأنه يرمز إلى أحد الملائكة. لأنه حين تحول حاكمنا الطيب وينثروب إلى ملاك، فى الليلة الفائتة، فلا شك فى أن ذلك يتفق وحدثا بسبيله للوقوع".

رد القس: "لم أعلم عن ذلك شيئا".

١٣

صورة أخرى من هيستير براين

أصيبت هيستير براين بصدمة، بعد لقائها الأخير والغريب بالسيد ديميسديل بسبب الوضع الذى تدنى إليه رجل الدين. بعد أن ثبت يقينا تدهور حالته النفسية. وتدنت سلوكياته ما هو أدنى من الإتيان بأفعال صبيانية. ربما انهارت معنوياته دونما أمل فى استعادتها، حتى مع احتفاظ قواه العقلية بحالتها الطبيعية، فإنها كانت من طاقة مخزونة، لا يسببها سوى المرض. ولعلم هيستير بمسلسل الأحداث التى كانت تخفى على الآخرين، تمكنت بسهولة من احتراز، أنه بما يتحلى به من ضمير يمنطق الأمور، فإن آلة القلق قد حشدت طاقاتها، ولا تزال تعمل ضد استقراره النفسى وإراحته. وإدراكا منها لما كان عليه هذا المريض البائس، فقد حرك كيانها الفزع الرهيب بمناشدته لها وهى المرأة المنبوذة من الجميع، لدعمه فى مواجهة غريمه الذى كشفت عنه قريحته. توصلت فضلا عن ذلك، إلى أن له الحق المطلق عليها فى تقديم أقصى الدعم له. ألفت بعض الشىء، خلال عزلتها عن المجتمع، قياس أفكارها من حيث الخطأ والصواب، مقارنة بأية ظاهرة خارجية تقع لها، فرأت هيستير أو تبين أنها رأت أن هناك مسئولية تقع على عاتقها، نحو رجل الدين، وأنها لا تدين لغيره من البشر أجمعين بهذه المسئولية. لقد سقط ما بينها وبين كل

البشر من ارتباطات، كالزهور، والحرير والذهب، أو أى من الحاجات الأخرى. كان هناك طوق حديدى، من جرم مشترك لا يستطيع أيهما كسره. وقد جاءت هذه الرابطة، مثل كل الروابط الأخرى، ومعها التزاماتها.

لم تعد هيستير براين الآن تحتل نفس المنزلة التى كانت عليها حين رأيناها خلال فترات عروض العار الأولى. أتت السنون ثم مضت. بلغت بيرل الآن من عمرها سبع سنوات. وأصبحت أمها الآن، والحرف القرمزى يتلألأ بخيوطه البديعة على صدرها، مألوفة لأهل المدينة. ينطبق ذلك على إنسان يوضع فى موضع ظاهر للجميع، ولا يشاركهم مع ذلك، اهتماماتهم العامة أو الشخصية أو يتدخل فى وسيلة من وسائل إسعادهم، لم يكن هيستير براين سوى هذا الإنسان، التى لاقت صورا لا حصر لها من التقدير الذى كان يزداد وينضج. يحسب للبشر من حيث طباعهم أنهم أكثر ميلا للحب من ميلهم إلى الكراهية، باستثناء أن يكون للأنانية دور فى هذا. يمكن للكراهية أن تتحول إلى حب، درجة درجة، بعوامل التهدئة، وذلك إن لم يطرأ تغيير ملح يحرص على بث مشاعر الكراهية المتأصلة فى النفوس. فى هذا الشأن الخاص بهيستير براين لم يتوفر عنصر التحريض ولا النفور. لم يحدث أن دخلت صراعا مع أحد، بل أذعنت راضية للمعاملة الأسوأ، ولم يصدر عنها شكاية ضد أحد، فى مواجهة ما تعانيه من عذاب، ولم تكن تطمع فى قدر من مواساة أحد. أضف على ذلك التزامها الطهر طوال هذه الأعوام، ووقوعها فى فكاك

العار، كان كله لصالحها. لم يبق للضالة سوى عود حميد إلى جادة الفضيلة، تلك التي لا يوجد ما تخسره من نظرة الناس إليها، وبعد ضياع الأمل والرغبة كلية، فى الظفر بأى شىء كان معروفا أيضا أنه فى الوقت الذى لم تقدم هيستير براين على أدنى حقوق المشاركة فيما يتاح للجميع من امتيازات سوى حقها فى استنشاقها الهواء المتاح للجميع، وكسب قوت يومها لإعالة نفسها والطفلة من عمل يديها الدؤوب، فإنها أسرعت إلى الانضمام إلى بنات جنسها فى صراعهن مع الرجل حتى تحقق لهن ما تطالبن به. لم يظهر من كان أكثر منها إقداما على مد يد العون لكل من ذى فاقة، حتى وإن رد المعوز جاحد النعمة ذلك بعبارات لاذعة مقابل ما قدم له من طعام على عتبة داره بصفة دورية، أو ما حاكته من أجله من ثياب بأنامل، طالما طرزت بها ثياب أحد الملوك. لم يكن هناك من كان أكثر تضحية بالذات من هيستير، حين ضرب الطاعون المدينة. اتفق المجتمع على نبذها، ورغم ذلك كانت تعرف دورها على الفور فى أوقات المحن، العامة منها والخاصة. لقد أتت لا كضيف بل، كمن له حق رعاية بيت أحلكه القلق بالظلمة، وكان بصيص الضوء فيه، وسيلة قد هيأتها لعقد حوار مع أقرانها. هنالك ومض الحرف المزخرف، فبث الطمأنينة بشعاعه السرمدى. كان رمز الخطيئة فى كل مكان، هو الشمعة المضيئة فى غرف المرضى. فألقى بوميضه حتى على من أشرف على الموت، عندما حان أجله. هداه إلى موضع قدميه، بينما كان ضوء الأرض يتحول إلى الظلام سريعا، وليس له من هاد سوى نور الآخرة. أثبتت

طبيعة هيستير جودها وعطاءها فى مواقف حرجة كتلك، كما أكدت أن لديها معينا لا ينضب من رقة فى المشاعر الإنسانية، لا يخطئوها كل ذى عوز، ولا تكل مهما زاد العدد. لم يكن صدرها وهو يحمل شارة العار، سوى الوسادة الحانية، للرأس التى افتقدت الحنان.

تم ترسيمها أختا للرحمة، أو من الأفضل القول بأن يد البشر الغليظة هى التى قامت بترسيمها، فى الوقت الذى لم يكن يتوقع الناس أو نتوقع هى هذه النتيجة، وكان الحرف رمزا لدعوتها. و كان ما رسخ فيها من استعداد لتقديم العون بهذا القدر الكبير، وتلك القدرة على المشاركة الوجدانية، ما جعل الناس يرفضون التعاطى مع الـA القرمزية بحسب دلالته الأصلية. ذكروا أنه يعنى القدرة (Able)، وأن هيستير براين بهذا القدر من القوة، وبقدر ما فى المرأة من زخم.

لم تكن لتقوى على أن يضمها مكان سوى البيت الذى تحيط به الظلمة. ولم تكن مقيمة به حين عادت إليه أشعة الشمس. لقد اختفى ظلها من فوق عتبته. رحل عنه شريك السكنى المعين، دون التفاتة منه لتلقى العرفان بالمقابل، لو توفر أى من هذا العرفان فى قلوب الذين تحمست كثيرا لتقديم الخدمات لهم. لم تكن ترفع رأسها لتلقى امتنانا منهم وهى ماضية فى طريقها. وإذا بادروها بتحية، وضعت إصبعها على الحرف القرمزى ثم مضت فى طريقها. قد يبدو فى هذا كبر ولكنه كان قريبا إلى التواضع، فإنه الأبرز بما يحوى من مشاعر رقيقة فى عقول العامة. فالعامة مستبدون بطبعهم، وهم قادرون على إنكار العدالة عامة، حين يكون من العسير تماما المطالبة بها كحق

من الحقوق، ولكنهم فى أغلب الأحيان يمنحون ما هو أكثر من العدالة، حين يقدم الاستئناف، وذلك هو حب المستبد لمنح تلك العدالة بوازع من كرمه فحسب. كان المجتمع وهو يتعاطى مع مسلك هيستير براين على أنه استئناف من هذا النوع، ميالا إلى إظهار ضحيته السابقة، بمظهر الرقة، أكثر مما كانت هي تحرص على إظهاره، أو ربما بأكثر مما كانت تستحق.

كان أولو الأمر والحكماء ورجال العلم فى المجتمع أكثر من الآخرين دراية بأثر سمات هيستير الحميدة. فقد كانت المظالم التى شاركوا فيها مع الناس قد تحصنت ذاتيا بنظام صارم، ديدنه الإقناع بالحجة والبينة، فكان من الصعوبة القضاء على تلك المظالم. ومع ذلك فإنه بمرور الأيام، كانت سحنهم العابسة والحزينة تأخذ فى التحول إلى شيء ما أقل حدة وصرامة، وخلال عدة سنين قد تتحول إلى سيماء تكاد تصل إلى سمة الساعين إلى البر. كان الأمر مع أصحاب المنزلة الرفيعة الذين يقع على عاتقهم، حماية الأخلاق العامة، يسير على هذا المنحى. خلال ذلك، كان أفراد المجتمع قد غفروا ما وقعت فيه هيستير براين من زلل، ليس هذا فحسب، بل بدءوا ينظرون إلى الحرف القرمزى، لا على أنه يشير إلى زلة واحدة، حملته ككفارة طال أمدها وعذابها، بل إلى أعمال الخير الكثيرة التى قدمتها منذ تلك الفترة. وقد يقولون للغرباء عن البلدة:

"أترون تلك المرأة التى تحمل الشارة المزخرفة. إنها هيستير ابنة مدينتنا الحانية على المعوزين، والساهرة على المرضى، والصدر

الحنون للمعذبين!"، جبل الإنسان بطبيعته على البوح بأسوأ ما فى الآخرين، وحيث إن ذلك يتجسد فى شخص بعينه فإنهم قد يقدمون رغما عنهم على التهامس بالفضيحة الشنعاء التى حدثت فى الأيام الخوالى. ومع أن ذلك قد حدث بالفعل، فإن الحرف القرمزى كان فى عيون نفس من تحدثوا فى هذا الشأن له أثر الصليب على صدر راهبة. لقد أضفى على حاملته نوعا من القداسة، مكنتها من السير فى أمان وسط جميع الأخطار. فإن حدث أن وقعت بين اللصوص، فإنهم سيحافظون على سلامتها. أشيع واعتقد الكثيرون، بأن أحد الهنود قد وجه سهما نحو الشارة، وأن السهم قد أصابها، وسقط على الأرض دون أن يحدث ضررا. كان أثر الرمز قويا وفريدا على عقل هيستير براين نفسها، أو بما حققه من مكانة فى المجتمع. ذبل فيها جمال الزهرة وينعها، بفعل هذا الشعار الملتهب، وقد تراجع هذا الجمال، منذ زمن، مخلفا أثرا باهتا خشنا وقد يحمل هذا الأثر شيئا من النفور، ذلك إن كان لديها من المعارف والأصدقاء، ليصاب منها بهذا النفور. وحتى جاذبيتها تعرضت لنفس المصير. ذلك قد يعود فى جانب منه إلى تعمدها المظهر الخشن فى ملبسها، وفى جانب آخر إلى افتقارها لحب الظهور فى مسلكها، كان هناك أيضا تحول يدعو إلى الأسى، ذلك أنها قصت شعرها الغزير اللامع، ربما وارته تحت غطاء الرأس، حتى لا تطل منه خصلة لامعة تشهد ضياء الشمس. كان ذلك فى جانب منه يرجع إلى كل هذه الأسباب، ولكن بقى شىء آخر، فقد

وضح أن وجه هيستير براين لم يعد يحمل أثرا للحب. لا أثر له فى هيئة هيستير، مع أن الفخامة والأبهة اللتين طالما حلم الحب دوما بضمهما إلى أحضانه، لم يعد منهما شيء فى صدر هيستير، ليعيد إليه ما كان ماضيه كوسادة للحب. فارقها بعض من سمات، يعد بقاؤها من الضرورة، كى تحتفظ بأنوثتها.

يتكرر حدوث مثل ذلك بيد القدر، للتطورات القاسية، التى واجهتها، بصفة الأنثي فيها والشخص، حين تحاصر المرأة، وتعيش تجربة تتميز بالقسوة. فإذا غلبت فيها رقة المشاعر فسوف تهلك. وإن قاومت فإن رقة المشاعر إما أن تفارقها، أو ترسخ فى أعماق قلبها ولا تعاود الظهور، ونفس هذا يطرأ على المظهر الخارجى. الحالة الأخيرة الأصدق نظريا. فقد كانت يوما ما امرأة، ثم تخلت هى عن كونها كذلك، وقد تعود امرأة، لو توفرت لها اللمسة الساحرة فحسب لتحدث هذا التحول. ولسوف نرى فيما بعد إن كانت هيستير براين قد تعرضت للمسة من هذا النوع أو لأى تحول فى الشكل.

كانت برودة الرخام فى مشاعر هيستير، من الكثرة بسبب ذلك الحدث الذى غير مجرى حياتها كثيرًا من رقة الوجدان إلى الفكر. تخلصت من حطام القيد المنكسر، وهى وحيدة فى هذا العالم، وحيدة وليست عالة على المجتمع، وبصحبتها الطفلة بيرل، التى تحتاج إلى الإرشاد والرعاية، وحيدة، لا أمل لها فى استعادة ما كان لها من مكانة، حتى وإن قوبلت بسخرية باعتبار أن هذا أمر مرغوب فيه.

لم تكن قوانين المجتمع تمثل شيئا لما يدور فى رأسها. لقد تحرر الفكر الإنسانى مجددا فى هذا العهد، واتخذت خطوات أكثر اتساعا ونشاطا مما سبقه من قرون. فقد دحر رجال السيف الملوك والنبلاء. ودحروا من كانوا يفوقونهم شجاعة واستعدادا؛ حيث برعوا فى المجال النظرى، الذى تشبثوا به وأخلصوا له، نظام الأحجاف الشمل القديم، الذى ارتبط كثيرا بالمبادئ القديمة. تشربت هيستير براين هذه الروح، واضطلعت بحرية التفكير، التى شاعت إلى حد كبير على الجانب الآخر من الأطلنطى، ولكن أسلافنا القدامى، إن كانوا قد عرفوا بها، فسيعتبرونها جريمة نكراء تفوق تلك التى وصمها الحرف القرمزى. غشيتها الأفكار وهى فى كوخها المنعزل والقريب من شاطئ البحر، أفكار لم تكن لتجرؤ على دخول بيت آخر فى نيو إنجلاند، وفدت إليها كما وفد زوارها ممن وضعوا تحت الشبهات، الذين يعدون لمضيفيهم من حيث الخطورة شياطينا، والذين كانوا كثيرا ما يدقون بابها.

جدير بالملاحظة أن أشخاصا وهبوا أقصى قدر من الجرأة على التفكير غالبا ما يتوافقون بأقصى قدر من الرضا التام مع الأنظمة الخارجية للمجتمع. فالأفكار تكفيهم دون لجوء إلى أن تغلف نفسها بالواقع المعيش. وهكذا سار الحال مع هيستير. كما أن بيرل لم تأتها من عالم روحانى، بل كان الأمر على النقيض من ذلك تماما. وقد يرد ذكرها فى التاريخ، مع آن هاتشينسون جنبا إلى جنب، كإحدى مؤسسات أحد المذاهب الدينية وفى عبارة واحدة، نقول ربما

تكون نبية. وربما تكون، بل هى بالفعل قد عانت الأمرين من أحكام العصر القاسية، وذلك بمحاولتها إتلاف الأساس الذى قامت عليه المؤسسة البيوريتانية. ولكنها فى تعليمها ابنتها، تحطم حماسها تلقائيا للفكر. فقد كلف الله هيستير، فى شخص الطفلة بيرل، برعاية البذرة والزهرة فى الأنثى، لتسهر عليها، وتتولى إنماءها وسط حشد هائل من المعوقات. كان كل شىء فىّ مواجهتها. وكانت الدنيا كارهة لها. وشخصية الطفلة نفسها فيها خطأ ما، كان يشير على الدوام إلى أنها ولدت على نحو خاطئ، لانجراف أمها نحو علاقة آثمة، وغالبا ما كانت تتجنب أن تسأل نفسها فى مرارة، عما إذا كان خيرا أم شرا مطلقا ولادة هذه المخلوقة الصغيرة البائسة.

كان السؤال البغيض غالبًا ما يطرح فى ذهنها على نفس المنوال، فيما يتعلق بجنس المرأة ككل. هل يعد وجودها فى الحياة مقبولا، وينطبع هذا على السعيدات من بينهن؟ أما فيما يتعلق بوجودها هى كإنسانة، فقد قررت منذ وقت طويل أن تكون الإجابة بالنفى، بل إنها رفضت طرح المسألة من الأصل. ومع أن الميل إلى التفكير يبقى على السكينة فى نفس المرأة، وكذلك الحال فى الرجل، فإنه كان يشعرها بالأسى. ربما لأنها تعرف بالمهمة الملقاة على عاتقها والتى لا يرتجى من تحقيقها أمل. فالنظام الاجتماعى كله لابد له أن ينهار كخطوة أولى، ثم يعاد بناؤه من جديد. تأتى فى المقام التالى مباشرة شخصية الجنس الآخر ذاتها، أو تلك التى وجدت بحكم عادة التوريث منذ زمن، والتى يأتى تغييرها فى المقام الأول، و قبل

أن يتحقق للمرأة ما يعرف بالمكانة الملائمة والعادلة. وحين تذلل فى النهاية كل العقبات الأخرى، لن تستطيع المرأة أخذ زمام المبادرة نحو هذه الإصلاحات الأولية، إلا إذا تحملت بنفسها عبء ذلك التغيير المحتمل، الذى سوف ينتشر أريجه الفوّاح فى حياتها الحقيقية أينما حلت. لا يمكن لامرأة بمفردها الاضطلاع بحل هذه الإشكاليات بمجرد ممارستها للتأمل. لأنها لن تحل على هذا النحو ولن تحل أيضا بأسلوب واحد فحسب.

إذا احتل قلبها فى المقدمة، تلاشت تلك العقبات. وهكذا مضت هيستير براين التى فقد قلبها نبضه السلمى والمنظم، دون هاد لها فى تيه العقل المظــلم، فتارة تصبح على شفا جرف لا نجاة منه، وتارة تتراجع عن حب لا قرار له. كان المشهد من حولها، يسوده الغموض والارتباك، ولا ملجأ فى مستقر لها أو راحة. وكان ينتابها فى بعض الأوقات، شك رهيب يستحوذ عليها، فيما لو أن من الأفضل أن تبعث فورا ببيرل إلى السماء، وتلقى هى أيضا نفس المصير، حيث ينبغى لعدالة السماء أن تتحقق.

لم يؤد الحرف القرمزى رسالته على النحو الأمثل.

لقد قدم لها لقاؤها بالسيد الموقر ديميسديل، فى قيامه تلك الليلة، فكرة جديدة، وطرحت أمامها موضوعا، بدا أنه يستحق شيئًا من بذل الجهد والتضحية، لتحقيقه. كانت هى أحد شهود البؤس الكبير الذى يقع القس تحت طائلته والذى لم يبذل جهدا يذكر فى مقاومته.

لقد رأته واقفا على شفير الهاوية، ذلك إن لم يكن قد خطا نحوها بالفعل. كان من المحال الشك فى أنه مهما بلغ حجم الألم الذى ربما نشأ بسبب يعتمل بداخله من ندم، فالسم القاتل قد سكب عليه باليد التى كان يفترض منها الشفاء. لازمه عدوه، و لم يكشف له عن حقيقته، فى صورة الصديق والمعين. واغتنم ما أتيح له من فرص، على نحو ما قدمناه، وذلك للعب على أوتار طبع السيد ديميسديل الانفعالى، ولم يكن أمام هيستير إلا أن تتساءل، عن عدم وجود خلل فى توخى الصدق، والشجاعة والخلاص من جانبها لتركها القس متجها إلى مكان، حاق به شر مستطير، ولم يعد هناك ما يبشر بأمل. كان مبررها الوحيد فى واقع أنها لم تكن قادرة على التوصل إلى طريقة لإنقاذه من دمار أكثر فظاعة مما أحاق بها، وليس أمامها سوى الإذعان لخطة روجر شيلينج وورث الدنيئة. اتخذت قرارها، تحت هذا الدافع، واختارت كما هو باد حتى الآن، أكثر البديلين خسة. عزمت على أن تصلح خطأها بقدر ما يتاح لها من إمكانية. شعرت وقد سلحتها السنون بالتجارب الشاقة الرهيبة، أنه لم يعد من الصالح مسايرة روجر شيلينج وورث كما حدث تلك الليلة، بعد أن أشعرتها الخطيئة بالدنية. كانت قد أشرفت على الجنون بسبب العار، وهو لا يزال فى أوله، حين دار الحديث بينهما فى زنزانة السجن. منذ ذلك الوقت كانت تسلك طريقها صعودا، حتى وصلت إلى أعلى مكان. كان الرجل العجوز من جهة ثانية، يقترب مما حققته أو ربما دونه، وكان دافعه إلى ذلك ما كان يسعى إلى تحقيقه من ثأر.

قررت هيستير براين فى النهاية أن تلقى زوجها السابق، وأن تفعل ما وسعها من طاقة لإنقاذ الضحية الذى تحقق تماما وقوعه فى قبضته. والفرصة ليست عصية على التحقيق. رأت بعد ظهيرة أحد الأيام وهى تسير بصحبة بيرل، فى مكان ناء منعزل فى شبه الجزيرة، رأت الطبيب العجوز، يضع سلة على ذراعه، ويحمل عصا فى الأخرى، وكان محنيا فوق الأرض، للبحث عن الجذور والأعشاب لتركيبها في عقاقيره.

١٤

هيستير والطبيب

أمرت هيستير الطفلة بيرل بالذهاب إلى ضفة البحيرة، واللهو بالمحار والعشب البحرى المتشابك، حتى تتحدث لبعض الوقت مع جامع الأعشاب الواقف هناك. وهكذا انطلقت الطفلة كالطير، وخلعت نعليها، ومضت راقصة بطول الضفة الرطبة. انتقلت هنا وهناك حتى توقفت، واختلست النظر إلى البحيرة بفضول، باتجاه المد المنحسر، الذى تحول إلى مرآة لترى فيه بيرل صورة وجهها. حدقت فى صورتها، على صفحة المياه، وخصلات الشعر السوداء اللامعة تتدلى من رأسها، وفى عينيها ابتسامة الجنى الصغير، وصورة الحورية الصغيرة. ولأن بيرل محرومة من الأصدقاء فقد دعت الحورية إلى أن تمسك يدها وتتسابقا. لكن خيال الحورية هو الآخر أشار من جانبه، ولسان حاله يقول: "هنا المكان الأفضل، إلى البحيرة!"، وخطت بيرل إلى الداخل بعمق نصف ساق، ناظرة إلى قدمها البيضاء فى عمق البحيرة، وقد من الأعماق وميض يحمل ما ينم عن ابتسامة هشة، تغدو وتروح فى المياه الرقراقة.

كانت أمها خلال ذلك تتحدث إلى الطبيب. قائلة: "أريد أن أحدثك فى أمر، أمر يهم كلينا".

رد وهو يرفع رأسه من انحناءة: "آهاء أو ليست تلك هى السيدة هيستير التى لديها أمر ما خاص بالعجوز روجر شيلينج وورث؟، ذلك من دواعى سرورى. فيم يا سيدتى، فإننى أسمع أنباء طيبة عنك من الجميع! منذ مدة لا تزيد عن أمس، كان الحاكم الموقر والحكيم، يتحدث فى شأنك، سيدة هيستير، وقد همس فى أذنى بأن هناك ما يبحث بشأنك فى المجلس، لقد ثار جدل حول خطأ أو صواب إصدار قرار بخلع الحرف القرمزى من على صدرك تمشيا مع الصالح العام. وقد ناشدت الحاكم الموقر بأن ذلك ما يجدر السعى من أجله".

أجابت هيستير بهدوء: "ليس من شأن أولى الأمر خلع هذه الشارة. لأننى إن كنت أستحق التخلص منه فإنه سوف يسقط من تلقائه، أو يتحول إلى شىء ما لابد أن يحمل مضمونا آخر".

علق بقوله: "ألا ترغبين، احمليه إذن فهذا ما أنت أهل له، فالمرأة لابد أن تحذو حذو هواها، و ميولها. الحرف محاك بصورة تبعث على البهجة، وإنه يبرز مباشرة ما يحمل ضدرك!".

أخذت هيستير، بل روعت، وهى ترى ما طرأ على الرجل العجوز من تغيير خلال السنوات السبع التى مرت، ولم تتحول عيناها عنه طوال هذا الوقت القصير لم يكن الأمر يتعلق بتقدمه فى السن، لأنه مع وضوح آثار تقدمه فى العمر، قد تحدى عوامل التقدم فى السن بشكل جيد، ووضح أنه احتفظ بكامل حيويته ونشاطه. لكن ما

كان يميزه من سمات رجال البحث والفكر، وأفضل ما كانت تذكر فيه من هدوء واتزان، زال كله عنه، واستبدل ذلك بتعبيرات الحيطة والحرص، والتفحص والولع بالأشياء وأوشكت على الشراسة. ووضح أنه لم يكن مهموما بغير مداراتها بابتسامة مصطنعة، لكن تلك الابتسامة كانت تغرر به، و تضطرب على سحنته بصورة تبعث على السخرية المريرة، فيرى الناظر إليه أن كآبته خير ما تحمل سيماه. يخرج من عينيه، من حين لآخر شعاع لونه أحمر، وكأن روح الرجل العجوز كانت على نار مشتعلة، احتفظت داخل صدره، بوقودها الهامد حتى إذا نفخ فيه نفخة غضبى، أسرع متحولا إلى لهب. يقوم بإخماده بأسرع ما يمكنه من جهد، مستنفذا ذلك فى تعبيرات وجهه، وكأن شيئا من هذا القبيل لم يحدث قط.

يمكننا باختصار شديد القول بأن روجر شيلينج وورث كان دليلا حيا على قدرة الإنسان على تحويل نفسه إلى شيطان، إذا كان ولفسحة من الوقت فقط، سيضطلع بمهمة الشيطان. لقد كرس هذا الإنسان البائس بهذا التحول نفسه، وعلى مدى سبع سنوات متصلة، بتحليل شخصية إنسان أضناه العذاب، ليجعل من عذابه سببا لسعادته، وليضيف مزيدا من الوقود، إلى تلك الآلام المبرحة التى كان يعلم مسبباتها جيدا، فيتأملها برضا وارتياح.

احترق الحرف القرمزى على صدر هيستير. وها قد حل دمار آخر، ومسئولية ذلك فى جزء منه، قد وفدت إليها فى عقر دارها.

سألها الطبيب: "ماذا ترين فى وجهى، ذلك الذى ترمقينه باهتمام؟".

أجابته: "شيئا ما قد يدفعنى إلى النحيب، ذلك إذا كان هناك ما يكفى من مرير الدمع، ولكن دعنا من هذا. إن الأمر يتعلق بذلك الرجل المسكين وهو ما كنت أزمع التحدث بشأنه معك".

هتف روجر شيلينج وورث بلهفة، وكأنه كان يود الخوض فى الموضوع وها هى فرصة مناقشته قد واتته مع الشخص الوحيد الذى منحه ثقته: "وماذا بشأنه، لا تخف عنى شيئًا سيدة هيستير، فقد أقلقتنى بشأن السيد المحترم. تحدثى من ثم بصراحة وسوف أرد".

قالت هيستير: "لقد مر الآن على آخر مرة تحدثنا معا، سبع سنوات، وسررت وقتها بالظفر بوعد منى بالتزام الصمت بشأن العلاقة السابقة التى كانت بيننا، وبما أن حياة وسمعة ذلك الرجل بين يديك، ولم يكن أمامى خيار سوى التزام الصمت امتثالا لأوامرك، فإن الأمر رغم ذلك لم يكن ليخلو من هواجس؛ حيث إنى تقيدت بما وعدت به، بسبب أننى تحررت من التزاماتى لدى الآخرين، ولم يبق سوى التزامى نحوه، وهمس لى بما يشى بأننى أغرر به فى الوعد الذى قطعته بالامتثال لأوامرك، ومنذ ذلك اليوم لم يتقرب إليه شخص كما تقربت أنت إليه. فأنت تقتفى أثر كل خطوة يخطوها. وأنت إلى جانبه فى صحوه وسباته. تفتش فى أفكاره، تحفر وتبث الضغينة فى قلبه. تحكم سيطرتك على حياته، وتتسبب فى موته ميتة الأحياء يوما

بعد يوم، وهو لا يزال على جهله بأمرك. وحين أسمح بهذا، أكون يقينا، قد أديت دور الخيانة بالرجل الوحيد الذى خانتنى القوة فى أن أكون صادقة معه".

سأل روجر شيلينج وورث: "ماذا لديك من خيار. بإشارة من إصبعى نحو هذا الرجل، سيلقى به من فوق منبره إلى زنزانة السجن ثم بعد ذلك لو شاءت الظروف إلى المقصلة".

أجابت هيستير: "من الأفضل له أن يحدث هذا".

عاود روجر شيلينج وورث الاستفسار: "ما هو ذلك السوء الذى سببته للرجل، إننى أبلغك يا هيستير براين أن الأجر الأعلى الذى تقاضاه طبيب من ملك لا يوازى قدر تلك الرعاية التى أبذلها نحو هذا الراهب التعس. ولكن بعون منى سيبقى محترقا بعذاب العامين الأولين، من ارتكابكما الجرم. لأن روحه يا هيستير افتقرت إلى القوة التى تقوى على تحمل عبء ثقيل كالحرف الأحمر، كذلك الذى تتحمليه أنت. آه، إننى أستطيع الكشف عن سر عظيم! لكن هذا فيه الكفاية، ماذا يمكننى أن أفعل به، لقد أتعبنى. إنه الآن يتنفس، ويحبو فوق الأرض و هذا كله بفضلى".

قالت هيستير: "الأفضل أن يلقى حتفه على الفور!".

هتف العجوز روجر شيلينج وورث تاركا للنار المشتعلة من جذوة فى قلبه الظهور أمام عينيها: "بلى يا امرأة، إن ما تقولين هو الصواب، فمن الأفضل أن يموت على الفور! لم يعانِ مخلوق مثلما

عانى هذا الرجل وذلك كله يحدث تحت سمع وبصر عدوه! إنه يشعر بى! إنه يشعر بقوى خفيه تتلبس به كاللعنة. عرف ذلك بشىء من إدراكه الروحى، لأن الخالق لم يخلق من هو أكثر منه حساسية، عرف أن يد صديقه تشد أوتار قلبه، وأن عينا تتفحص أعماقه فى فضول، لا تبغى له سوى الشر، وقد عثرت تلك العين على ضالتها، لكنه لم يكن يعرف أن العين واليد هما عيناى ويداى! لقد ظن بوحى من الخوارق التى أشاع إخوانه عنها لدى، إن نفسه قد سلمت لشيطان، يؤرقها بكوابيس رهيبة، وأفكار تبعث على القنوط، وانقطاع الأمل فى التوبة، واليأس من العفو، ووعيد ينتظره فى القبر. ولم يكن هذا سوى ظل وجودى الملازم له! ملازمة لصيقة فى الزمان والمكان، برجل كان قد أوقع به ظلما بينا! لم يظهر للوجود إلا ومعه السم الذى لا ينتهى مفعوله، آخذا بالثأر الرهيب! بلى، فإن هذا ما حدث بالفعل! إنه لم يأثم! هناك شيطان متأبط ذراعه! كان يوما ما بشرا خالدا، ويوما ما كان له قلبا يحس، يصير شيطانا، يوقع العذاب بنفسه".

كان الطبيب المنكود وهو ينطق بهذه الكلمات، يرفع ذراعيه وعلى وجهه إشارات الهول، وكأنه كان يرى أمامه شبحا مريعا، لا يستطيع التعرف عليه مغتصبا المكان الذى تنعكس منه صورته فى مرآة عاكسة. كانت تلك إحدى اللحظات، التى يمكن لامرئ أن يرى صورته الحقيقية ببصيرته، وذلك أحيانا ما يحدث كل فترة من الزمن. ليس بعيدا عن الاحتمال، إلا أن يكون قد رأى وجهه من قبل كما يراه الآن.

قالت هيستير وهى ترقب تعبيرات الرجل العجوز: "ألا يكفيك ما سببت له من عذاب. ألم يسدد ذلك ثمن كل شيء؟".

أجاب الطبيب، وبينما واصل حديثه، فقد مسلكه شراسته، فغشيته الكآبة: "كلا! كلا! لم يفعل سوى أن زاد وطأة الدين! ألا تذكرين يا هيستير ما كنت عليه منذ تسع سنين مضت؟ إننى حتى فى تلك الفترة كنت فى خريف أيامى، وما كنت فى أول الخريف. لكن حياتى كلها كانت مليئة بسنوات الجد والبحث والفكر والسكينة، وقد أسهمت بحق فى تزويدى بالمعرفة، ورغم أن الأخيرة كانت بالنسبة لآخرين بمثابة تحصيل حاصل، فإن ذلك وبإخلاص كان فى سبيل التقدم لخدمة بنى البشر. لم يكن هناك من كان أكثر إحساسا بالرضا والبراءة، مني وقليل هم من يحيون فى ثراء بقدر ما حققوه من مكاسب. ألا تذكرين ما كنت عليه؟ ألم أكن، رغم أنك قد ترميننى بالبرود مع أننى رجل يراعى حقوق الآخرين ومشاعرهم، ألم أكن أحن إليه قليلا فى ود وصدق ووفاء، وذلك إن لم أكن رقيق المشاعر؟ ألم أكن هذا كله؟".

قالت هيستير: "كنت هذا كله بل أكثر منه".

سألها وقد ترك للشر الذى يستشرى بداخله الظهور على قسمات وجهه: "ومن عساى أكون الآن. لقد أخبرتك بالفعل بمن عساى أكون! شيطان! من الذى صيرنى إلى هذا المصير؟".

هتفت هيستير وهى تهتز فرقًا: "إنها أنا. إنها أنا ولست فى ذلك بأقل منه، فلماذا لا تجعل ثأرك على؟".

أجاب روجر تشيلينج وورث: "إننى أدعك للحرف القرمزى، فإذا لم ينتقم لى منك فلن يكون لدى المزيد".

وضع إصبعه عليه وهو يبتسم.

أجابته هيستير براين: "إنه ينتقم لك".

قال الطبيب: "إننى لا أحكم بغير ذلك. والآن ماذا تريديننى أن أفعل بشأن هذا الرجل؟".

أجابت هيستير بحزم: "لابد لى من كشف السر". لابد أن يعرف بشخصيتك الحقيقية. أعرف ماذا ستكون عاقبة ذلك. لكن دين الثقة الآجل من جانبى نحوه، بعد الذى سببته أنا له من كرب ودمار، يحتم على فى النهاية أن أفى به. أما فى حدود ما يتعلق بصون أو إهدار سمعته التى لم تمس ومنزلته الاجتماعية بل وحياته ذاتها، فإن ذلك كله يعود إليك. لست أنا التى قادتنى الحرف القرمزى إلى الإيمان رغم أنه إيمان الجمر المشتعل، الذى يغشى الروح ولست بالتى تدرك مثل هذا التطور فى حياته على أى نحو سوى أنه حماقة مروعة، ثم أحبو فى النهاية طالبة رحمتك، اصنع به ما تشاء. فلا خير يتوقع له، ولا خير لى، ولا خير لك! ولا خير للصغيرة بيرل! ولا درب يقودنا إلى مخرج من هذا الشرك المظلم".

قال روجر تشيلينج وورث، وقد فشل فى كبح مشاعر الإعجاب بوجود ما يقارب المهابة فى نبرة اليأس التى عبرت بها: "لا يمكن أن أسمح لنفسى بالشفقة عليك يا امرأة. فأنت تمتلكين مقومات عظيمة. فإن تصادف والتقيت مبكرا بمن كان يفضلنى حبا لك، ما كان لهذا الشر أن يحدث أبدا، إننى حزين على ما ضاع فيك من أصالة".

ردت هيستير براين: "وأنا أشفق عليك من كره يحول رجلا للعدل والحكمة إلى شيطان!، هلا قمت الآن بالتخلص منه، و تعود إنسانا مجددا؟ إن لم يكن ذلك من أجله فمن أجلك أنت! تسامح، واترك القصاص العاجل لمن يملك القدرة على المطالبة به. قلت لك بأن خيرا لم يعد يرجى الآن له، أو لى أو لك، وأنا وأنت نتخبط معا هنا فى شرك الشر المظلم هذا، ونتعثر فى كل خطوة فيما غشى دربنا من إثم. والأمر لا يسير هكذا. فرب خير ينتظرك، ينتظرك وحدك، لأنك أنت من أوقع بك الظلم البين. وبيدك العفو، فهل تتخلى عن تلك المزية الفريدة؟ أترفض تلك النعمة التى لا تقدر بثمن؟".

أجاب العجوز بتجهم واضح: "اهدئى، يا هيستير، اهدئى، فأمر العفو لم يكفل لى. ولست أملك القوة التى تحدثيننى بشأنها. فإيمانى القديم قد عاد إلى بعد طول هجر، وهذا يفسر كل ما نحن بصدده الآن، وكل ما تعانيه. فمنذ اللحظة الأولى لانحرافك، قمت بوضع بذرة الشر، بل إنه منذ تلك اللحظة، كان لابد لكل هذا أن يحدث. فأنت، يا من ظلمتنى، لست بآثمة، وباستثناء الصورة المطابقة فإننى لست شبيها للشيطان، أنا من اغتصب عمل الشيطان من يده. ذلك

قدرنا اتركي زهرة الشر حيث قدر لها أن تكون! واذهبي الآن أينما تشائين، واعهدي بأمر هذا الرجل كما تشائين".

لوح بيده واستجمع قواه مجددا، عائدا إلى عمله بجمع الأعشاب.

١٥

هيستير وبيرل

وهكذا ترك روجر تشيلينج وورث بخلقته المعيبة، وسحنته التي رسخت في أذهان الناس رغما عنهم، ترك هيستير براين لحال سبيلها، وعاود انحناءه فوق الأرض. كان يجمع عشبا من هنا وهناك، أو يجتث جذرا، ويضعه في السلة التي حملها على ذراعه. لحيته البيضاء كادت أن تلمس الأرض، في حين كان يواصل زحفه. تفحصته هيستير براين وهي تنظر خلفها لوهلة قصيرة نظرة فضول ترافقها الدهشة لترى ما إذا كان العشب الضعيف الحديث العهد، لم يصب بالذبول لوقع خطاه، وليظهر أثر خطاه المضطربة، جافا بلون الوحل، فوق نضارته التي تحمل البهجة. تحيرت في معرفة نوع الأعشاب التي يحرص العجوز كثيرا على جمعها. ثم تساءلت: "ألا تتوقف الأرض عن الانفعال له، فتسهم بذلك في تحقيق هدف دنيء، من استعطاف تقدمه عيناه إليها، فتحتفي به بشجيرات سامة، من أجناس لم يعرف لها أصول حتى الآن، ولتخرج إلى الوجود تحت أصابعه؟ ألا يكفيه، أن كل نبات فيه ما ينفع الناس، قد يتحول إلى شيء ضار بمجرد لمسة منه؟ وهل الشمس التي تنشر ضياءها في كل مكان، تسقط عليه أشعتها بالفعل؟ أم هل هناك، كما هو ظاهر الآن، دائرة ظل تنذر بالسوء، تتحرك معه أينما يمم خلقته المعيبة؟

وإلى أين هو ماض الآن؟ ألا تبتلعه الأرض من فوره مخلفا بقعة، يبابا بلقعا، ستعرف بمرور الزمن على أنها عنب الثعلب والقرانيا والبنج السام، وكل ما يستطيع الطقس إنتاجه من الأنواع الضارة من الخضرة فيزدهر نماؤها بالقدر الذى تحمله من سوء؟ ألا ينشر جناحا الوطواط ويحلق فى الفضاء، كاشفا عن قدر كبير من قبحه كلما علا فى الفضاء؟.

قالت هيستير فى مرارة وهى لا تزال تحدق فيه: "إن كان فى ذلك شيء من الإثم أو لم يكن فأنا أمقت هذا الرجل".

لامت نفسها على هذه الخاطرة، لكنها لم تستطع قهرها أو التقليل منها. فكرت وهى تحاول ذلك، فى تلك الأيام الخوالى، فى البلدة البعيدة، حيث اعتاد الخروج فى المساء من خلوة فى مكتبه، والجلوس فى ضوء المدفأة فى بيتهما، وفى ضوء ابتسامتها وهى لا تزال عروسا. كان فى حاجة إلى الاستدفاء بتلك الابتسامة. ذكر لها أن علة ذلك، أن برد ساعات العزلة الطوال بين الكتب قد تصيب قلب العالم بالتوقف. لا يمكن وصف تلك المشاهد وقت حدوثها بغير السعيدة، لكنها الآن خلال فاصل الهموم الذى لحق بحياتها، تعد فصلا بذاته ضمن ذكرياتها الأكثر ترويعا. تحيرت فى كيفية حدوثها. وتعجبت من كيفية الاقتناع حتى بالزواج منه. واعتبرت أن هذا يعد أكثر آثامها استحقاقا للتوبة؛ حيث إنها تحملت وتجاوبت مع قبضة يده الفاترة، واغتصبت البسمة على شفتيها وفى عينيها لتذوب وتمتزج بشفتيه وعينيه. وكان إثما عظيما ارتكبه فى حقها روجر شيلينج

وورث، يفوق أيا مما ارتكب فى حقه هو، ذلك أنه فى الوقت الذى لم يكن قلبها قد بلغ نضجه حثها على أن تتخيل سعادتها بجانبه.

رددت بمرارة أكثر من ذى قبل: "إننى أمقته. فقد غرر بى. كان ظلمه لى أفدح من ظلمى له".

دع فرائص الرجال ترتعد للظفر بلمسة من امرأة، ما لم يظفروا معها بمشاعر الحب الجمة النابعة من قلبها! وإلا فإنه سيكون من حظهم العاثر، كحظ روجر تشيلينج وورث، أن تجد المرأة لمسة أقوى أثرا، تلهب مشاعرها، فيلاموا حتى على قناعتهم ورضاهم التام، وعلى صورة السعادة الرخامية، التى فرضوها عليها، بواقع أنها السعادة الحقيقية. لكن كان على هيستير براين منذ زمن مضى أن تتعايش مع مثل هذا الإجحاف. فإلى أى شىء كان ذلك يشير؟ هل مرور سبع سنوات عليها، تحت وطأة عذابات الحرف القرمزى، أوقعت بها كل هذا الشقاء ولم تحقق الكفارة. ألقت لواعج تلك الفترة القصيرة التى كانت فيها هيستير تتفرس فيها بعد رحيلها جسد العجوز روجر شيلينج وورث المحنى، بظلال قاتمة على حالتها الذهنية، كاشفة عن كثير مما كان يجدر بها أن تصرح به لنفسها.

اختفى أثره فنادت على ابنتها.

"بيرل. صغيرتى بيرل. أين أنت؟".

أما بيرل التى لا يهدأ لها نشاط، فلم تتوقف عن اغتنام فرصة التسرية عن نفسها باللهو، أثناء حديث أمها مع جامع الأعشاب

العجوز. كانت فى أول الأمر كما قيل من قبل تعبث فى غرابة بصورتها المنعكسة من صفحة مياه البحيرة، مشيرة إلى الخيال وحيث إنه كان فى الأمر مخاطرة، ساعية إلى فتح ممر لها فى محيط أرضه المجهولة وسمائه بعيدة المنال. وعندما تبين لها أنها والصورة ضربا من الخيال انتقلت إلى مكان آخر لتمضية الوقت بطريقة أفضل. صنعت من لحاء شجر البتولا قوارب صغيرة وشحنتها بقواقع الحلزون، وأوفدتها فى رحلات تجارية إلى أبعد مما يوفده أى تاجر فى نيو إنجلاند، لكن الجزء الأكبر من هذه القوارب كان مستقرا على الشاطئ. أمسكت بأحد سرطانات البحر الأحياء من ذيله، وحققت غنيمة من بعض من نبات قرن الغزال، وقضت على أحد قناديل البحر بتركه يذوب فى حرارة الشمس. جمعت بعد ذلك حفنة من زبد البحر بلونه الأبيض، حيث كان يشكل خطا للمد الزاحف، وألقت به فى الهواء الطلق، وهى تطفر خلفه بخطى سريعة، لتمسك بندف الثلج الهائلة قبل أن تسقط على الأرض. وحين رأت سربا من طيور البحر، تقتات قوتها وترفرف عبرالشاطئ، شحنت الطفلة الماكرة مريلتها بالحصى، ثم أبلت فى رشقها إياها بلاء حسنا، بعد أن تسللت، متتبعة طيور البحر الصغيرة من صخرة لأخرى. كانت بيرل شبه متيقنة، من أنها قد أصابت بإحدى الحصيات طائرا صغيرا رماديا، أشهب الصدر، ففر محلقا فى الهواء منكسر الجناح. لكن الجنى الصغير أطلق تنهيدة وتوقف عن اللعب؛ لأنه شعر بالأسى لإيقاع الضرر بكائن ضعيف، مسالم مثل نسيم البحر أو مثل بيرل ذاتها.

كانت مهمتها الأخيرة جمع الأعشاب البحرية، من جميع الأنواع، لتصنع وشاحا لنفسها، أو عباءة، وغطاء للرأس، وهكذا تنتحل صورة الحورية الصغيرة. لقد أخذت عن أمها موهبة ابتكار الألبسة والفرش. ولوضع اللمسات الأخيرة على ثوب الحورية، تناولت بيرل بعض عشب الأنقليس وحاكت فوقه بقدر ما تستطيع، تلك الزينة التى ألفت رؤيتها على صدر أمها. إنه حرف الهجاء A ولكن الأخضر اليانع، وليس القرمزى! أمالت الطفلة ذقنها إلى صدرها وتأملت هذا الشعار، وكأن الشيء الوحيد الذى جاءت بسببه إلى العالم هو الكشف عما توارى خلف هذا الحرف من معان.

فكرت بيرل: "إننى محتارة فيما لو أن أمى سألتنى عن مضمون هذا الشيء".

فى تلك اللحظة سمعت صوت أمها فانطلقت فى رشاقة كأحد طيور البحر الصغيرة وظهرت أمام هيستير وهى تضحك وترقص وتشير بإصبعها إلى ما تزين به صدرها.

قالت هيستير بعد لحظة صمت: "صغيرتى بيرل إن هذا الحرف الأخضر لا يحمل أى معنى على صدرك. لكن هل تعرفين يا ابنتى ماذا يعنى هذا الحرف الذى قدر لأمك أن تحمله؟".

قالت بيرل: "بلى يا أماه، إنه الحرف الكبير A. إنك تعلمينني ذلك فى كتاب القراءة".

نظرت هيستير إلى وجهها الصغير بهدوء، ولكن رغم وجود ذلك التعبير الغريب الذى غالبا ما كانت تلحظه فى عينيها، فإنها لم تتمكن من إقناع نفسها بأن بيرل قد وصلها أى معنى يتعلق بالشارة. أحست برغبة متأصلة فى التأكد من هذه المسألة.

– "أتعلمين يا ابنتى فيم تحمل أمك هذا الحرف؟".

قالت بيرل وهى تنظر إلى وجه أمها بدلال: "بلى إننى فى الحقيقة أعرف. ذلك نفس السبب الذى يجعل القس يظل واضعا يده على قلبه!".

قالت هيستير ما بين جد وهزل جراء ما قالته الطفلة والذى يحمل تضاربا يدعو إلى الضحك، لكنها إزاء ما تلا ذلك من أفكار، امتقع وجهها: "وما هو سبب ذلك، وما شأن الحرف بقلب أحد سواى؟".

قالت بيرل بجدية تفوق ما كانت تتحدث به: "كلا يا أماه إننى أقول كل ما أعرفه اسألى الرجل الذى هناك، ذلك الذى كنت تتحدثين معه! قد يكون لديه ما يخبرك به. لكن وبالصراحة كلها يا أمى العزيزة، أخبرينى الآن عم يعنى هذا الحرف القرمزى؟ ولم تحملينه على صدرك؟ ولماذا يظل القس واضعا يده على صدره؟".

أخذت يد أمها بين يديها، وحدقت فى عينيها بجدية يندر أن تلاحظ فى حال تقلبها وجموحها، وطرأ ببال هيستير أن الطفلة فى حقيقة الأمر ربما قصدت التقرب إليها بطريق كسب ثقتها، وإنها تفعل

ما وسعها من جهد، وقدر ما تلم به من حنكة، لإقامة نقطة التقاء تتبادلان عندها المشاعر. وهذا ما جعل بيرل تظهر بصورة مختلفة. وظننت أمها نفسها منذ هذه اللحظة، وهى التى تكن لابنتها هذه المشاعر الفريدة، على التطلع إلى قليل من تجاوبها يخالف تقلبات هبوب عواصف أبريل تلك التى تمضى وقتها متلاعبة بالريح، وتثور دون سبب يذكر، وتجمح فى أحسن حالاتها، وتسبب البرودة وليس الانتعاش، وحين تتلقاها فى صدرك، تقابل منها بالصد، وتراها أحيانا وبغـير داع وبرقـة تحـمل الشك، تعبث فى شعرك فى نعومة، ثم لا تلبث أن تمضى إلى شئونها التافهة الأخرى، تاركة فى قلبك سعادة الحالمين. كان هذا أيضا هو تقدير الأم لميول الطفلة. قد يرى فيها أى مراقب آخر كثيرا من السمات غير المستحبة فيقدم لها ما هو أسوأ. لكن الفكرة التى وردت الآن وبقوة فى ذهن هيستير، كان فحواها أن بيرل بما لديها من نشاط مبكر ملحوظ وفطنة، قد تجاوزت بالفعل السن التى تمكنها من اتخاذ صديق، ثم تتلقى بالقدر الذى يمكنها تحمله، ما مر بأمها من كروب، مع افتقاد مشاعر احترام الآخرين، للابنة أو للأم. على أنه يمكن رصد ما يظهر من خلل فى شخصية بيرل من الوهلة الأولى، على أنه بوادر قوية على جرأة لا تعرف التراجع، ميول لا تخضع لنظام، وكبرياء لا يعرف الاستسلام، قد يدرج تحت معنى الاعتداد بالنفس، وسخرية مريرة من كل الأشياء، إذا دققنا النظر فيها، نجد أنها قد تحمل فى طياتها الاستهتار. ورغم أنها كانت تحظى بالمشاعر الرقيقة، ورغم أنها حتى هذه اللحظة حادة

وغير مستساغة، فإنها كلها كانت ثمرة الفاكهة الحريفة التى لم تنضج بعد. فكرت هيستير فى أن بيرل مع كل تلك السمات الأصيلة، ينبغى أن تكون قد ورثت من أمها من الشر الكثير، ذلك إذا لم تخرج من هذا الجنى الصغير امرأة نبيلة.

بدت نزعة بيرل التى لا سبيل إلى اتقائها، بالتحويم حول اللغز الخاص بالحرف القرمزى، إحدى السمات التى تصاحب أصل وجودها فى الحياة. فمنذ أن وعت الحياة، استهلتها بالتحويم وكأنه رسالتها المكلفة بها. كانت هيستير دائما تعجب من أن الله بمنحه الطفلة تلك النزعات المشار إليها، العدل والعقاب، لكنها حتى الآن لم يحدث مطلقا أن طرحت على نفسها السؤال، عما إذا لم يكن قد ارتبط بتلك المشيئة، ما يقصد به الرحمة والخير. ولو أن بيرل كانت قد تحلت بالإيمان والحق، كموفدة بالروح وليست طفلة عادية، ألا يحتمل أن تكون رسالتها تبديد الأحزان الراسخة في قلب أمها، وتحويله إلى مقبرة لتلك الأحزان؟، فضلا عن مد يد العون لها فى قهر انفعالاتها التى تتأرجح بين الجموح والاضطراب بل الأسيرة داخل قلب أشبه بالمقبرة؟.

تلك هى الأفكار التى كانت تشغل بال هيستير فى لحظة كهذه، تلح عليها بشدة حتى صارت بالفعل كالهمس فى أذنها.

أمسكت الطفلة بيرل بين يديها بيد أمها، واتجهت برأسها إلى أعلى وبدأت توجه تلك الأسئلة الدقيقة، مرة بعد مرة.

"ماذا يعنى الحرف القرمزى يا أماه؟ ولم تحملينه؟ ولماذا يظل القس واضعا يده على صدره؟".

قالت الأم لنفسها: "ماذا عساى أقول؟ كلا! إن يكن هذا ثمنا لاستدرار عطف الطفلة، فإننى لن أقدم على الوفاء به".

أعقبت ذلك بقولها، وقد ارتفع صوتها: "ما هذه الأسئلة أيتها الغبية بيرل؟ هناك أشياء كثيرة فى هذا العالم على الطفلة ألا تسأل عنها. ماذا أعرف أنا بشأن قلب القس؟ أما الحرف القرمزى فإننى أضعه بسبب خيوطه المذهبة!".

لم يسبق طوال سبع سنوات مضت أن كذبت بشأن الشارة التى على صدرها. ربما حدث ذلك لأنه كان أيقونة للعذاب والقسوة، ولكنه أيضا كان الروح الحارسة، وهو يتخلى عنها الآن، ويدرك أنه رغم رقابته الصارمة على قلبها، فقد بدأ بعض الشر يتسلل إليه، أو أن شرًا قديما لم يبرحه. أما بيرل فقد تخلت عن جديتها فى الحال.

لكن الطفلة رأت أنه من غير اللائق ترك الموضوع برمته. فخلال مرتين أو ثلاث وهما فى طريق العودة إلى البيت، وفى المساء أيضا، وحين تأوى بها هيستير إلى الفراش، ومرة أخرى بعدما يبدو فى الظاهر خلودها للنعاس، كانت بيرل تفتح عينيها، وفى عينيها السوداوين وميض ينذر بالشر، ثم تقول: "أماه.... ماذا يعنى الحرف القرمزى؟".

وفى صباح اليوم التالى، كانت الإشارة التى تنبئ عن يقظتها من النوم إطلالة رأسها من فوق الوسادة وتقدمها بالاستجواب الآخر، الذى جعلته مرتبطا ارتباطا وثيقا بتحقيقاتها بشأن الحرف القرمزى:

"أماه! أماه! لماذا يبقى القس يده فوق صدره".

ردت الأم بحدة لم تكن تسمح بها لنفسها من قبل: "كفى لسانك أيتها الطفلة الماكرة ولا تضايقيننى وإلا حبستك فى الغرفة الصغيرة المظلمة".

جولة فى الغابة

ظلت هيستير براين متمسكة بقرارها بإبلاغ السيد ديميسديل، مهما تحملت من ألم، أو سوء عاقبة فهما سواء الآن أو فى المستقبل، بالشخصية الحقيقية للرجل الذى كان يتسلل إليه خلسة ملتمسا مودته. لذلك ظلت دون جدوى ولعدة أيام، تتحين الفرصة لإبلاغه، فى إحدى جولاته التأملية، التى كانت على علم بأنه اعتاد القيام بها على شواطئ شبه الجزيرة أو على التلال المكسوة بالعشب فى البلدة المجاورة، وأنها لو قامت بزيارته فى مكتبه حيث يزوره كثير من التائبين على يديه، وكانوا من قبل قد اعترفوا بخطايا تصطبغ بصبغة مضمون الحرف القرمزى، فلا تتعرض فى الحقيقة لفضح ما هى بصدد الإفصاح به عن أمرها، كما أنها لن تعرض سمعة رجل الدين التى لا تشوبها شائبة للخطر. ولكنها من جهة كانت تخشى تدخل العجوز روجر تشيلينج وورث فى السر أو فى العلن، ومن جهة أخرى اعترى قلبها اليقظ شك من احتمال أن يحس أحد بما يدور، وأنها والقس من جهة ثالثة كانا فى هذا العالم الرحب بحاجة إلى الحرية، أثناء تبادلهما الحديث لهذه الأسباب كلها، فكرت هيستير براين فى لقائه فى سرية تامة وليس فى العلن.

في آخر الأمر، وأثناء عيادتها أحد المرضى، حيث كان السيد ديميسديل قد استدعى للدعاء له بالشفاء، علمت أنه قد رحل فى اليوم السابق للقاء الأب إليوت أثناء جولاته بين الهنود الحمر. وسوف يعود فى ساعة محددة، بعد ظهيرة الغد. لذا فإنها بحكم العادة اصطحبت الصغيرة بيرل والتى كانت بالضرورة رفيقة فى كل جولات أمها، مع أنها كانت تتسبب فى إزعاجها، ثم مضت فى طريقها.

كان الطريق الذى قطعته عابرتا السبيل من شبه الجزيرة إلى مناطق البرارى المعروفة، يعد ممرا معبدا للمشاة. امتد فى غير اتساق، صاعدا إلى مجاهل من الغابة البكر. أطبقت عليه الغابة من جانبيه فضيقت عليه الخناق، وظهرت فى كل جانب منه وقد غشيها الظلام والعتمة، وكشفت هى على هذا النحو عن ومضات خاطفة من نور الأفق، حتى أن عقل هيستير لم يخطئ فى تصور خلو المكان الذى طالما تجولته من قواعد للسلوك الإنسانى.

كان النهار باردا تغشاه الظلمة. امتدت السماء بالسحب الرمادية، ورغم أن السحب كانت الريح تحركها ببطء فإن ومضات من أشعة الشمس كانت تتراقص بين الفينة والأخرى، لاهية وحدها عبر الطريق. حلت هذه البهجة العجلى متنقلة من مكان إلى آخر، على المساحة الممتدة بطول الأفق عبر الغابة. انسحب شعاع الشمس اللاهى تلقاء نفسه حين أوشكتا على الوصول، لضعفه فى أحسن أحواله، فى ظل ما يسيطر على النهار والمشهد من كآبة، وترك

الأماكن التى كان يلهو فوقها أكثر وحشة، لأنهما كانتا تأملان أن تجدا تلك الأماكن وضيئة. قالت الطفلة بيرل: "أشعـــة الشمس لا تحبك، إنها تختفى وتفر تلقائيا، لأنها تخشى من شيء ما فوق صدرك. انظرى! إنها تلهو الآن بصورة عجيبة. توقفى هنا ودعينى أسرع فى الإمساك بها. إنها لن تفر منى لأننى لم أضع شيئا على صدرى بعد".

قالت هيستير: "لن يحدث ذلك أبدا يا ابنتى وأتمنى ألا يحدث".

تساءلت بيرل، وقد توقفت قليلا، قبل أن تهم بالعدو مباشرة: "ولم لا يا أماه ألن يوضع ذلك فى الحسبان حين أصبح امرأة؟".

أجابت الأم: "ابدأى العدو يا ابنتى والحقى بأشعة الشمس لأنها ستختفى فى الحال".

انطلقت بيرل، لمسافة كبيرة، وابتسمت وهى تلحظ أنها بالفعل قد لحقت بأشعة الشمس، ووقفت تضحك فى وسطها، متألقة بضيائها، مزدانة بنشاطها الناشئ عن سرعة حركتها. تعلق النور بالطفلة البائسة، وكأنه قد سر باللهو معها على هذا النحو، حتى أن أمها هى الأخرى قد تقدمت مسافة تقربها من الدخول فى الدائرة السحرية.

قالت بيرل وهى تهز برأسها: "إنها بسبيلها إلى الاختفاء الآن".

ردت هيستير وهى تبتسم: "انظرى، يمكننى الآن مد يدى والإمساك ببعضها".

حين حاولت أن تفعل ذلك، اختفت أشعة الشمس، ومن إشارات التألق، المتراقصة على قسمات وجه بيرل، تخيلت الأم أن الطفلة قد تشربت بداخلها الضياء، وأنها ستعاود إرسالها، بوميض ينير لهما الطريق، حين تتوغلان داخل ظلال الأحراش المعتمة. تأثرت كثيرا بتلك السمة فى بيرل وهى ترى النشاط الجديد الذى لا يفارقها، لأنها - فى رأيها - بسبب تلك الحيوية والانطلاق، لم يمسها داء الاكتئاب وسوء الخلق بسوء، وهما اللذان ورثهما أغلب أطفال ذلك العصر عن أسلافهم.

وربما كان هذا النشاط المحموم مرضا أيضا، ولكنه يعد انعكاسا للطاقة الهائلة التى قاومت بها هيستير ما عانته من هموم، وذلك قبيل ولادة بيرل. ولا مراء فى أن هذا فى حد ذاته يعتبر فتنة تأخذ بالألباب، تضفى على الطفلة بريق المعدن وصلابته. كانت هيستير تأمل فيما يأمله الآخرون، أن يعترى ابنتها حزن كبير، تصبح بعده مؤهلة لمشاركة الآخرين مشاعرهم. ولكن ما زال أمام بيرل فسحة كبيرة من الزمن.

قالت هيستير وهى تنظر حولها، من نفس المكان الذى لا تزال بيرل واقفة فيه تتلقى أشعة الشمس: "هلمى يا ابنتى، فإننا سوف نجلس لبعض الوقت داخل الأحراش، التماسا لبعض الراحة".

أجابت البنت الصغيرة: "إننى لم ينل منى التعب يا أماه، ولكن يمكنك الجلوس، لو كنت تستهلين ذلك بقص حكاية لى تمضية للوقت".

قالت هيستير: "حكاية يا ابنتى، عم ؟".

قالت بيرل وهى تمسك برداء أمها وترفع رأسها إلى وجهها ما بين دلال وجد: "آه، قصة عن الرجل الأسود. كيف يقيم فى الغابة، ويحمل معه كتابا، كتابا كبيرا، ثقيل الوزن، له مقبض حديدى، وكيف يقدم هذا الرجل الأسود القبيح كتابه لكل من يلقاه هنا بين الأشجار، وإنهم يكتبون فيه أسماءهم بدمائهم. ثم يضع علامته فوق صدورهم. ألم تقابلى الرجل الأسود من قبل يا أماه؟".

سألت الأم وهى تلم بما فى تلك الفترة من خرافات: "ومن أخبرك بهذه القصة يا بيرل؟".

قالت الطفلة: "إنها السيدة العجوز الجالسة فى ركن المستوقد، فى البيت الذى زرته ليلة أمس. كانت تظننى نائمة، أثناء حديثها فى هذا الشأن. قالت إن آلافا مؤلفة من الأشخاص التقوه هناك، وإنهم قاموا بتسجيل أنفسهم فى كتابه ووضعوا علامته عليهم. وإن السيدة العجوز هيبينز كانت واحدة من هؤلاء. وإن السيدة العجوز عكرة المزاج قالت بأن هذا الحرف القرمزى هو علامة الرجل الأسود عليك، وأنه يشتعل كاللهيب الأحمر حين تلتقين به فى منتصف الليل، هنا فى الغابة المظلمة. هل هذا صحيح يا أماه؟، وهل أنت بصدد لقائك به فى الليل؟".

سألتها هيستير: "وهل حدث من قبل أن قمت من نومك ووجدت أمك قد رحلت عن البيت؟".

قالت الطفلة: "لا أذكر شيئا من ذلك، ولو كنت تخشين من تركى فى كوخنا، لكان عليك أن تصحبينى معك. وكنت سأسر بالذهاب. ولكن أخبرينى الآن يا أماه هل للرجل الأسود هذا وجود؟ وهل التقيته من قبل؟ وهل هذه علامته؟".

سألتها الأم: "أتتركيننى أهنأ بالسكينة، لو أننى أخبرتك؟".

أجابت بيرل: "بلى، لو أنك أخبرتنى بكل شيء!".

قالت أمها: "التقيت الرجل الأسود مرة فى حياتى، والحرف القرمزى هذا علامته!".

دار الحديث بينهما على هذا النحو، ثم توغلتا إلى مجاهل الأحراش فى العمق كى لا تقع عليهما عين أى ممن يسلكون الطريق إلى الغابة. جلستا على كومة من الطحلب القديم، الذى كان فى زمن من القرن الماضى صنوبرة عملاقة، تتوارى بجذورها وجذعها فى الظلال المعتمة، ويشمخ أعلاها فى الفضاء الفسيح. اتخذتا مجلسا بجوار أحد الوديان الصغيرة، ظهرت فيه أكوام من ورق الشجر، وافترشت واعتلت فى ليونة كل أجنابه، كان به جدول صغير للمياه يتدفق فى منتصفه على فرش من أوراق الشجر المتساقطة والغارقة فى مياهه. كانت الأشجار المائلة فوقه تلقى إليه بفروعها الكبيرة، من وقت لآخر، فتعيق مسرى مياهه، وتمنعها من صنع الدوامات أو شق الأخاديد فى بعضه، فى حين كان يظهر فى ممراته الرقراقة الجارية، طريق لقناة افترشتها الحصباء والرمل الداكن الناعم. فإذا تابعت العين

مجرى النهير، أمكنها التقاط الضوء المعكوس من مياهه، حتى مسافة قصيرة داخل الأحراش، ولا يلبث أن يختفى أى أثر له وسط تشابك جذوع الأشجار والآكام، والصخور الضخمة المتناثرة فى كل مكان، والمغطاة بالأشنة الرمادية. ظهر أن كل هذه الأشجار العملاقة وكتل الجرانيت، تشير إلى صنع أحجية من مجرى هذا الجدول الصغير، مع خشية من احتمال أنه مع ثرثرته التى لا تنقطع ربما أخرج ما فى قلبه من قصص عن الغابة القديمة، وحيثما يصل تدفقه، أو يفضح أسرارها على صفحة بركة ساكنة. كان الجدول الصغير وهو ينسحب إلى الأمام، دائم الاحتفاظ برقرته فى رقة وسكون، بل وشجن، بصوت أشبه بطفل صغير، أمضى طفولته دون استمتاع باللهو، أو التعرف على كيفية المرح، وسط ما يرى من أحزان وأحداث يغلفها الشجن.

هتفت بيرل بعد أن أنصتت لوهلة لحديث النهير: "آه أيها الجدول الصغير، يا لك من نهير أحمق، باعث على السأم لم تبد هكذا حزينا؟ تحل بالشجاعة، ولا تضيع وقتك بين شكاية وتنهيد!".

لكن النهير، فى الفترة القصيرة من حياته التى قضاها بين الأحراش، مر خلالها بتجربة لا يستطيع الكف عن التحدث عنها، ويبدو أنه ليس هناك ما يقوله غير ذلك. كانت بيرل تشبه الجدول الصغير، فى كثير مما اعترض مسار حياتها من أسرار لا حصر لها. تدفقت عبر مشاهد اكتنفتها الظلمة. لكنها تختلف عنه فى أنها كانت تلهو وترقص، وتطفر برشاقة على دربها.

تساءلت: "ماذا يقول هذا النهير الصغير والحزين يا أماه؟".

وأجابت الأم: "لو أن لك من الشجن مثل ما لدى منه، لحدثك الجدول الصغير بها حتى لو أن ما يحدثك إياه مرتبط بى، لكن هيا يا بيرل فإننى أسمع صوت خطى آتية من الطريق، وجلبة يحدثها من يزيح فروع الشجر عن طريقه. إننى أطلب منك القيام باللعب، ريثما أتحدث مع ذلك القادم من هناك!".

سألت بيرل: "هل هو الرجل الأسود؟؟".

رددت الأم: "ألا تذهبين وتلهين أيتها الطفلة؟ ولكن لا تتوغلى بعيدا داخل الأحراش، وانتبهى إلى أول نداء أوجهه إليك".

وردت الطفلة: "بلى يا أماه، لكن إذا كان ذلك هو الرجل الأسود، ألا تدعيننى أمكث لوهلة، كى أراه، ومعه كتابه الذى يضعه تحت ذراعه".

قالت الأم وقد نفذ صبرها: "اذهبى أيتها الطفلة الغبية، فليس هذا بالرجل الأسود، ويمكنك رؤيته الآن من بين أفرع الشجر، إنه القس".

قالت الطفلة: "ذلك هو! أماه إنه إذن يضع يده على قلبه، ألأنه حين كتب اسمه فى الكتاب، وضع الرجل الأسود علامته فى ذلك المكان؟ ولكن لماذا لا يحملها على صدره، كما تفعلين أنت يا أماه؟".

هتفت هيستير براين: "اذهبى أيتها الطفلة إنك سوف تشعلين فى الغضب مجددا، ولكن ألا تذهبين حتى تستطيعين سماع خرير الجدول الصغير؟".

مضت الطفلة وهى تغنى، متتبعة مسار النهير، جاهدة فى مزج بعض إيقاعاتها الرشيقة، بصوته الحزين. لكن الجدول الصغير لم يسترح لهذا، وظل يردد سره غامض المعانى عن شىء ملغز، يبعث فى النفس الشجن، حدث من قبل داخل نطاق الغابة التى يلفها الظلام، ثم يصدر عن هذا النهير نواح ينبئ بشىء بسبيله إلى الحدوث الآن. وهكذا اختارت بيرل التى لديها ما يكفى من غموض يكتنف سنوات عمرها القليلة، اختارت أن تقطع كل ما يؤدى إلى إقامة علاقة تعارف لها مع الجدول الصغير. لذلك انطلقت إلى جمع شقائق النعمان وزهر البنفسج وبعض زهور بلون الحمام القرمزى. وقد عثرت عليها مستنبتة بين شقى صخرة كبيرة. حين غادرها الجنى الصغير، تقدمت هيستير براين خطوة أو اثنتين نحو الطريق المؤدية إلى الغابة، لكنها ظلت واقفة تحت ظل الأشجار الوارف. رأت القس وهو يتقدم عبر الطريق، بمفرده متوكئًا على عصا اقتطعها فى طريقه. بدا عليه المرض والإعياء، وظهر على هيئته إحساس الضعيف بالخوف، والذى لم يلحظ عليه من قبل فى جولاته داخل المستوطنة، ولا فى أى من حالات، كان يعتبر نفسه فيها عرضة للظهور أمام الناس. كان ظهوره هنا مثارا للشفقة، فى عزلة الغاب الموحشة هذه، والتى تعد فى ذاتها اختبارا صعبا للأرواح. بدا متثاقل الخطى فى سيره، كأنه لا

يرى سببا لقطع مزيد من الخطى، ولا يشعر بأى رغبة فى ذلك، ولكنه كان سيشعر بالسعادة لو أن هناك ما يحرك فيه هذا الإحساس أن يلقي بنفسه عند أسفل أقرب شجرة ويبقى مسجى إلى الأبد. تغطيه أوراق الشجر، وتتراكم التربة فوقه بالتدريج وتشكل هضبة صغيرة فوق جثمانه، ولا يهم إن دبت فيها الحياة أو لم تدب. فالموت أيضا يعد أمرا لا يحتمل اللبس من حيث تمنى حدوثه أو تحاشيه.

لم تظهر فى عين هيستير أعراض آلام أو ممانعة على السيد ديميسديل عدا ما لاحظته عليه الصغيرة بيرل من احتفاظه بوضع يده على قلبه.

١٧

القس وابنة أبرشيته

أوشك القس الذى كان يسير بخطى وئيدة، على الاقتراب من المكان الذى تقف عنده، قبل أن تتمكن هيستير براين من لفت نظره بالنداء. نجحت فى ذلك فى النهاية.

دعته فى البداية بصوت خفيض، ما لبث أن ارتفع، بل واحتد: "آرثر ديميسديل، آرثر ديميسديل".

انتبه على الفور وانتصب قوامه، كمن أخذ بالمباغتة؛ حيث كان غير راغب فى أن يلمحه أحد. ألقى ببصره جزعا فى اتجاه الصوت، رأى صورة لإنسان تحت الشجرة لم يميزه، يتشح كله بالسواد، مجسما بعض الشىء بالضوء الخابى الذى أحلكت به السماء المليئة بالسحب، وبالعتمة الناشئة عن تشابك أشجار الغابة لتحلك ضوء الظهيرة، لذلك لم يستطع أن يميز هذا الشكل، امرأة كانت أو شبحا. وربما تسبب فى هذا الالتباس الذى غشى دربه فى الحياة هكذا بهاجس كان يتسلل بين أفكاره.

اقترب خطوة فظهر الحرف القرمزى قال: "هيستير! هيستير براين! أصحيح أنك حية؟".

ردت هيستير: "أجل! حياة كالحياة التى أعيشها طوال سبع سنين مضت. وها أنت أيضا حى؟".

ليس غريبا أن يتساءل كل منهما عن وجود الآخر بالواقع والجسد، حتى وإن شك أيهما فى وجوده هو. غلف لقاءهما فى الغابة المظلمة الغموض، وكان أشبه بأول لقاء بينهما، فى عالم دونه هلاك، روحين توثق بينهما رباط، خلفاه وراءهما وأصبح ذكرى، لكنهما الآن قد وقفا يرتعدان فى قنوط، يلفهما الهول، ذلك أن هذا لا يتفق الآن ووضعيهما، ولا يتفق حتى مع رفقة تجمع بين روحين تحررا من جسديهما. كانا طيفين، كل منهما يرتعد فرقا من الآخر. ذلك فضلا عن أن كلا منهما يرتعد فرقا من ذاته، لأن الكارثة قد ردتهما إلى وعيهما وكشفت لكل قلب تاريخه وتجربته، وليس من عادة الحياة أن تفعل ذلك عدا أوقات رهيبة كتلك. لقد تبينت كل نفس ملامحها فى مرآة لحظة عابرة.

لحظة رافقها الخوف والتردد، وجسدها الفتور، وفرضتها الضرورة الملحة لذات اللحظة، وذلك حين مد آرثر ديميسدل يدا تغشاها برودة الموتى، ولمس يد هيستير براين الباردة كالجليد. لقد أزالت قبضتيهما على برودها كل دواعى الخشية فى اللقاء. وشعرا بتلقائية أنهما من عالم واحد.

تسللا عائدين بين الأحراش، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة، فلم يطلب أحدهما ذلك، بل تم الأمر بملء إرادتيهما، فى حين أسرعت

هيستير واتخذت مجلسا لها فوق كومة من الطحلب، كانت هي وبيرل تجلسان فوقها، حين عثرا على صوت يتبادلان به الحديث، تطرق في بادئ الأمر إلى ما يدور بين اثنين يعرف كل منهما الآخر، دار حول السماء الضبابية، ونذير هبوب العاصفة، وتلا ذلك سؤال عن صحتيهما. وهكذا قد خانتهما الشجاعة، في الاستطراد، لكنهما شيئا فشيئا، بدءا في تبادل الحديث بشأن ما يسكن في أعماق قلبيهما. كانا بعد أن فرق بينهما القدر وما واجها من أحداث، في حاجة إلى شيء من البساطة والعفوية للانطلاق وفتح أبواب الحوار. ذلك حتى تدخل أفكارهما الحقيقية فوق عتباتها.

بعد وهلة نظر القس بعينيه إلى عيني هيستير براين.

"هيستير أتشعرين بالسكينة؟".

تبسمت برقة وهي تنظر إلى صدرها ثم تساءلت: "أتلقاها أنت؟".

"كلا، لا شيء منها سوى القنوط! ما الذي يمكن أن أنشده، وأنا على هذه الحال، أعيش حياة كتلك؟ ألست ملحدا؟ إنسانا مجردا من الضمير، تتحكم فيه غرائزه البهيمية الوضيعة، كان يمكن أن ألقى السكينة قبل الآن. لا، وما كان يجدر بي أن أفقدها! ولكن بما أن الأمر له علاقة بروحي، فإنني مهما تأصل في من نواحٍ طيبة، فإن عطايا الرب وهو صاحب المشيئة، تتوافق والقسس أهل الشقاء الروحي. إنني شقي يا هيستير!".

قالت هيستير: "إن الناس تكن لك الاحترام! ومن المؤكد أنك قمت بعمل الخير لهم! ألا يجلب هذا الراحة لك؟".

رد القس بابتسامة مريرة: "شقاء أكثر يا هيستير، شقوة أكثر بكثير. أما عن العمل الصالح الذى يبدو أننى أقدمه فى الظاهر، فإنه خلا لدى من الإيمان. إنه بالضرورة ضلال، ماذا لنفس محطمة أن تفعل لصلاح الآخرين؟ أو لروح أدركها الفساد أن تفعل لتطهير نفوسهم؟ أما عن توقير الناس لى، فليت هذا التوقير تحول إلى كره وسخرية! يمكنك أن تعتبرى مثارا للإشفاق على، التزامى الوقوف على منبرى ومواجهتى عيونا كثيرة مسددة إلى أعلى، لترى وجهى، وكأن نورا من السماء يشع منه! كان على أن أرى جماعتى وفيهم نهم للحقيقة، يستمعون إلى كلماتى وكأن لسان بنتيكوست(*) يخطب فيهم! ليدركوا بعد ذلك ما بداخلى، وليروا الحقيقة المرة، فيمن اتخذوه قدوة لهم، كنت أضحك فى مرارة وعذاب نابعين من القلب، من التناقض بين ما أبدو عليه فى الظاهر وبين ما أنا عليه فى الحقيقة! والشيطان يضحك من ذلك".

قالت هيستير بهدوء: "إنك فى هذا توقع بنفسك ظلما. إنك ندمت كثيرا على ما فعلت. خطيئتك الآن خلفك، إنها فى الماضى البعيد وحياتك الآن ليست أقل قداسة فى الحقيقة عما كانت عليه فى

(*) بينتيكوست: عيد الخمسين عند البروتستانت.

نظر الناس. ألا تعد ثوبة تشهد بها وتتعهدها أعمالك الصالحة؟ فلماذا لم تحقق لك السكينة المنشودة؟".

أجاب رجل الدين: "كلا، هيستير كلا! لقد خلت من الجوهر! إنها ميتة ولا حياة فيها ولا يمكن أن تفعل من أجلى شيئا. أما التكفير عن الخطيئة فلدى منه ما يكفينى والتوبة لا أثر لها. وإلا، فإنه كان على منذ زمن مضى أن أخلع عنى ثياب القداسة الزائفة هذه، وأخرج بنفسى إلى الناس كى يرونى كما سيروننى يوم الحساب. إنك يا هيستير لسعيدة، لأنك تضعين الحرف القرمزى علانية، على صدرك. إنك لا تعرفين إلا القليل عن معنى الإحساس بالسكينة، حين تنظرين فى عين تعرفنى على حقيقتى، وذلك بعد عذاب من خديعة دامت سبع سنين! إن كان لى صديق واحد، أو كان هو عدوى اللدود. أنا الذى أتخم بعبارات الشكر من الآخرين. تمكنت كل يوم من الذهاب بنفسى، والاعتراف بأننى أسوأ الخاطئين، ظنا منى أن روحى قد تبقى حية بهذه الطريقة. أو أن قول الحقيقة بتلك الوسيلة سوف ينجينى! ولكن هذا الآن كله ضلال! كله خواء! كله عدم!.

نظرت هيستير براين إلى وجهه وترددت فى النطق بشىء. الآن وبعد أن عبر بانفعالاته الشديدة عما طال كبته، كانت كلماته قد دعتها إلى الإمساك بالفرصة لتبادره بالحديث فيما أتت من أجله. تغلبت على مخاوفها وتكلمت.

قالت له: "إن هذا الصديق الذى تنشده الآن، لتذرفا الدموع معا على ما ارتكبت من خطيئة، أنا شريكتك فيها" ترددت مجددا، ثم نطقت بالكلمات بعد جهد قائلة: "هناك خصم يعمل ضدك منذ فترة طويلة، ويقيم معك تحت سقف واحد!".

نهض القس من مكانه لاهثا قابضا بيده على صدره، وكأنه بصدد انتزاع قلبه من صدره. وقال: "رويدك، ماذا تقولين. خصم! معى تحت سقف واحد! ماذا تعنين؟".

كانت هيستير براين فى هذه اللحظة، تدرك ذلك الجرح العميق، الذى سببته لهذا الرجل البائس، بتركه للخديعة على مدى سبع سنين، أو لمجرد لحظة واحدة تحت رحمة امرئ لم يكن له هدف سوى الكيد له. كان تقرب خصمه الوحيد منه تحت أى قناع يتوارى فيه، كافيا لإثارة الاضطراب فى الدائرة السحرية لإنسان سريع الاستثارة مثل آرثر ديميسديل. لقد مر زمن على الفترة التى كانت فيها هيستير أقل تحسبا لهذا الأمر، أو ربما كانت قد تركت القس، بعد أن فقدت الثقة فى جميع الناس، بسبب ما عانت من مشاكل، وأن عليه أن يتحمل ما صورته لنفسها، على أنه قدر يمكنه احتماله. ولكنها وقد فات الأوان، ومنذ ليلة قيامه، ازدادت مشاعرها، وصارت أكثر رقة، وإنها الآن يمكن أن تقرأ ما فى قلبه بدقة أكبر. لم تكن تشك، فى أن وجود روجر شيلينج وورث الدائم، قد سمم حقده الدفين كل ما يحيط بالقس من هواء، وأن تدخله الذى رخص له به كطبيب فى مرض القس البدنى والنفسى، كانا من الفرص التعيسة التى آن لها أن تتحول

إلى هدف دنيء. وأنه عبر تلك الوسائل ظل ضمير المريض مستثارًا أو على حالته الأولى، ولم تكن المسألة برمتها بغرض معالجة ما يعانيه من آلام، ولكن لبث الاضطراب والخلل فى كيانه الروحى. ولم يكن لعاقبة ذلك أن تخطئ ما فيه من وحشية، فى جانبها المادى، والمقت الدائم للحق والخير، فى الجانب الروحى والذى يعد الجنون رمزا ماديا له.

ذلك هو الدمار الذى أوصلت إليه الرجل، فى الوقت الذى.... ولم لا نقول ذلك صراحة؟ فى الوقت الذى كان لا يزال محبوبا من الناس بحق! شعرت هيستير وكما أخبرت الرجل العجوز بذلك، أن التضحية بسمعة رجل الدين، وأن الموت نفسه، قد يكون هو البديل الأفضل الذى كان عليها أن تختار بينهما. وأكثر من هذا الآن، إنها يرضيها الآن أن تلقى بنفسها فوق أوراق الشجر وتموت من فورها تحت قدمى ديميسديل، وإن كان فى هذا ظلم بين تفضل ألا تقر به.

هتفت قائلة: "آه، اصفح عنى يا آرثر! وأن كل ما عدا ذلك من أشياء، كنت أجتهد فى توخى الصدق فيها! فالصدق هو إحدى الفضائل التى يجدر أن أتعهد بالالتزام بها والعمل به فى أوقات الملمات، ناهيك عن وقت تتعرض فيه أعمالك الصالحة، وسمعتك، وحياتك للجدل! لقد قبلت الخداع. ولكن الكذب ليس صوابا حتى لو أن الموت يتهددنا فى الطرف الآخر! أتدرك ما سوف أقول؟ إن ذلك الرجل العجوز! الطبيب! الذى يعرفه الجميع بروجرشيلينج وورث! قد كان زوجا لى!".

نظر القس إليها، لوهلة، بغضب شديد، امتزج فى أكثر من صورة بسماته الأرق والأطهر والأسمى، وكان ذلك الجانب منه هو ما يطلبه الشيطان، و من خلاله يسعى للظفر بالبقية الباقية. ولم يكن هناك ما هو أسوأ ولا أشرس مما تواجهه هيستير الآن. لقد طال تحول الطارئ على وجهه رغم قصر مدة هذا التحول. لكنه انهار تماما بسبب وخز الألم، بحيث لم تعد قدراته الأدنى تحتمل أكثر من أن تقاوم بصفة وقتية. سقط على الأرض ووارى وجهه بيديه. ثم غمغم قائلا: "كان يجدر بى أن أعرف ذلك. وكنت أعرفه. ألم ينكشف لى الأمر، بوجل تلقائى من قلبى عند وقوع نظرى عليه فى المرة الأولى، وفى أغلب الأوقات التى كنت أراه فيها بعد ذلك؟ لم لم أدرك ذلك يا هيستير؟ آه يا هيستير، يا من لا تعلم إلا القليل، القليل عما فى كل هذا الشىء من الهول! والعار! الخزى! وقبح هذا الانكشاف المدمر من قلب آثم مريض أمام نفس العين التى يسعدها رصده! إنك يا امرأة مسئولة عن هذا! وإننى لن أصفح عنك يا امرأة!".

قالت هيستير براين وقد ألقت بنفسها إلى جانبه فوق أوراق الشجر: "إنك ستصفح عنى! دع الله يقتص! وإنك سوف تصفح!".

برقة اليائسة والمباغتة أحاطته بذراعيها، ودفعت بوجهه إلى صدرها، غير عابئة بأن خده قد استقر فوق الحرف القرمزى. حاول أن يخلص نفسه وفشل. لم يكن لهيستير براين أن تتركه وإلا تلقت من وجهه العبوس.

فالكل فى وجهها عابسون، ذلك أن عبوسهم فى وجه المرأة التعيسة دام لسبع سنين طوال، ولا تزال تتحمل ذلك كله ولم يكن لها لتحول عينيها المفتوحتين أبدا والحزينتين.

والسماء أيضا غضبت عليها، لأنها لم تمت. لكن حنق هذا الرجل المريض الضعيف، الآثم، والمكروب، هو ما لا تقدر هيستير على تحمله وتبقى بعده على قيد الحياة!.

رددت عدة مرات: "ألن تصفح عنى الآن؟ ألا تكف من غضبتك على؟ أفلا تصفح؟".

أجاب القس فى النهاية، بعبارات صادرة عن جحيم الأسى، وليس الغضب: "إننى أسامحك، الآن أسامحك بحق. قد يعفو الله عن كلينا! فلسنا يا هيستير بأسوأ الخاطئين من الناس. هنالك من هو أكثر سوء من راهب فاسد. فانتقام هذا العجوز يعد أكثر سوءًا من خطيئتى. إنه ينتهك بدم بارد، حرمة قلب بشر. ولم نفعل أنا أو أنت شيئا من هذا القبيل!".

همست بقولها: "البتة. البتة. فما فعلناه كان تضحية فى ذاته. إننا نحسه به على هذا النحو، و صرح كل منا للآخر بذلك. أنسيت هذا؟".

قال آرثر ديميسديل وهو ينهض من فوق الأرض: "حنانيك، هيستير، كلا لم أنسه!"

عاودا الجلوس، متجاورين، وتشابكت يداهما، فوق جذع الطحلب المتخلف من شجرة ساقطة. لم تحمل لهما الحياة ساعة أكثر عتمة من تلك، وظل دربهما لمدة طويلة ينحو هذا المنحى، يحفه الظلام كلما امتد بهما أما الآن وقد احتوته الفتنة التى جعلتهما يتعلقان باللحظة ويطلبان المزيد والمزيد وفى النهاية المزيد. كانت الغابة حولهما موحشة، هبت ريح عبرت كل أرجائها. فتمايلت الأغصان فوق رأسيهما بينما دمدمت شجرة معمرة مخاطبة أختها وقد مضها الحزن، كأنها تحيطها بالقصة المؤلمة لهذين الجالسين تحتها، أو تمسك عن ذلك منعا لشر بسبيله للوقوع.

ها هما تعلقا بالمكان. كم كان يبدو طريق العودة إلى المستوطنة كئيبا بهذه الصورة؛ حيث على هيستير براين أن تعاود الالتزام بعرض العار، ثم معاودة القس اصطناع القداسة حفاظا على سمعته التى لا يجب أن تمس. لذلك فقد أطالا المكوث وقتا أطول. لن تتجاوز قيمة الذهب بريق الضياء فى تلك العتمة التى تغشى هذه الغابة الحالكة. ويظهر هنا أمام عينيه، الحرف القرمزى، فى غير حاجة إلى أن يحترق فى صدر امرأة ساقطة!.

هنا قد يبدو آرثر ديميسديل فى عينيها، صادقا للحظة، وهو الضال أمام الله وأمام الناس!.

توقف أمام فكرة طرأت فى ذهنه بغتة، فهتف قائلا: "هيستير، لقد طرأ رعب جديد، فروجر شيلينج وورث يعلم باتجاهك نحو

الكشف عن شخصه الحقيقى. فهل سيواصل إذن احتفاظه بسرنا؟ ماذا ستكون الآن عليه وجهة ثأره؟".

ردت هيستير بتمعن: "تتسم شخصيته بالكتمان الغريب وزاد من هذا الكتمان مساعيه السرية لتحقيق الثأر. إننى أرى أنه من غير المرجح أن يلجأ للكشف عن السر. إنه بلا شك بصدد السعى خلف وسائل أخرى لإشباع رغبته الدنيئة!".

قال القس باستغراب، وهو يشعر فى داخله بالانسحاق، ويضغط بيده على قلبه بعصبية، إشارة إلى أن ذلك يحدث رغما عنه: "وأنا! كيف يتسنى لى الحياة بعد ذلك، متنفسا نفس الهواء الذى يتنفسه هذا الخصم اللدود؟ أعملى فكرك من أجلى يا هيستير! فإن لديك القدرة على ذلك! فكرى من أجلى".

قالت هيستير مباشرة وبتؤدة: "يجب ألا تقيم بعد الآن مع هذا الرجل. ويجب ألا يقع قلبك بعد الآن تحت عينه المليئة بالشر".

رد القس: "كان ذلك بالنسبة لى أسوأ من الموت! ولكن كيف يمكن تحاشى ما كان سيحدث؟ وما الذى يبقى لى من خيار؟ هل أرقد الآن فوق هذه الأوراق المتساقطة، حيث ألقيت بنفسى، بينما تكشفين لى عن شخصيته؟ أيجب أن أوارى أسفلها وألقى حتفى فى الحال؟".

قالت هيستير والدموع تترقرق فى عينيها: "وا أسفاه... ترى أى دمار قد لحق بك! أتموت بسبب ما يعتريك من ضعف؟ ليس هناك سبب آخر!".

أجاب الراهب مذبذب الضمير: "إن عدالة الرب تلاحقنى وهى أكبر أيضا من أن أقاومها!".

أردفت هيستير: "قد تبدى السماء الرحمة، إن كان لديك القوة على اغتنامها".

رد قائلا: "كونى قوية من أجلى. واهدنى إلى ما يجدر بى أن أفعله".

قالت هيستير باستغراب، وهى تركز عينيها الغائرتين، وتمارس بفطرتها سلطان سحرها على نفس تحطمت وأصابها القهر، ومن الصعب إعادتها مجددا إلى ما كانت عليه:

"هل ضاق العالم عليك بما رحب إذن؟ وهل وقع الكون داخل حدود تلك المدينة، التى لم تكن منذ زمن قليل مضى إلا خلاء بلقاء، مثل الذى يضمنا الآن؟ إلام يؤدى طريق الغابة هذا؟ يؤدى إلى العودة إلى المدينة، مثلما تقول! لكن له وجهة أخرى إلى الأمام! كلما ازداد توغله داخل الأحراش، بعدت عن الأنظار فى كل خطوة تخطوها، ولا يلبث بعد عدة أميال، أن يختفى أى أثر لأوراق الشجر الصفراء التى يطؤها البشر بأقدامهم، هناك تصبح حرا. هكذا وبرحلة قصيرة، تكون قد انتقلت من عالم، تحيا فيه حياة البؤس، إلى عالم ينبغى أن تصير فيه سعيدا!، أولم يبق فى هذه الغابة المترامية الأطراف ظل يكفى لتوارى فيه قلبك من تفرس روجر شيلينج وورث فيه؟".

أجاب القس بابتسامة حزينة: "بلى، يا هيستير ولكن فوق أوراق الشجر الساقطة".

أردفت هيستير: "هناك إذن طريق البحر الفسيح، الذى جاء بك إلى هنا. ولو آن لك أن تختار سيعود بك إلى حيث جئت. فى وطننا الأم، سواء فى قرية نائية أو فى لندن الفسيحة، أو ألمانيا، وهذا صحيح، أو فرنسا، أو إيطاليا الرائعة يمكنك أن تكون بمنأى عن سطوته وبعيدا عنه! ثم ما شأنك أنت بأولئك القساة من الرجال وأفكارهم؟ لقد عطلوا خير ما فيك زمنا طويلا!".

أجاب القـس، وهو ينصـت وكأنه قد استدعى لتفسير حلم: "لا يمكن لهذا أن يحدث! فليس لدى قدرة على الرحيل. ليس أمام بائس تعس مثلى إلا أن يفكر فى قضاء ما بقى له من عمر فى المجال الذى عهد الله به إليه. سأظل أفعل و أنا وروحى فى ضياع، ما يجدر بى أن أفعله نحو أرواح الآخرين! لن أقدم على ترك عملى، رغم أننى كانت حارسا عليه غير أمين، وجزائى عن ذلك يقينا، هو الموت والعار، حين تدرك عينى الفزعة النهاية".

أجابت هيستير، وهى تصر على أن تبلغ به قدر ما لديها من حماس: "لقد سحقت، طوال سبع سنين، تحت وطأة الشقاء، لكنك سوف تترك كل هذا وراء ظهرك! لن يتسبب ذلك فى تعثر خطاك وأنت تطأ طريق الغابة، ولن تزيد حمولة السفينة به، لو فضلت عبور المحيط، فدع هذا الدمار والحطام حيث هو! وتوقف عن الزج بنفسك فيه! ابدأ من جديد! أيضنيك احتمال الفشل فى تجربة واحدة؟ ليس

الأمر على نحو ما تتوقع! فالمستقبل أيضا حافل بالتجربة والنجاح. هنالك ما يستحق التمتع به من سعادة! وهناك من الخير ما يجدر أداؤه! دع هذه الحياة المليئة بالزيف إلى أخرى ديدنها الصدق.

كن، لو آن لروحك أن تهيب بك إلى أداء رسالة كتلك، كمعلم وراهب للهنود الحمر. أو كن كما تغلب عليك طبيعتك، رجل علم وحكمة بين الحكماء والأعلى صيتا فى العالم المتقدم! عظ! اكتب! افعل الخير، افعل أى شيء إلا أن تنهار وتلقى حتفك! تخل عن لقب آرثر ديميسديل هذا، واختر لنفسك لقبا آخر، أرقى، يمكنك أن تخلعه على نفسك دون خشية أو وجل. ما الذى يدفع بك إلى التكاسل على هذا النحو؟ إن يوما آخر تحت وطأة الألم ينغص عليك حياتك! ويضعف فيك الإرادة والفعل! وسوف يتركك غير قادر حتى على أن تتوب! فهلم، دون تردد!".

هتف آرثر ديميسديل، وفى عينيه وميض راجف أشعله انفعالها، يضيء ويخبو: "آه، يا هيستير إنك تتحدثين عن رجل يعدو فى سباق وركبتاه من تحته تصطكان! لابد لى من الموت هنا. لم يعد بى من القوة والشجاعة ما يجعلنى أقدم على التوغل فى العالم المترامى الأطراف والذى تكتنفه الغرابة والوعورة".

كان ذلك هو آخر ما أظهر قنوط امرئ منهار القوى. لقد كان فى حاجة إلى دافع يجعله يمسك بالفرصة الأفضل التى وضح الآن أنها فى متناوله.

ردد عبارة: "بمفردي، يا هيستير".

ردت بصوت هامس خفيض: "لن تذهب بمفردك".

هذا إذن، هو كل ما قيل.

١٨

دفق من ضياء الشمس

تفرس آرثر ديمسديل وجه هيستير وقد ظهرت عليه بشائر الأمل والبهجة وبينهما الخشية، وشيء من الهلع مما أبدت من جسارة، جعلتها تصرح بما أشارت عليه، ولم يجرؤ على البوح به.

لكن هيستير بما جلبت عليه من حيوية وإقدام، وبسبب المدة الطويلة التى عاشتها، ليست فى عزلة عن المجتمع فحسب بل أيضا، خارجة على قوانينه، وطنت نفسها على حرية التأمل، وهذا كله غريب على القس. تجولت في القفر الموحش دون موجة أو دليل، وعلى قدر ما فى الغابة البكر من رحابة وغموض، وسط ظلمة يمسكان فيها بطرف الحوار الخاص بمصيرهما. كان قلبها وعقلها يشعران بالألفة فى القفار، وقدر لها الطواف بحرية الهندى الأحمر فى غابته. رأت على مدى ما مر من أعوام، من زاوية العزلة فى هذا المكان إلى أنظمة وضعها البشر، وإلى كل ما أقامه رجال الدين والقانون، منتقدة إياها بأدب قد يقل عما قد يحس به الهندى نحو أوشحة رجال الدين، وأرواب القانونيين، وآلة التعذيب، وحبل المشنقة، والحياة الأسرية، بل الكنيسة ذاتها. كان قدرها فى الحياة وظروفها تدفعها نحو التحرر من الالتزامات. وكان الحرف الأحمر جواز مرورها، فى الأماكن التى لا تجرؤ امرأة على وطئها بقدميها.

كان كل من العار! اليأس! العزلة! هم معلميها، منحوها القوة بقدر ما فيهم من غلظة، وشراسة، ولكنهم علموها كثيرا ولم يقصروا!.

أما القس من جانب آخر فإنه لم يمر بتجربة ما، ينظر إليها على أنها جرته خارج إطار القوانين المعمول بها، مع أنه فى مرة واحدة فحسب، انتهك بشدة أكثر تلك القوانين قداسة. لكن هذا الإثم ناشئ عن علاقة حب آثمة، وليس عن خرق مبدأ ما، أو حتى فى سبيل تحقيق هدف بعينه. منذ هذا العهد البائس روقب ما تأصل فيه من إحساس بالدونية وسرعة الانفعال، وليس من خلال سلوكياته، فهذه من الممكن ضبطها، بل حسبت عليه كل زفرة انفعال، وكل فكرة تخطر بباله. كان رجال الدين فى هذه الأيام على رأس المنظومة الاجتماعية، وكانوا دون غيرهم الأكثر تقيدا بأنظمتها، ومبادئها وحتى بمظالمها.

حاصره عمله كراهب وأحكم قبضته عليه. كان يفترض أن يشعر بالأمان فى وثار الفضيلة أكثر ممن لم يقدم أبدا على ارتكاب الإثم، وهو الذى ارتكب الخطيئة مرة فى حياته، واحتفظ بضميره فى حال يقظة وإحساس دائم بالألم بسبب تقيح الجرح الذى لا يندمل.

وفى ضوء هذا يمكننا أن نرى أن ما حدث لهيستير براين، وعلى مدى سبع سنين من العار والنبذ، لم يكن سوى إعداد لهذه اللحظة الفارقة. لكن بالنسبة لآرثر ديميسديل! إن كان هذا الرجل معرضا للسقوط مجددا فما هى الحجة التى يمكن أن يقدمها عن مواصلته حماقته؟ لا أعذار البتة، اللهم إلا أن يكون قد ظفر منها بشىء، يتمثل فى الانهيار الحادث بسبب مرضه المزمن والحاد، وأن

الاضطراب والاكتئاب قد غشيا عقله، من الإحساس بالندم الذى سحقه فى الوقت نفسه، حيث إن نكوصه عن الإقرار بحمقه، وبقاءه على هذا النحو من النفاق، يجعل من الصعب على الضمير إحداث التوازن، لأنه كبشر كان يتجنب خطر الموت والعار ومكائد خصمه فى السر له، ثم ظهر فى النهاية لهذا الحاج المسكين، والمريض والبائس، بصيص من عطف عليه ومن مشاعر إنسانية على دربه القفر الفظيع، وحياة جديدة ديدنها الصدق، بدلا من حكم قاس هو الآن يدفع كفارته. وإذا تركنا للحقيقة المرة والقاسية أن تفصح عن نفسها، فإنها تقول بأن الجرم الذى حدث فيه ارتكاب الإثم مرة واحدة فى حق نفس بشرية، لن يتم إصلاحه البتة فى هذه الحالة المشرفة على الهلاك. وقد حدث أن تم الاحتياط ليقع ذلك، بل والسهر لمنع حدوثه، حتى أن الخصم لن يعاود سلوك نفس الطريق الذى سبق أن اقتحم به القلعة، وأنه يجدر به فى هجومه اللاحق اختيار طريق آخر، أفضل من سابقه الذى حقق به النجاح من قبل. لكن الجدار المهدم لا يزال على حاله، تقترب منه خطوات العدو الحذرة، الذى سيعاود تحقيق نصر خالد.

لم يكن الصراع.. إذا كان هنا بالفعل صراع، فى حاجة إلى وصف. فدعونا نكتفى فى ذلك بأن رجل الدين قد قرر الفرار، وليس بمفرده.

فكر القس: "إننى إذا استطعت أن أستدعى إلى الذاكرة لحظة هناء أو أمل، طوال سبع سنين مضت، فإن على الآن أن أتحمل، للظفر برحمة السماء. ولكن الآن وبعد أن ابتليت بقضاء لا راد له، لم

لا يجدر بى، اقتطاف السلوى المقدمة للمجرم المدان قبل إعدامه؟ أو، إن كان هذا هو السبيل لحياة أفضل، كما تحثنى هيستير على سلوكه، فإننى لن أخسر ما يفضله! ولن أقوى فيما بعد على الحياة دون رفقة هيستير، فهى التى لديها قوة أكبر على الثبات، وهي الأكثر قدرة على بث الطمأنينة! آه يا هيستير، إنك أنت التى لا أجرؤ على رفع عينى إليك، هلا غفرت لى الآن!".

قالت هيستير فى هدوء، وقد تلاقت أعينهما: "إنك سوف ترحل".

ألقى وهج من نشوة فريدة، ببريقه المختلج، على ما يعتور قلبه من قلق. كان هذا هو أثر التحرر، على سجين فر لتوه من زنزانة سكنها داخل قلبه، فتنسم الهواء الطلق فى مكان، لا تحكمه القوانين، ولا يدين بالنصرانية، ولا خلاص فيه من خطيئة. بدا أن روحه قد سمت بوثبة واحدة، وبلغت الموضع الأكثر قربا للسماء، من كل هذا الشقاء الذى أبقاه هائما على وجهه فوق الأرض. اصطبغ الطابع الدينى المتأصل فيه بصبغة ثابتة للإخلاص فى العبادة فى طبعه.

هتف وهو فى حيرة من أمره: "هل أحس مجددا بالفرح؟ ظننت أن غرسه قد مات فى! آه، هيستير، يا ملاكى المفضل! يبدو أننى، أنا المعتل والمدنس بالإثم، والمحمل بالكرب، بصدد أن أطرح نفسى أرضا فوق أوراق الشجر المتساقطة، وأنهض إنسانا جديدا، لديه من المقدرة ما يجعله يمجده وهو الرحيم! تلك هى الحياة الأفضل! فلم لا نلقاها فى الحال؟".

أجابت هيستير براين: دعنا لا ننظر إلى الوراء، فالماضى قد ولى. فما الذى يجعلنا نتعلق به الآن؟ اسمع، إننى بحملى الشارة أصبح فى حل من هذا كله، أتظاهر وكأن شيئا من هذا لم يحدث البتة!".

قامت خلال حديثها بفض المشبك الذى كان يعقد الحرف القرمزى على صدرها ونزعته، وألقت به بعيدا عنها بين أوراق الشجر، أضاءت الشارة العجيبة على الحافة الأقرب للغدير. كان يمكن لو أنه ألقى أبعد من ذلك أن يسقط فى المياه، ويضفى على النهير مسحة أخرى من الأسى يحملها معه فى مساره فضلا عن حمله القصة الغامضة التى لا يزال يتهامس بها.

لكن الحرف الموشى، يرقد هناك وامضا بالنور، كجوهرة ضائعة، لا يلبث أن يلتقطها عاثر الحظ من عابرى السبيل فتتلبسه منذ تلك اللحظة أوهام غريبة عن الإثم، وعن هموم تسكن القلب، ويصيبه سوء حظ لا آخر له.

برحيل علامة العار عنها، أطلقت هيستير براين زفرة طويلة عميقة، تخففت بها روحها من عبء العار والكرب. ويا له من فرج منشود! لقد تحملت الأعباء حتى عرفت الحرية! وبمحض إرادتها، خلعت القبعة المعروفة، التى كانت توارى بها شعرها، ثم أسدلته على كتفيها، حتى أنه مع وفرته وحلوكته، يتماوج فيه الضوء والظل، فيضفى على قسمات وجهها سحر النعومة. داعبت شفتيها وأشرقت من عينيها، بسمة وضاءة رقيقة، انبعثت من شغاف قلب الأنثى فيها. توردت وجنتها بوهج اللون القرمزى بعد أن طال شحوبها. لقد ردت

إليها أنوثتها، ويفعها، وكل مقومات الجمال فيها مما يطلق عليه الرجال "ما سلف"، وهو ذلك الذى لا يتعرض للنسيان، والتحم ذلك كله بأملها البكر، وتطلعها إلى سعادة فى مواجهة المجهول، داخل الدائرة السحرية للحظة. وكأن ظلمة الأرض والسماء، ليستا سوى دفق هذين القلبين المحطمين، وقد انقشعت هذه العتمة بزوال ما فيهما من شجن. انقشعت كلها على الفور، مع ابتسامة مباغتة من السماء، بضياء الشمس، يصب دفقه الوافر داخل الغابة المعتمة، فيلون كل ورقة خضراء بلون الذهب، ويحول المتساقط منها إلى ذهب، ويبعث الضياء فى جذوع الأشجار المعمرة الوقور بلونها الكالح. التحفت الآن كل الموجودات فى هذا المكان بالنور، بعد أن غشيتها الظلال. كان لابد لمسار هذا الجدول الصغير أن يذهب بضوئه المتراقص إلى بعيد، فى قلب الأحراش التى يكتنفها الغموض، فيضحى الغموض بهجة.

كانت تلك مظاهر حنو الطبيعة، فى إسعادهما كروحين، رغم ما فى الغابة من جموح وتوحش، وعدم امتثال لقوانين البشر، أو استنارة بالحق الأعلى. فالحب سواء ولد لتوه، أو نهض من سبات طويل، ينبغى دوما أن يصنع ضياء الشمس التى تملأ القلب بفيض من النور، يعم ضياؤه وجه الوجود. ولئن كانت الغابة المظلمة لا تزال تحتفظ بعتمتها فإنها ستشرق فى عينى هيستير براين، وعينى آرثر ديميسديل.

نظرت إليه هيستير، بإحساس آخر بالبهجة ثم قالت: "إنك بالطبع تعرف بيرل، ابنتنا الصغيرة بيرل! تعرفها أجل إننى أعرف

ذلك لكنك ستراها الآن فى صورة مختلفة. إنها طفلة غريبة الأطوار! من الصعب على فهمها! لكنك ستحبها جدا، كما أحبها، وسوف ترشدنى إلى كيفية معاملتها".

سأل القس بما ينم عن شعور بالقلق: "أتعتقدين أن الطفلة سيسرها أن تعرفنى؟ إننى أجفل من الأطفال لما يبدونه فى الغالب من ريبة ونكوص عن التآلف بى، إننى أخاف حتى من بيرل!".

أجابت الأم: "آه، إن هذا يدعو إلى الأسى، لكنها ستحبك كثيرا، وأنت أيضا سوف تحبها، إنها لا تبعد عنا كثيرا. سأدعوها! بيرل! بيرل!".

علق القس بقوله: "إننى أرى الطفلة، ها هى تقف هناك فى خيوط من أشعة الشمس، على مقربة من الضفة الأخرى للغدير. أتظنين أن الطفلة ستحبنى؟".

ابتسمت هيستير وعاودت النداء على بيرل، التى كانت بادية للعيان على نحو ما، حيث وصفها القس، فكانت كالطيف الذى تزين بالضياء فى شعاع الشمس الساقط، عبر قوس من فروع الشجر. تردد الشعاع جيئة ورواحا، فتراوح جسدها بين عتمة وجلاء، بين الطفلة الحقيقية والطفلة الروح، مع عودة النور وذهابه. سمعت صوت أمها وتقدمت ببطء وسط الأحراش.

لم تر بيرل أن وقتها مر هباء، خلال حديث أمها مع القس. أصبحت الغابة، رغم ما ظهر من عبوس أمام هذين الذين جلبا معهما آثام وأدران الدنيا إلى قلبها، أصبحت الغابة رفيق لعب للطفلة البائسة،

فضلا عن كونها صاحبة خبرة فى ذلك. وحيث إنها كانت حزينة كالعادة، فقد أظهرت فى ترحيبها بالطفلة أكبر قدر من رقة المسلك. قدمت إليها عنب الحجال، نتاج الخريف الفائت، والذى لا ينضج إلا فى الربيع، وقد احمر لونه الآن، بينما قطرات عصارته الدموية تساقطت على أوراق الشجر الذابلة. قامت بيرل بجمعها، وتلذذت بمذاقها الطبيعى. لم يجد صغار ساكنى الغابة من نبات وحيوان، أدنى مشقة فى إفساح الطريق لها. هرعت أنثى الحجال وخلفها عشرة من صغارها، إلى الأمام متوعدة، لكنها تراجعت فى التو عما أبدته من شراسة وقرقأت لصغارها بما يفيد الأمان. دعت حمامة وحيدة على فرع شجرة منخفض بيرل إلى الجلوس تحتها، وأصدرت صوتا يحتمل الترحيب والتحذير. ثرثر سنجاب من بيته أعلى الشجرة للطفلة، بصوت يعبر إما عن الغضب أو البهجة، لأن السنجاب فى طبعه سرعة الغضب والميل إلى الهزل، مما يجعل من الصعب تمييز حالته المزاجية، ثم ألقى ببندقة على رأسها، كانت البندقة نتاج السنة الماضية، فقضمها بأسنانه الحادة. انتبه ثعلب من نومه على وقع خطاها الرشيقة فوق أوراق الشجر ثم نظر إلى بيرل بتمعن، ووقع فى حيرة بين أمرين إما أن يطلق لساقيه العنان أو يعاود رقاده فى نفس المكان. قيل إن ذئبا قد أقبل غليها وتشمم رداءها، والرواية هنا يستحيل حدوثها يقينا وقدم إليها رأسه المفترسة لتربت عليها بيدها. يبدو رغم ذلك أن الغابة الأم وموجوداتها التى تحمل الشراسة التى ترعاها، تعرفوا على الجانب الوحشى لأبناء عشيرتهم فى طفلة من بنى البشر.

وكانت هنا أكثر ترفقا مما كانت عليه فى طرقات المدينة، التى يفترشها العشب، أو حتى فى كوخ أمها. تبين أن الزهور تعرف بهذا الأمر، فهمست إحداها للأخرى بقولها: "تجملى بى أيتها الطفلة الجميلة، اتخذينى زينة لك!"، ولكى تدخل عليهم المسرة، قامت بيرل بجمع زهور البنفسج وشقائق النعمان وزهور الحوض، وبعض غصينات خضراء نضرة، احتجزتها الأشجار المعمرة تحتها لتعرضها أمامها. زينت شعرها وخصرها الناحل بكل هؤلاء وصارت الحورية الطفلة، أو حورية الغابة الصغيرة، أو أى شىء آخر توثقت مشاعر العطف بينه وبين الغابة القديمة. كانت بيرل قد تجملت على هذا النحو، حين سمعت صوت أمها، فشرعت متباطئة فى العودة.

متباطئة، بسبب رؤيتها القس.

الطفلة على ضفة الغدير

رددت هيستير براين وهى تجلس بجوار القس يرقبان معا بيرل: "ستحبها كثيرا، ألا تظن أنها جميلة؟ انظر إلى ما لديها من براعة جعلتها تجمل نفسها بهذه الزهور البسيطة! إنها لو جمعت الدر والماس والياقوت من الغابة، ما جعلوها فى هيئة أفضل مما هى عليه. إنها طفلة رائعة. لكنى أعرف أى وجه شبه تحمل!".

قال آرثر ديميسديل بابتسامة تنم عن قلق: "أتعرفين يا هيستير، أن هذه الطفلة العزيزة التى تطفر إلى جانبك، تسبب لى شعورا بقلق شديد؟ كنت أتخيل يا هيستير ويا لها من فكرة، وأى قدر تحمل من الفزع! أن قسمات وجهى يتكرر جزء منها على وجهها ويصيبنى هلع من أن الناس قد يلحظون ذلك! لكنها تكاد تكون أنت!".

أجابت الأم بابتسامة رقيقة: "كلا، كلا، ليس كثيرا، الأمر يحتاج إلى وقت قليل كى تتبدد خشيتك من تحديد وجه الشبه. ولكن أى جمال هذا الذى تبدو عليه، وهذه الزهور البرية فى شعرها! إنها تبدو كأنها إحدى الحوريات، التى تركناها فى بلدنا إنجلترا الحبيبة، وقد خرجت من مكمنها لملاقاتنا".

رافق هذا مشاعر لم يجرباها من قبل، وهما يراقبان بيرل وهى تتقدم ببطء. كان طيفها البادى لهما هو الرباط الذى يجمع بينهما. كان كل ما تقدمه للناس خلال السنوات السبع الماضية، مثل

ما في الهيروغليفية الحية والتي انكشف بها ما كانا يحرصان بشدة على إخفائه من أسرار كلها مدونة في هذا الرمز وكلها واضحة للعيان، ذلك إن كان هناك نبي أو ساحر برع في قراءة مضمون اللهب. لقد كانت بيرل توحدا لكيانهما معا. ولندع ما مضى من سوء إلى حيث كان، ونسأل عن كيفية تسلل الشك إليهما بأن وجودها على قيد الحياة وقدرهما المستقبلي، قد اتحدا بعد أن شاهدا بأعينهما في هذه اللحظة تجسيدا لهذا التوحد فضلا عن أرفع مثال جمع بينهما وسيجمعهما إلى الأبد، إن فكرة كهذه وربما أخريات كانا يجهلانها ويستعصي عليهما فهمها، قد ألقت بظلال الرهبة على الطفلة وهي تتقدم نحوهما.

همست هيستير: "لا تدعها تلحظ شيئًا غير عادي، فلا شغف بها ولا انفعال، فابنتنا بيرل جني صغير يتسم بالغرابة وسرعة التقلب أحيانًا. يندر أن تتقبل استثارة عاطفتها، حين لا تدرك أبدا السبب، لكن الطفلة تمتلك مشاعر قوية! لأنها تحبني وسوف تحبك".

قال القس وهو ينظر إلى هيستير براين: "لا يمكنك أن تتخيلي قدر خشية قلبي من لقاء كهذا، وقدر شوقي إليه. لكن الأطفال في الحقيقة وكما ذكرت لك، لا يتوفر لديهم الاستعداد للميل إلى التآلف معي. إنهم لا يجلسون على ركبتي ولا يثرثرون في أذني، ولا يستجيبون لابتسامتي، بل يقفون من مسافة ويرمقونني في غرابة. حتى الرضع منهم، حين آخذهم بين ذراعي، يجهشون بالبكاء. فضلا عن أن بيرل، أظهرت الرقة معي، مرتين طوال عمرها القصير!

تذكرين أنت المرة الأولى جيدا! وكانت الأخيرة حين اصطحبتها معك لبيت الحاكم العجوز قاسى القلب".

أجابت الأم: "وقد دافعت بحرارة عنى وعنها. لا تخش شيئًا! إنها قد تبدى فى البداية شيئا من الغرابة والخجل، وسرعان ما تتعلم كيف تحبك!".

كانت بيرل فى هذه اللحظة قد وصلت إلى ضفة الغدير الأبعد، وتوقفت عندها، تحدق فى صمت فى هيستير ورجل الدين، اللذين كانا جالسين فوق جذع الشجرة المطحلب، ينتظران لقاءها. تصادف أن شكل الغدير بركة صغيرة حيث توقفت، كانت رقراقة ناعمة بحيث عكست خيالها الصغير، بكل ما يحمل من روعة وجمال، بدا على الزينة التى وضعتها عليها من أغصان الشجر الصغيرة المجدولة والزهور، بل بصورة تسمو على الواقع وتشف. إن هذه الصورة على قدر ما كادت تطابق بيرل فى الواقع، فقد كانت تبدو مرتبطة بشىء غامض، لا يدرك بالحواس فى الطفلة نفسها. كانت صورة بيرل بعد توقفها هناك غير مألوفة. إنها لا تحرك بصرها عنهما فى محيط الغابة المعتم والموحش، وهى مضيئة بأشعة الشمس، وكان ذلك التلاحم يعبر عن عطف عليها لا شك فيه. وقفت فى الصورة من تحتها على صفحة الجدول طفلة أخرى، طفلة أخرى شبيهة بها، يسقط عليها نفس الضوء الذهبى. أحست هيستير هى الأخرى، بشىء من الحيرة والتلهف، فى بعدها عن بيرل، وكأن الطفلة بطوافها فى الغابة، قد ضلت طريقها إلى العالم الذى أقامت فيه مع أمها، وأنها الآن تحاول عبثا العودة إليه.

احتمل هذا الانطباع الخطأ والصواب، فالأم والابنة قد تباعدتا، ووزر ذلك يقع على الأم، وليس على بيرل. ففى الوقت الذى كانت الأخيرة من جانبها تتجول فى الغابة، أتيح لشخص آخر الدخول فى دائرة مشاعر الأم، وبدل من طبيعة تلك المشاعر جميعا، حتى أن بيرل العائدة من تجوالها، لم تتمكن من أن تعثر على مكانها المنشود، وكان من الصعب عليها أن تعرف أين هى.

علق القس المنفعل بقوله: "أتوجس بشدة من أن يكون هذا الغدير، قد صنع فاصلا بين عالمين، وأنك لن تلتقى بابنتك بيرل مجددا. أم أنها وهى نفس الجنى التى حدثتنا عنه الأساطير، ستكون بصدد الامتناع عن عبور النهير؟ استحثى إياها على عدم التباطؤ؛ لأن ذلك يسبب لأعصابى التوتر".

قالت مشجعة إياها، مادة يديها إليها: "هيا يا ابنتى العزيزة! يا لقدر ما تتباطئين! منذ متى قبل الآن، كنت بهذا القدر من التكاسل؟ يوجد هنا صديق لى وهو لابد أن يكون صديقا لك أيضا. ومنذ الآن سيتضاعف قدر ما كانت تمنحك أمك من محبة. اعبرى الغدير قفزا وتعالى إلينا. فإنك تقفزين كغزالة فتية".

ظلت بيرل واقفة على ضفة الغدير الأخرى، مصرة على رفض الاستجابة لأى من تلك العبارات الحلوة. صوبت عينيها الحادتين والناطقتين بالجموح، نحو أمها، ثم نحو القس، ثم لم تلبث أن جمعت الاثنين فى نظرة واحدة، وكان ذلك لكشف وفهم ما يجمعهما من مشاعر حملها كل منهما لصاحبه. ولسبب غير معلوم، انسلت يد آرثر ديميسديل إلى قلبه، حين أحس بعين الطفلة مصوبة عليه بما

يشير إلى أن تلك العادة بصدد أن تكون لا إرادية. وإحساسا منها فى آخر الأمر بنوع فريد من التسلط، مدت بيرل يدها، مشيرة بسبابتها الصغيرة إشارة واضحة إلى صدر أمها.

كانت من تحتها فى مرآة صفحة الغدير، صورة الطفلة بيرل المأتلقة وقد تجملت بالزهور، مشيرة هى الأخرى بسبابتها الصغيرة.

قالت هيستير مستغربة: "أيتها الطفلة الغريبة، لم لا تأتين إلى؟".

ظلت بيرل تشير بسبابتها، وقد تجمعت علامات الغضب على وجهها، غضبا يغلب عليه الطابع الطفولى معبرا عن قدر ما يظهره الأطفال من طيش، بالقدر الذى يشبه ما أظهرته ملامح وجه الطفلة. تسمرت قدم الطفلة بالأرض، وصحب ذلك مزيد من الإشارات والتعبيرات العسيرة على الفهم، فى حين كانت الأم تواصل دعوتها إياها، وقد رسمت على وجهها تعبيرات جديدة بابتسمات منها غير معهودة من قبل. وعلى صفحة مياه الغدير أيضا، كان جمال الصورة العجيب يعكس نفس حالة الغضب، والإشارة بالإصبع، والإيماء الغريب، يؤكد مطابقته لوجه الصغيرة بيرل.

هتفت هيستير براين، التى كانت رغم اعتيادها هذا المسلك، من الجنى الطفلة فى مناسبات أخرى، متلهفة بطبيعتها إلى مسلك حميد منها الآن: "أسرعى يا بيرل وإلا غضبت منك. اقفزى عبر النهير، أيتها الطفلة الماكرة وأهرعى إلى هنا، وإلا كان على القدوم إليك".

لكن بيرل لم يغمض لها رمش من تحذير أمها، سوى أن خففت من غلوائها جراء ما تتلقاه من مناشدة، ثم لم تلبث بغتة أن انطلقت فى انفعالات وإيماءات عنيفة، ظهور جسدها الصغير فى تقلصات حادة. أضافت إلى هذا التهور الجموح صراخا مدويا، تردد صداه فى كل أرجاء الغابة، حتى أنها وحدها كما كان عهدها فى غضب لا سبب له، بدت وكأن حشدا آخر من مجهولين منحوها عطفهم وتأييدهم. ومرة أخرى كان الغضب المرئى على صفحة النهير المنبعث من صورة بيرل، مكللا ومحاطا بالزهور، ممعنا فى إيمانه، بل مسمرا قدميه، ولا يزال بين هذا كله مشيرا بسبابته الصغيرة نحو صدر هيستير!.

همست هيستير إلى رجل الدين، وقد كسا وجهها شحوب رغم ما بذلته من جهد فى عدم إظهار ضيقها وقلقها فقالت له: "إننى أعرف ما تعانى منه الطفلة، فالأطفال لا يقوون على تحمل أبسط ما يطرأ من تغيير على ما يألفونه ويرونه أمامهم من الموجودات بصفة مستمرة. إن بيرل تفتقد شيئا ترانى دائما أحمله".

أجاب القس: "أرجوك، لو أن لديك من الوسائل ما يعيد إلى الطفلة السكينة فافعليه الآن!"، ثم أضاف وعلى وجهه محاولة ابتسامة: "فبغض النظر عن كونه لعنة مهلكة من ساحرة شمطاء، مثل السيدة هيبينز، فإننى لا ألم الآن بأكثر من هذا الإحساس في طفلة واحدة. ففى جمال بيرل اليافع، كما فى الساحرة الشمطاء، هناك فعل خارق للطبيعة".

توجهت هيستير مجددا نحو بيرل، وقد احمرت وجنتاها خجلا، وبلمحة إلى رجل الدين بطرف عينها معبرة عن إدراكها لما قاله، وقبل حتى أن تتاح لها الفرصة للحديث زفرت زفرة طويلة تنم عن الحسرة وتحول احمرار وجنتيها إلى امتقاع شديد وقالت فى أسى: "بيرل انظرى تحت قدميك! هناك! على ضفة الغدير هذه!".

اتجهت عينا الطفلة إلى المكان المشار إليه، حيث ألقى بالحرف القرمزى، على مقربة من ضفة الغدير، وقد انعكس منه لمعان خيوطه المذهبة.

قالت هيستير: "أحضريه هنا".

أجابت بيرل: "تقدمى أنت وخذيه".

علقت هيستير وهى ترنو بطرف عينها إلى القس: "يا لك من طفلة، آه لدى كثير عنها سأخبرك به. ولكنها وتوخيا للحقيقة، كانت محقة فى شأن هذه الشارة المنفرة. كان على تحمل عذابها لفترة أطول، مجرد أيام قلائل حتى نترك هذه البقعة، ونلقى بها خلفنا وكأننا كنا نحلم. لن تستطيع الغابة إخفاء هذه الشارة عن الأنظار وسيتناولها المحيط من يدى ويبتلعها!".

بهذه العبارات تقدمت هيستير إلى ضفة الغدير، وتناولت الحرف القرمزى، وعقدته مجددا على صدرها. مع تطلعها منذ لحظات إلى غرق الشارة فى قاع البحر كما ذكرت هيستير، وأحست بوطأة قدرها المحتوم، حين استعادت الشارة الرهيبة من كف القدر. ودفعت بها إلى مكانها الأبدى! وهى التى كانت قبل ذلك وللحظات تستنشق هواء الحرية! وها هى المأساة القرمزية تعود مجددا، لتومض

فوق مكانها القديم! و قدر للرمز أن يكون هكذا، سواء كان يرمز أو لا يرمز إلى أن فعل الشيطان ينتحل شخصية القدر العاثر. قامت هيستير براين بلم ما تناثر من غدائر شعرها وخنقته تحت غطاء رأسها. وكأن الحرف القرمزى يحمل سحرا مدمرا، حيث فارقها حسنها، ودفء وخصوبة الأنثى فيها، يشبه في ذلك أشعة الشمس الهاربة، وبدا ظل كثيف يسقط عليها..

حين جرى هذا التحول الرهيب مدت يدها نحو بيرل.

سألتها بنبرة هادئة وهى تواصل تقدمها نحوها: "أتتعرفين على أمك الآن يابنية؟ أتأتين إلى عبر النهير، وأمك الآن تحمل عارها وهى الآن حزينة".

أجابت الطفلة وهى تعبر الغدير وتقبض على كف هيستير بين كفيها: "أجل الآن أفعل، فأنت الآن أمي بحق، وأنا صغيرتك بيرل!".

بإحساس رقيق لم يعهد منها، جذبت نحوها رأس أمها وقبلت جبهتها ووجنتيها لكن بيرل بعد ذلك، وبوازع من ضرورة ملحة، أجبرت الطفلة دائما على أن المزج بين مشاعرالرضا التى كان عليها إظهارها إن سنحت الفرصة، بنوبة من الغضب، وضعت فمها على الحرف القرمزى وقبلته هو الآخر!.

قالت هيستير: "إنك حين تظهرين لى قليلا من الحب، تسخرين منى الود! ليس هذا من باب العطف".

سألت بيرل: "لماذا يجلس القس هناك؟".

ردت الأم: "إنه يترقب الاحتفاء بك، هلمى واسأليه أن يباركك! إنه يا صغيرتى بيرل يحبك ويحب أمك أيضا. أولا تحبينه؟ هيا، إنه يترقب الترحيب بك".

قالت بيرل وهى تطالع وجه أمها بذكاء حاد: "أيحبنا؟؟ أيعود معنا، نحن الثلاثة إلى البلدة ونحن متماسكو الأيدى؟".

أجابت هيستير: "ليس الآن يا ابنتى الحبيبة، ولكنه فى قابل الأيام سيسير معنا وتتماسك أيادينا، سيكون لنا بيت ومدفأة، وستجلسين على ركبته، ليعلمك أشياء كثيرة، ويحبك بحق. وستحبينه، أليس كذلك؟".

استفسرت الطفلة: "وهل سيظل واضعا يده على قلبه؟".

قالت الأم باستغراب: "يا لك من طفلة حمقاء، ويا له من سؤال".

لكن سواء سيطرت عليها مشاعر الغيرة، التى تميز كل طفل مدلل تجاه منافس قوى، أو بسبب تقلباتها الناجمة عن طباعها الغريبة، فإن بيرل لم تظهر أى قدر من الود نحو رجل الدين. وقد بذل جهد جهيد من جانب أمها لجلبها إليه بعد تراجع، وإظهار لامتعاضها مع التجهم الغريب، الذى ظل يلازمها منذ سنوات طفولتها الأولى، حيث كانت تمتلك مجموعة فريدة، وتستطيع تحويل ملامح وجهها المتحركة، إلى سلسلة أشكال عديدة كل منها أو كلها يبعث على الرعب. انحنى القس إلى الأمام وقد لفه الحرج، لكنه كان آملا فى أن قبلة واحدة قد تكون هى الطلسم، الذى يجعله داخل دائرة اهتمامات الطفلة المشمولة بالود، فمال وطبع قبلة على جبينها. أعقب ذلك على

الفور، انفلات بيرل من أمها، وانطلاقها عدوا نحو الغدير، وانحناءها فوقه، وغسل جبهتها، إلى أن زال كل أثر لقبلة غير مرغوب فيها، فذابت القبلة تماما وتبددت عبر شق طويل من المياه الجارية. ظلت بعد ذلك على ترقب هيستير والقس عن بعد وهما يتبادلان الحديث، ويضعان الترتيبات المقترحة بسبب ما طرأ على موقفيهما من مستجدات، والأهداف المزمع تحقيقها فى القريب العاجل.

هكذا وصل هذا اللقاء إلى نهايته وكان على الوادى الصغير أن يعود إلى عزلته، ما بين عتمة، وأشجار معمرة، تتهامس بألسنة عدة، ولفترة، عما دار هناك، وسوف يستعصى على أى منهم فهم ما يدور. وقد يضيف الغدير الحزين تلك الحدوتة الجديدة إلى السر الذى طالما حمله فى قلبه الصغير والذى لا يزال يثرثر بها وقد خلا منها ما يبعث على البهجة إلا لقابل الأزمنة.

٢٠

قس فى حيص بيص

حين غادر القس المكان، قبل أن تغادر هيستير براين ومعها بيرل، نظر خلفه، متوقعا ألا يكشف إلا عن القليل من معالمهما أو عن صورة مصغرة لهما تتلاشى بالتدريج فى ضوء الغابة الخابى. كان حدثا فارقا فى حياته لا يحتسب من الواقع بالنسبة له. لكن هيستير كانت هناك، تلبس ثوبها الرمادى ولا تزال تقف بجانب جذع الشجرة المطحلب، الذى ألقت به العاصفة منذ زمن بعيد، تغطى بالطحلب بمر السنين، ليجلس فوقه هذان اللذان جمع القدر بينهما، وليعثرا على لحظة فريدة من السكينة والسلوى، بعد أن حملا بكل أدران الدنيا. هنالك أيضا ظلت بيرل تتراقص فى خفة فوق ضفة الغدير، أما وقد رحل الطرف الثالث الذى اقتحم عليهما حياتهما، فكان عليها أن تعود إلى مكانها القديم بجوار أمها. وهكذا لم يكن القس فى سبات يحلم.

ولكي يصفى ذهنه من هذا الإحساس المشوب بالغموض والازدواجية، الذى تسبب فى إرباك عقله بصورة غريبة، راجع فى ذهنه وقلب من كل الوجوه الخطط التى رسمها مع هيستير بشأن رحيلهما. لقد قررا فيما بينهما أن العالم القديم، بمدنه وازدحامه بالبشر، قد عرضا عليهما ملاذا يأويهما، ومقرا لهما وهو فى ذلك يبز برارى نيو إنجلاند، أو أمريكا برمتها، بما فيه من بدائل تتمثل فى

أكواخ الهنود الحمر، أو بعض مستوطنات الأوروبيين، المتناثرة بطول شاطئ البحر. ناهيك عن أن صحة القس، التى لا تلائم تحمله مشاق الحياة فى الغابة فضلا عن مواهبه الفطرية، وثقافته، وأن نشأته السليمة لن تأمن له مقاما إلا وسط التحضر والرقى، فعلو المنزلة يكون بعلو المكانة الاجتماعية وذلك ما يتفق ووضع الرجل. تعزيزا لهذا الخيار، تصادف رسو إحدى السفن فى الميناء، وهى سفينة مشبوهة، وكان ذلك مألوفا فى تلك الأيام ألا تحرم تلك السفن من التوغل فى لج البحر، والسفينة الآن فى جولة عبر البحار دون مساءلة واضحة عن هويتها. وصلت هذه السفينة للتو من الساحل الإسبانى، وقد تبحر خلال ثلاثة أيام قاصدة ميناء بريستول.

اضطلعت هيستير براين التى مكنها عملها كممرضة متطوعة فى جمعية البر من التعرف على قبطان السفينة وطاقمها، بتأمين حجز مكان على السفينة لشخصين وطفلة، مع توخى الأمر بالسرية التامة التى جعلتها الظروف أكثر من مرغوبة.

كان القس قد طلب من هيستير بوضوح شديد، تحديد الوقت الذى من المتوقع أن تبحر فيه السفينة. وكان هناك احتمال بأن يتم هذا فى اليوم الرابع من الآن. قال لنفسه: "ذلك من حسن الطالع". يعترينا تردد فى كشف سبب اعتباره من حسن الطالع. ومع ذلك وحتى لا نخفى شيئا عن القارئ، فإن السبب هو أنه بعد ثلاثة أيام، كان عليه أن يلقى الخطبة الدينية ليوم الاقتراع، حيث إن يوما كهذا كان يعد مناسبة جليلة فى حياة رجل الدين فى نيو إنجلاند يمكن ألا يتكرر من حيث التوقيت والصورة الملائمة التى يختتم بها حياته المهنية.

خطرت هذه الكلمات ببال الرجل القدوة: "إنهم سيقولون عنى على أقل تقدير، بأننى لم أترك واجبا عاما إلا أديته، وأن هذا الأداء لم يحمل تقصيرا!"، من المؤسف فى الحقيقة، أن استبطانا دقيقا وعميقا لمثل هذا القس التعس، لابد أن يخدعنا ويبعث على الرثاء. إن لدينا ولا يزال من الأمور البغيضة ما نذكره بشأن هذا الرجل، ولكن لم يكن هناك ما هو أكثر حمقا يثير الشفقة، ولا بينة تعد أكثر وضوحا، ولا يمكن دحضها، من مرض الخبث، الذى أصيب به منذ أن بدأ معه وظل لفترة طويلة فى التهام الجوهر الحقيقى لشخصيته. فأى امرئ ولفترة معينة لا يستطيع أن يظهر أمام نفسه بوجه وأمام الناس بوجه آخر، دون أن يصاب بحيرة فى أيهما وجهه الحقيقى.

كان فورة مشاعر السيد ديميسديل بعد لقائه بهيستير، قد زودته بنشاط جسمانى غير اعتيادى وأسرعت به إلى أطراف المدينة بسرعة قياسية. بدا الطريق الذى يشق الأحراش أكثر وحشة، ووعورة، بموانعه الطبيعية الصعبة وغير مطروق من البشر، كما توقع فى رحلة الذهاب. لكنه اجتاز الأماكن الموحلة ودفع بنفسه بين الأغصان المتشابكة، وتسلق المنحدرات، واجتاز الأغوار السحيقة، وقهر فى النهاية كل عقبات الطريق بنشاط غير معهود أدهشه. لم يستطع أن يتذكر إلا قدر ما واجه من وهن، ولهاث، فوق نفس الأرض منذ يومين فحسب.

حين أصبح على مشارف المدينة، استولى عليه انطباع بأن شيئا ما قد طرأ على مسلسل الموجودات المألوفة ظاهريا وهى على حالها. بدت له وكأنه لم يغادرها بالأمس، لا ليوم واحد أو يومين، بل

منذ أيام عدة أو حتى منذ سنين. فالشارع السابق بكل أثر فيه وكما عرفه في السابق، كان كما هو، والبيوت بهيئتها المميزة، وبتعدد جمالوناتها المدببة والمتراصة فى خط مستقيم، وديوك تحديد اتجاه الريح الحديدية باقية، كل فى مكانه المعهود. ومع ذلك، طرأ على ذهنه هذا الإحساس الملح بأن شيئا ما قد تغير فيها. حدث نفس الشيء مع من قابلهم من معارفه ومع كل الأوجه المعروفة للحياة الإنسانية المحيطة بالمدينة الصغيرة. لم يظهر أهلها أكبر سنا أو أقل، فلحى المسنين لم تزدد بياضا، وما استطاع من كان يحبو من رضع الأمس، السير على قدميه اليوم، ومن المحال وصف اختلافهم عن الشخوص، الذين ودعهم بالأمس، قد بدا الآن أن عقل القس الباطنى هو الذى ينقل إليه حالة التحول التى طرأت عليهم. استولى عليه انطباع آخر أكثر من السابق جدارة بالملاحظة، وذلك حين مر تحت جدران كنيسته ذاتها. كان المبني بالغ الغرابة، ومألوفا له فى الوقت نفسه بصورة جعلت ذهنه مشتتا بين أمرين؛ أولهما أن ما كان يراه حتى هذه اللحظة مجرد حلم، أو أنه يحلم به الآن فحسب.

أشارت الظاهرة فى تعددية الصور التى بدت بها الأشياء، إلى عدم وجود تحول مادى. ولكن تحولا مباغتا ومهمًا قد طرأ على من يشهد، الصورة المألوفة بأن الفترة التى استغرقت يوما واحدا، قد استغرقت فى وعيه الباطنى عدة سنين. صنع هذا التحول، بإرادة القس المطلقة، وبإرادة هيستير، وإرادة القدر الذى جمع بينهما. لقد كانت المدينة على نفس عهدها السابق، ولكنه لم يكن نفس القس الذى عاد من الغابة. ربما قال لأصدقائه الذين التقى بهم "إننى لست نفس

الرجل الذى عهدتم! فقد تركته هناك فى الغاب، منطويًا على نفسه فى الوهدة المجهولة، بجوار جذع الشجرة المطحلب، وعلى مقربة من الغدير الحزين! فاذهبوا واقصدوا قسكم، وانظروا إن كان ملقى هناك كثوب بال بجسده المعتل، ووجنته الناحلة، وسحنته الشاحبة الجعدة والمهمومة"، ولا يوجد شك فى أن أصدقاءه سيظلون على إلحاحهم: "بل أنت نفس الرجل "ولكن التبعة سوف تقع عليهم لا عليه.

قبل وصول السيد ديميسديل إلى البيت، قدم إليه الرجل الذى بداخله أدلة جديدة على اشتعال ثورة فى مجال الفكر والشعور. لم يخرج هذا فى حقيقة الأمر عن كونه تحولا شاملا فى القواعد السلوكية وفى النظام الحاكم لمملكة الباطن عنده، وكان من اللائق أخذ ذلك فى الحسبان حين يتم النظر فى الدوافع التى تتوالى الآن على القس البائس والمرتعب. فمع كل خطوة يخطوها، كان يدفع إلى ارتكاب ما هو غريب، وفج، ونزق، مع إحساس بأن هذا الدافع قد يكون لحظيا متعمدا وبوازع منه، إلا أنه كان يأتى رغما عنه، تحدثه ذاته الباطنية فى مقابل تلك التى تعارض هذا الدافع. التقى على سبيل المثال بواحد من الشمامسة فى مجموعته. نحاه العجوز الطيب بمشاعر الأبوة، وبصفة ما يتمتع به من سلطة دينية، حولها استخدامها، عهده المجيد، واستقامته وقداسته، ووضعه الكنسى، فضلا عن توقير الناس له بما يكاد يقارب العبادة. وهذا ما كانت تتطلبه مهنته كقس مع أهليته لها سواء بسواء. لم يسبق أن كان هناك مثال أروع من كيفية التوفيق فى هذا العصر ما بين الحكمة والجلال مع ما التزم به من تبجيل وتقدير، من جانب أصحاب المنزلة الأدنى فى

المجتمع، وأصحاب الموهبة الأقل في السلم الكهنوتى، نحو أصحاب المنزلة الأعلى. دار الحوار لحظة أو اثنتين بين السيد الموقر ديميسديل وهذا الشماس الجليل وصاحب المرتبة العليا، ولم يخرج الأمر عن حرص القس الزائد على ضبط النفس، وذلك مكنه من الخرس عن النطق بما طرأ في باله من سباب بعينه، فيما يتعلق بقداس العشاء الربانى. مؤكد أنه قد أصابه هلع شديد وغشيه شحوب كالموت، من أن ينفلت لسانه تلقائيا بالخوض في أمور فظيعة، مبررا قبوله بأفعال كتلك، دون تراجع عنها كلية. كان من الصعب أن يتجنب الضحك حتى بعد أن أصابته بالهلع، بسبب تخيله للوجوم الذى سيعترى الشماس العجوز والورع والشيخ الجليل من قلة أدب راهبه!.

هناك حادث آخر من نفس العينة. التقى وهو يحث السير فى الطريق بكبيرة أعضاء كنيسته سنا، وهى سيدة مسنة، مثالا للورع والاستقامة، وأرملة معوزة، حمل قلبها من الذكريات لزوجها وأطفالها وأصدقائها الراحلين منذ زمن قدر ما حوت الجبانة من أحجار متهالكة. وإن لم يحدث هذا لحدث العكس فامتلأ القلب شجنا، وقد شكلت تلك الذكريات لها ما يقرب من السلوى الجليلة لذاتها الوفية وهى فى أرذل العمر بما يحمل الدين من رثاء وما فى الإنجيل من حقائق إيمانية، ظلت تدعم روحها على مدى ثلاثين عاما. ومنذ أن صارت فى راعية السيد ديميسديل، كان من دواعى رضا الجدة الطيبة فى الدنيا لقاء راهبها، إن لم يكن هذا من دواعى رضا السماء على الإطلاق وسواء كان اللقاء عاديا أو كان لغرض بعينه، كانت تبعث فيها الحيوية، عبارة دافئة عطرة بلسان السماء الناطق بالحقائق

الإيمانية فى الإنجيل، ترددها شفتاه البرتان، فى أذنها القريبة من الصمم بل والمتابعة فى انتشاء. ولكن فى هذه المرة، وفى اللحظة التى وضع السيد ديميسديل شفتيه بالقرب من أذن العجوز، ومثلما يفعل عدو البشر اللدود، لم يستطع تذكر نص واحد من الإنجيل، أو من سواه خلا محاجة منمقة وموجزة ومفحمة، وما شاء له من القول ضد خلود النفس البشرية. كان يمكن لذلك الأثر الانطباعى الذى تغلغل شيئا فشيئا إلى ذهن هذه الأخت المعمرة أن يتسبب فى سقوطها ميتة فى الحال، حيث إن ما ردده يشبه أثر السم الناقع والأعلى تركيزا. ما همس به القس، لم يستطع فيما بعد أن يتذكره. ربما من خلل طارئ فى طريقة نطقه للكلمات، فشل فى توصيل أى فكرة ذات مضمون إلى إدراك الأرملة الطيبة، أو وفقا لما بينه الله حسب مشيئته. تأكد القس حين نظر خلفه من التقاط إشارات العرفان المقدس والنشوة التى بدت كانبلاج النور فى المدينة السماوية، على وجهها، الشاحب شحوب الأموات والمليء بالتجاعيد.

ونزيد على ما سلف مثالا ثالثا؛ فبعد رحيل عضو الكنيسة العجوز، التقى بأصغر الأخوات الراهبات الشابات سنا. وهى إحدى العذراوات اللائى ظفرن مؤخرا، بعد حضورها خطبة يوم الأحد الذى أعقب ليلة قيامه، بالاستعاضة عن ملذات الدنيا الفانية بالأمل الإلهى، تطلعا لا إلى حقيقة أكثر نورانية فى الوقت الذى غشى الظلام حياتها، وذلك هو السبيل الوحيد لتبديد تلك الظلمة الحالكة بالنور السرمدى كانت من الجمال والعفة كالزنبقة التى أينعت فى جنة الفردوس. وكان القس نفسه يعلم أنه يحتل فى قلبها مكان القداسة السامى، ذلك القلب

الذى أحاط ستائره الناصعة على صورته، ليضفى على العقيدة دفء المحبة، وعلى المحبة طهر العقيدة. مؤكد أن الشيطان الذى دفع بالشابة المسكينة إلى ترك بيت أسرتها، هو الذى ألقى بها فى طريق هذا الغوى اللعين. أم أنه لا ينبغى لنا أن نضيف على ذلك؟ يا لهذا الرجل من بائس ضال. وسوس إبليس اللعين له، بمجرد اقترابها منه، بأن يتكثف جسديا فى بوصلة صغيرة، ويلقى داخل صدرها الرقيق، ببذرة للشر تأكد نماؤها خفية وعلى الفور لتحمل فاكهة الشرور بمرور الزمن، كان ذلك إحساسا منه بالهيمنة على هذه النفس الطاهرة، بعد أن منحته ثقتها، حيث شعر القس بقدرته على إتلاف حقل البراءة برمته بمجرد نظرة واحدة منه، أو نماء نقيضها بعبارة منه فحسب. وهكذا وبجهد جهيد فاق قدراته العادية، رفع عباءته السويسرية الفضفاضة أمام وجهه، ثم مضى إلى حال سبيله، يحث الخطى، دونما استئذان، تاركا للأخت الشابة أن تفسر فجاجته كما تشاء. قلبت فى ضميرها الذى كانت تشغله أمور بسيطة لا شىء فيها، ككيس نقودها أو حقيبة يدها، وحملت نفسها المسكينة كل ما ورد ببالها من أخطاء، وقد بدأت أداء واجباتها المنزلية فى اليوم التالى، مسهدة الجفنين.

قبل أن تسنح الفرصة للقس بالاحتفال بانتصاره على هذه الغواية الأخيرة كان مدركا لدافع آخر، أكثر إثارة للسخرية، ويكاد يقارب حد الهلع. حدث ونخجل من ذكر ذلك أن توقف فى الطريق، وألقى بعض عبارات السباب على جماعة من صغار البيوريتان، اللاهين هناك، ثم بادرهم بعد ذلك بالحديث، بعد أن لام نفسه على هذا

الطيش، وأنه لا يساوى ما يضعه عليه من ملبس، التقى واحدا من البحارة المخمورين، من طاقم السفينة القادمة من الساحل الإسبانى. والآن وفى الوقت الذى أمسك فيه فى شجاعة عن التمادى فى كل ما خلا ذلك من رذائل كان أقل ما فعله أن تجشم السيد الوضيع ديميسديل عبء الوقوف، لمصافحة الوغد البحار الذى قطع طريقه، وأنعش نفسه ببعض ما يخدش الحياء من نكات كتلك التى تفشت بين البحارة الماجنين، وسيل من الأيمان المغلظة والضخمة والمستعرضة والصلبة والمستديرة والمرضية له والمتحدية للسماء. لم يخرجه من هذه المصيبة سالما التزامه قاعدة من السلوك القويم، بل نفذ منها بسلامة طويته واحتفاظه بالمسلك الخشن لممارسته الكهانة.

صرخ القس فى داخله، فى نهاية المطاف بعد أن توقف على جانب الطريق وضرب جبهته بكفه: "ما هذا الذى يغشانى ويغرى بى على هذا النحو؟ هل أصابنى الجنون؟، أم أننى قد استسلمت نهائيا للشيطان؟ هل وقعت عقدا معه فى الغابة، وحررته بدمى؟ وهل هو يدعوننى الآن إلى تنفيذه، بإيحائه لى بفعل كل ما هو شاذ، وكل ما يطرأ لخياله الأحمق؟".

فى اللحظة التى كان السيد ديميسديل ينفرد فيها بالحديث مع نفسه ويضرب جبهته بكفه، قيل إن السيدة هيبينز الساحرة المعروفة، كانت مارة به فى منعطف الطريق.

أظهرت نفسها مظهر الأبهة، فى غطاء رأس شامخ، وثوب مخملى فضفاض، وياقة حول الرقبة منشاة بالنشاء الأصفر المعروف،

والذى أطلعتها على سره، آن تيرنر صديقتها الأقرب، قبل أن تشنق هذه السيدة المبجلة بتهمة قتل السير توماس أوفر بيرى. وسواء قرأت الساحرة الشمطاء أفكار القس أو لم تقرأها، فإنها توقفت عن السير، وتفرست وجهه في تسلط وابتسمت ابتسامة ماكرة، ثم بادرته الحديث. قالت الساحرة العجوز وهى تحنى غطاء رأسها نحوه: "هكذا قمت أيها السيد الموقر بزيارة وسط الأحراش، فى المرة القادمة أرسل إلى إشارة بسيطة، لتكون من دواعى فخرى بصحبتك. ودون أن اتكلف أدنى مشقة، ستذهب كلمتى الطيبة بعيدا لكسب احتفاء صاحب السلطان الذى تعرفه جيدا بأى سيد وقور".

أجاب القس بأدب جم، و بالصورة التى تليق بمكانتها، وبما ألزمه به حسن تنشئته: "أقر سيدتي، أقر، بضميرى وأخلاقى، بأننى فى حيرة من أمرى بشأن ما ترمى إليه كلماتك! فأنا لم أذهب إلى الغابة قاصدا صاحب سلطان ولن يحدث أن أخطط لهذا فى المستقبل، لزيارة هناك، لنيل رضا تلك الشخصية. كان هدفى الوحيد لقاء صديقى الورع الأب إليوت، والاستمتاع معه برعاية كثير من الأرواح الغالية التى حررها من ربقة الوثنية".

قهقهت الساحرة العجوز وهى لا تزال تحنى قبعتها نحو القس: "ها، ها، ها، يتطلب الأمر منا أن نتحدث على هذا النحو نهارا! فأنت تتهى هذا الموضوع كخبير متمرس. ولكن يمكننا فى منتصف الليل معاودة حوارنا فى الغابة".

واصلت سيرها بأبهتها المعهودة، لكنها كانت تدير في الغالب رأسها وتنظر إليه، كمن شغف بالتعرف على علاقة غير شرعية بين اثنين تمت من قبل في الخفاء.

فكر القس: "إن كنت قد بعت نفسي للشيطان، وإذا كان ما يقوله الناس صحيحا، فإنه هو الذي اختار لها هذا النشاء الأصفر والساحرة المخملية الشمطاء إرضاء لأميرها وسيدها".

القس الوضيع! إنه يقدم رهانا يقارب هذا في الشبه! فبعد أن أغواه حلمه بالسعادة، سلم نفسه، بمحض اختياره وكما لم يحدث له من قبل إلى ما كان هو نفسه على علم بأنه خطيئة نكراء.

سرى سم تلك الخطيئة، سريع الانتشار، على الفور في كل كيانه السلوكي. خدر فيه كل نوازع الخير، وأيقظ في الكيان الحي كل ما يمت للشر بصلة. صحت في داخله نزعات السخرية والمرارة والحقد الدفين، والرغبة غير المبررة في ارتكاب الشرور، ومقت كل ما هو طيب وطاهر، وكله في سبيل الغواية، حتى وإن كانوا قد يشعرونه بالفزع. إذا كان لقاؤه بالسيدة هيبينز قد حدث بالفعل، فليس ذلك إلا إظهارا لتعاطفه وارتباطه بالأشرار وذوي الأرواح الضالة.

كان في هذا الوقت قد اقترب من بيته، بالقرب من الجبانة، فتسلق الدرج وآوى إلى مكتبه. كان القس سعيدا ببلوغه هذا الملتجأ، وذلك دون أن يشرع في تضليل نفسه أمام الناس بأي من تلك النزوات الشريرة الغريبة، والتي كبح جماح نفسه عن ارتكابها أثناء سيره في الطرقات. دخل إلى الغرفة المألوفة، ونظر حوله فيما تحويه

من كتب، وشرفات ومدفأة ولوحات مطرزة معلقة على الجدران والتى تبعث فى النفس الراحة، رآها بنفس النظرة التى رأت ما طرأ على المدينة، أثناء مسيره من وهدة الغابة حتى وصل هنا. لطالما قرأ وكتب فى هذا المكان، وقام الليل وصام، وكان بين الحياة والموت، فى نفس المكان، اجتهد فى الصلاة، وتحمل ما لا يحصى من نوبات الألم فى هذا المكان! ها هو ذا الإنجيل، بعبريته التليدة الراقية، وفيه موسى والأنبياء يحاورونه، وصوت الرب فوق الجميع! وهنا على المائدة بجوار ريشة الكتابة، خطبة دينية لم يفرغ منها، وعبارة لم تكتمل فى الوسط؛ حيث توقف دفق الأفكار على الصفحة قبل يومين. كان يعلم بحقيقته يقينا وبأنه القس ذو الوجنة الشاحبة الناحلة، الذى قام بكل تلك الأفعال وعانى من ارتكابها، وكتب أكثر من هذا فى تلك الخطبة الدينية! بدا واقفا عن بعد، راصدا ذاته بنفسه فى مرارة ورثاء بل فى فضول يشوبه المقت. لقد ولت تلك الذات عنه. وها هو ذا رجل آخر قد عاد لتوه من الغابة، أكثر حنكة، ويمكنه من خلالها الاطلاع على ما خفى من أسرار لم تكن سذاجة ذاته الأخرى بقادرة على كشفها. ويا له من كشف يحمل فى النفس مرارة.

بينما كان القس منشغلا بتلك الأفكار، جاء طرق على باب المكتب، رد القس: "ادخل".

لم يخطر بباله قط أنه قد يرى روحا شريرة. وهو ما حدث بالفعل. كان القادم هو العجوز روجر شيلينج وورث. انتصب القس من مكانه، فى صمت وقد كسى وجهه الشحوب، ووضع إحدى يديه فوق الإنجيل العبرى والأخرى امتدت فوق صدره.

قال الطبيب: "عود حميد أيها السيد الموقر. كيف وجدت ذلك الورع الأب إيليوت؟ لكننى أعتقد يا سيدى العزيز بأن أعراض المرض ظاهرة عليك وكأن الرحلة داخل الأحراش كانت مرهقة لك. أليس من الضرورى تقديم العون كى تستعيد نشاطك وعافيتك لتقدم خطبتك الدينية بمناسبة يوم الاقتراع؟".

عقب السيد الموقر ديميسديل بقوله: "كلا لا أعتقد ذلك، فرحلتى، ولقائى الأب الورع هناك، وتنسمى الهواء الطلق، قد فعلت الخير بى، بعد طول عزلة فى مكتبى، لست فى حاجة بعد ذلك إلى مزيد من عقاقيرك يا طبيبى الحنون، مع أنها كانت مفيدة، وتقدم لى من صديق".

كان روجر شيلينج وورث ينظر إلى مريضه بعين الوقار والحرص عليه. ولكن رغم ما يبدو عليه فى الظاهر، كاد الأخير أن يصل إلى قناعة بالتعرف على نوايا العجوز، وقد تيقن من شكه فيه بعد لقائه بهيستير براين. لقد عرف الطبيب إذن بأن القس لم يعد ذلك الصديق الذى منحه ثقته بل أصبح خصمه اللدود. وهكذا قد كشف عن الكثير، وكان يبدو بالتالى أن جزءًا من المسألة لم يعد طى الكتمان. كان غريبا ومع ذلك ملاحظة قدر ما يمر بينهما من زمن قبل أن تتجسد العبارات إلى حقائق ملموسة، وقدر حذر الاثنين بمحض اختيارهما فى تحاشى موضوع بعينه قد يقتربان من صلبه ليعودا أدراجهما دون التقليب فيه. وبذا لم يشعر القس بأدنى خشية، من احتمال أن يعلق روجر تشيلينج بعبارات صريحة، على الموقف الحقيقى الذى تمسك به كل منهما نحو الآخر، وكان الطبيب أيضا

بطريقته الخبيثة يتسلل على استحياء ليقترب من السر. قال الطبيب: "أليس من الأفضل أن تستخدم حنكتى المتواضعة الليلة؟، إنه فى الحقيقة، سيدى العزيز، يجدر بنا أن نفعل ما فى وسعنا، لمدك بالقوة والنشاط، من أجل هذه المناسبة الخاصة بإلقائك خطبة يوم الاقتراع الدينية. إن الناس يتطلعون إلى كل ما هو عظيم مدركين أن عاما آخر قد يحل فيجدون راهبهم قد رحل".

أجاب القس باستسلام الورع: "أجل إلى عالم آخر شاءت السماء أن يكون الأفضل وذلك أننى وببساطة شديدة، يعز على البقاء مع جماعتى فى المناسبات القادمة لعام آخر!، ولكن فيما يتعلق بعقارك، سيدى الطبيب، فجسدى فى غير حاجة إليه فى الوقت الراهن".

أجاب الطبيب: "يسرنى سماع ذلك، أن عقاقيرى قد طال تناولها عبثا، والآن يبدأ سريان مفعولها، يا لى من رجل محظوظ، وأستحق تماما عرفان نيو إنجلاند، أيمكننى إنجاز هذا الدواء لك"، قال القس بابتسامة وقورة: "أشكرك من صميم قلبى، يا أكثر الأصدقاء سهرا على. أشكرك ولا يمكننى مقابل أعمالك الجليلة إلا أن أدعو لك".

عقب العجوز روجر شيلينج وورث وهو يشرع فى الرحيل: "دعوات رجل صالح لا تقدر إلا بالذهب. بالعملة الذهبية الحالية لأورشليم الجديدة، وعليها علامة سك العملة الملكية".

بعد أن صار بمفرده استدعى القس خادم المنزل، وطلب طعاما، وضع أمامه فالتهمه بشهية مفتوحة. ثم ألقى بعد ذلك، بالصفحات المكتوب عليها عظة يوم الاقتراع فى نار المدفأة، وشرع على الفور فى كتابة أخرى، كتبها بنفس دافع تدفق الفكر والشعور، فخال نفسه ملهما، وتعجب من أن السماء قد ارتأت أنه من الأنسب نقل ألحان وحيها الوقور .والعظيم عبر بوق أحمق مثله. ومع ذلك، وبعد أن ترك هذا اللغز يحل نفسه بنفسه، أو يمضى للأبد دون حل، واصل مهمته بسرعة كبيرة وانتشاء. وهكذا انقضت الليلة وكأنها جواد مجنح، امتطى صهوته فحل عليه الصباح، وتسلل ضوؤه عبر الستائر وألقت الشمس فى النهاية بأشعتها الذهبية داخل المكتب وتوجهت مباشرة إلى عينى القس المسهدتين. ولا تزال الريشة بين أصابعه وكم شاسع ولا حصر له من الصفحات المكتوبة خلفه.

٢١

احتفالية نيو إنجلاند

فى صباح اليوم الذى كان الحاكم بصدد تسلم مهامه الجديدة، بناء على إرادة الجماهير، أتت هيستير براين وابنتها بيرل إلى ساحة السوق. عجت الساحة بأعداد كبيرة من أصحاب الحرف وآخرين من عموم أهالى البلدة، فضلا عمن بدت عليهم الخشونة، وميزهم ارتداؤهم جلد الغزال الخاص ببعض ساكنى مستوطنات الأدغال المحيطة بالعاصمة الصغرى للمستعمرة.

كانت هيستير فى هذه المناسبة العامة، كما فى كل المناسبات وعلى مدى سنوات سبع، تضع عليها ثوبا من القماش الرمادى الخشن. جعلها بمنأى عن تفرس الناس فيها والظهور لما به من تميز فريد فى الطراز، إلا أن الحرف القرمزى أخرجها مجددا من هذا الكمون المؤقت، وجعلها بارزة بإطلالة معنوية من ضيائه. فوجهها وقد ألفه أهل المدينة، أبرز السكينة الرخامية التى اعتادوا رؤيتها بها. كان أشبه بقناع، أو بالأحرى أشبه بسكون متحجر على قسمات وجه امرأة ميتة. يعود هذا التشبيه المريع إلى ما يؤكد أن هيستير قد ماتت بالفعل وجدانيا، ورحلت عن عالم لا تزال تمتزج به.

ربما كانت اليوم لا تحمل تعبيرات جديدة، و لم تلاحظ بهذا القدر من الحيوية الآن، اللهم إلا إذا كان هناك أحد الحاضرين ممن وهبوا قدرة خارقة يجدر بهم فى المقام الأول، قراءة ما فى القلب، ثم

السعى بعد ذلك فى أثر ما يتفق مع ذلك ظاهرا فى الوجه والقسمات. قد يدرك مثل هذا الخبير الروحانى أنه بعد أن ظلت الحشود تتفرس فيه على مدى سبع سنوات كما تطلب الأمر ذلك، تكفيرا عن الذنب، وكشىء صدر عن معتقد لا يحتمل لشدة صرامته، فإنها الآن تواجه تلكم النظرات للمرة الأخيرة لكى تحول ما كان من عذاب مقيم إلى نوع من النصر المؤزر. ربما كان لسان حال ضحية هؤلاء القوم وعبدهم الرقيق دائما، كما كانوا يخالونها.

يقول: "ألقوا بنظراتكم الأخيرة على الحرف القرمزى وحاملته! فإنها بعد وقت قصير من الآن، ستصبح بمنأى عن قبضتكم. وبعدها بساعات يبتلع قاع المحيط فى أعماقه الشارة ويواريها، تلك التى تسببتم فى إشعالها على صدرها "لم يكن هذا التضارب بعيدا عن احتمال نسبه لطبائع البشر، ذلك لو افترضنا وجود شعور بالأسف فى عقل هيستير، فى لحظة أوشكت على الظفر بنيل خلاصها من عذاب طالما توحد مع كيانها. أما كانت هناك رغبة ملحة فى تجرع الجرعة الأخيرة، المهلكة، وقد طال انتظارها، من كأس المرارة والصبر والتى جرعتها كل سنوات أنوثتها وإلى الأبد؟ ينبغى والحق يقال، أن تكون خمر الحياة المقدمة إليها فيما بقى لها من عمر، صافية، منعشة، حلوة المذاق، فى كأسها الذهبى المرصع بالجواهر، أو لندع الضنى المضجر والحتمى، بعد الثمالة المريرة التى طالما أسكرتها بشرابها المخدر قوى المفعول.

اكتست بيرل بثوب البهجة. قد يستعصى إدراك أن هذا الثوب الذى يحمل الوضاءة والروعة، قد دان بوجوده لتلك الهيئة الرمادية

القاتمة، أو أن خيالا بهذا القدر من الجمال والرقة كان ضروريا حضوره لابتكار الثوب الذى ترتديه الطفلة وهو نفس الخيال الذى اجتاز مهمة ربما كانت الأصعب فى إضفاء هذا القدر من التميز الواضح على ثوب الطفلة البسيط. كان الثوب من فرط تناسبه على جسد الصغيرة بيرل بحيث بدا تطويرا دافقا متصلا وإبرازا ظاهرا لشخصيتها لا ينفصل عنها قيد أنملة بأكثر من بريق من جلوة ألوان فى جناح بعوضة أو ألوان وريقة فى زهرة. ما ينطبق على هؤلاء نراه واضحا فى ثوب الطفلة الذى كان متوحدا مع شخصيتها من كل الوجوه فى فكر واحد. فضلا عن ذلك فإنه فى هذا اليوم التاريخى، كانت تعترى مزاج بيرل حالة فريدة من الاستثارة والاضطراب، تشبه كثيرا وميض ماسة، يبرق ويتلألأ، ويخفق فى تتابع مع خفقان الصدر الذى يحملها. يستجيب الأطفال وجدانيا، لما يحيط بهم من اضطراب وخاصة عند إحساسهم بأى قلق أو انفعال يتسم بالجموح، أو ما شابه هذا من أحداث تقع الآن، ولذا فإن بيرل التى كانت درة على صدر أمها المضطرب، قد كشفت باتباعها هواها، عن المشاعر التى لا يمكن لأحد أن يكشف عنها خلف الكمون الرخامى البادى على سحنة هيستير.

جعلتها هذه الفورة تحوم بحركة أشبه بالطائر فضلا عن سيرها بجوار أمها. انطلقت فى صراخ جامح متواصل، غير مفهوم وأحيانا فى ألحان مدوية. حين وصلتا إلى ساحة السوق، تزايد إحساسها بالاضطراب، لإدراكها الجلبة والهياج اللذين عما المكان، لأنه كان أقرب شبها بالمكان الذى تفترشه الأعشاب التى لا تطؤها قدم والتى

تشغل مساحة كبيرة أمام مصلى فى إحدى القرى، عن كونه مركزا تجاريا للمدينة. هتفت بيرل قائلة: "فيم هذا كله يا أماه؟ ولماذا ترك هؤلاء الناس أعمالهم اليوم؟ هل اليوم عطلة للجميع؟ انظرى، ها هو ذا الحداد! لقد غسل وجهه من السخام، ولبس لباس يوم الأحد الخاص به، ويرى كما لو كان مبتهجا، ذلك لو أن أحدا علمه كيف يبتهج!، وها هو السيد براكت السجان العجوز، يحنى رأسه لى ويبتسم. لم يفعل هذا يا أماه؟".

أجابت الأم: "لأنه يتذكرك وأنت طفلة رضيعة؟".

قالت بيرل: "ينبغى ألا يحنى رأسه ويبتسم لى بسبب هذا، ذلك الرجل قبيح الخلقة، الأسود العبوس! يجدر به إذا شاء ذلك أن يحنى رأسه لك أنت لأنك تتزيين باللون الرمادى، وتحملين الحرف القرمزى. ولكن انظرى يا أماه إلى هذه الكثرة من الغرباء عن البلدة، ومن بينهم الهنود الحمر، والبحارة! ماذا يفعلون جميعا هنا فى ساحة السوق؟".

قالت هيستير: "إنهم يترقبون مرور الموكب. ذلك أن الحاكم وأولى الأمر والنهى سيكونون به، وكذلك القساوسة وأخيار الناس وعظماءهم، فضلا عن فرقة الموسيقى العسكرية والجنود الذين سيتقدمونها".

سألت بيرل: "وهل سيكون القس حاضرا؟ وهل سيمد إلى يديه كما فعل حينما قدمتنى إليه عند حافة الغدير؟".

أجابت الأم: "سيكون حاضرا يا ابنتى لكنه لن يحتفى بلقياك اليوم، ويجدر بك ألا تفعلى الشىء نفسه".

قالت الطفلة وكأنها تتحدث مع نفسها بعض الشىء: "يا له من رجل حزين وغريب، ففى الليلة الظلماء يدعونا إليه، ويمسك بيدى ويدك، حين وقفنا معه فوق السارية التى هناك! وفى قلب الغابة، حيث لم يكن يسمعنا سوى الأشجار المعمرة، ولا تشهدنا سوى صفحة السماء، فيبادلك الحديث، وأنتما جالسان فوق جذع الشجرة المطحلب!.

ثم يقبل أيضا جبهتى، حتى أن النهير لم يستطع إزالة قبلته إلا بصعوبة! لكنه لا يعرفنا البتة هنا وفى وضح النهار، ووسط كل الناس، ولا يجدر بنا أن نعرفه! يا له من رجل غريب وحزين، فضلا عن يده التى يواصل وضعها على قلبه!".

قالت الأم: "مهلا بيرل، إنك لا تفهمين هذه الأشياء. لا تشغلى بالك الآن بالقس، ولكن انظرى حولك، واشهدى أى وجه جميل يحمله هذا النهار. فالأطفال يخرجون من مدارسهم، والكبار من أعمالهم ومزارعهم، بهدف الإحساس بالسعادة. لأن اليوم يبدأ قيادهم رجل آخر؛ لذلك وكما هى عادة البشر، منذ أن تشأت الأمم، يبدون السعادة والبهجة، وكأن عاما جديدا مشرقا، بصدد المرور على العالم القديم البائس".

كان الحال ما أفصحت عنه هيستر، فيما يتعلق البهجة غير المألوفة البادية على وجوه الناس. كان البيوريتان فى هذه المناسبة البهيجة وكما كان يحدث ولا يزال مستمر الحدوث على مدى قرنين

من الزمان، يلخصون كل مظاهر البهجة والمرح لدى العامة، بما يرونه مباحا لدى الضعف الإنساني، وبهذا يتبدد لديهم ما تراكم من غيوم، حتى أنهم ولمدة يوم عطلة واحد، كان من الصعب عليهم أن يكونوا أكثر جهامة من مجتمعات أخرى فى عصر غلبت عليه الكآبة. لكننا ربما كنا نبالغ فى مسحة السواد والكآبة، التى لا شك فى أنها ميزت مسلك وتوجهات العصر. فالأشخاص الذين يشغلون الآن ساحة السوق فى مدينة بوسطن، لم يولدوا لوراثة الوجوم البيوريتانى. إنهم إنجليزيو النشأة، وقد عاش آباؤهم فى العهد الإليزابيثى الذى كان يتسم بالبهجة والمرح، فى وقت كان ينظر فيه إلى إنجلترا، على أنها كتلة عظيمة واحدة من البشر، وكان العالم يطالعهم دائما بالمهابة والأبهة، وبالوجه المشرق، ولو أنهم اتبعوا ذائقة أسلافهم للجأ مستوطنو نيو إنجلاند إلى تجميل كل الأحداث المهمة لدى الجميع، بالألعاب النارية، وإقامة المآدب وتسيير المواكب والمهرجانات. ولن يكون عسيرا على الطقوس التى تتسم بالوقار أن تضم مظاهر البهجة إلى دواعى الوقار، وتقدم كما هو حاصل الآن، صورة حية وزخرفا بهيجا إلى رداء الحكومة المهيب، الذى تتزيى به الأمة فى مثل هذه الاحتفاليات. كانت هناك بعض المظاهر البسيطة كمحاولة للظهور بشىء من هذا القبيل فيما يتعلق باحتفالية اليوم التى تستهل بها المستعمرة شئون العام السياسية. يمكن رصد استعادة صورة باهتة فى الذاكرة للأبهة، أو للتكرار الممل والبعيد تماما، عما شهدوه من قبل فى لندن العريقة والعظيمة ولا نقصد تذكرهم لعيد تتويج الملك، بل نذكر عرض اللورد ماير فى إطار العادات التى أسسها أسلافنا، مع أخذ التنصيب السنوى لأولى الأمر من الحكام فى الحسبان. اعتبر الأجداد ومؤسسو

رابطة الشعوب البريطانية ومنهم رجل الدولة والراهب والجندى، أنه يجدر الظهور بمظهر الأبهة والوقار، جريا على العرف القديم، وهو الشكل الأنسب لإبراز المكانة الاجتماعية والعامة. جاء الجميع قدما، للسير فى موكب أمام العيان، وبهذا يضفون سمت الوقار المطلوب، على إطار عمل الحكومة تحت التشكيل.

كان الناس أيضا حينئذ مؤيدين، إن لم يكونوا مدفوعين للتخفيف من الممارسة الفجة والقاصرة لأنماط عديدة من عاداتهم الخشنة، والتى كانت فى كل المناسبات الأخرى تبدو متمشية من حيث المادة والجوهر مع معتقدهم. لم تتوفر هنا، وهذه حقيقة الوسائل المعروفة للتسلية والتى كانت متاحة فى إنجلترا على عهد الملكة إليزابيث، أو فى عهد الملك جيمس، لم تتوفر تلك العروض البسيطة فى لون من ألوان المسرح، ولا المنشد الشعبى بقيثارته وسرده للملاحم، ولا مغنى الجوق برقصاته على إيقاع ما يعزف من ألحان، والحاوى وهو يقلد الساحرات بحيله، وأندرو المرح ليثير الناس بقفشات ربما كان عمرها مئات الأعوام، لكنها لا تزال تأتى أثرها، بما فيها من دعوى لأسباب لا حصر لها للمشاركة فى المرح. كان يتم حظر عمل كل هؤلاء الخبراء فى فروع التسلية العديدة بشدة، ليس فقط بسبب القانون الصارم، بل بسبب الرأى العام الذى كان يمنح القانون قوة الحظر. ومع ذلك كانت البسمة ترتسم على وجوه الناس المعبرة عن الوفاء والإخلاص، وربما كان يشوب تلك البسمة بعض الوجوم ولكنها أيضا كانت ابتسامة عريضة. لم تكن الألعاب الرياضية مرغوبا فيها، تلك التى كانت تشهدها المستعمرات وتشارك فيها منذ

زمن فى المنافسات الحاشدة على ملاعب إنجلترا الخضراء، وكان هناك اعتقاد جازم بإحيائها فوق هذه الأرض الجديدة، بسبب ما تأصل فيهم من شجاعة وإقدام. فقد كانت مباريات المصارعة بأساليب كورنوول وديفونشاير تشاهد هنا وهناك فى أرجاء ساحة السوق، وفى ركن منفرد كان يدار اللعب بالعصا فى لقاءات ودية، فوق سارية العقاب، و كانت هذه أكثر الألعاب جذبا لانتباه الجميع، وقد سجل فى أوراقنا المعروفة، أن اثنين من قادة الدفاع كانوا يفتتحون أحد عروض المبارزة بالسيف الخشبى والترس. وكان أكثر ما أصاب الجموع بالإحباط، إلغاء هذا العرض الأخير بسبب تدخل شماس المدينة، الذى لم يكن لديه أدنى فكرة عن ترك مهابة القانون تنتهك باستغلال ساحة من ساحاته المقدسة.

لن نحتاج كثيرا إلى التأكيد بصفة عامة (حيث كان الناس ما زالوا فى أول عهدهم بممارسة سبل التسلية وأن من خلفهم من السادة مارسوها فى أيامهم) على أنهم قد يقارنون بحق، بحفاظهم على يوم الاحتفال بمن لحقهم، حتى لو كانوا مثلنا ممن بعدت بيننا وبينهم الشقة. كان من أعقبهم مباشرة، وهم الجيل التالى للرواد من المهاجرين، قد اكتسوا بأكثر وجوه البيوريتانية كآبة، فأظلموا وجه الأمة، حتى أن أعواما كثيرة لاحقة مرت، لم تكن كافية لإزالة العتمة عنه. ومن الواجب أن نعاود التعرف على فنون التسرية المنسية.

كانت الصورة أيضا فى ساحة السوق فى تلك اللحظة برغم مسحة الأسى العامة، والقتامة التى تميز المهاجرين الإنجليز، تنبض بتعددية فى اللون. وقف على البعد زمرة من الهنود الحمر بهيئتهم

البدائية، وثيابهم المزركشة التى تشد إليهم الانتباه والمصنوعة من جلد الغزال، والأحزمة المطعمة بالصدف، بألوانها الحمراء والصفراء المائية، والريش، وتسلحوا بالتروس والرماح والحراب المدببة، ووقفوا عن بعد، وعلى سحنهم سمت وقار لا يتبدل، يفوق فى ذلك ما اتسم به البيوريتان. لم يكن هناك من هو أكثر شراسة من أولئك البرابرة الملونين، وذلك أن كان داخل هذا المشهد من تحمل قسمات وجهه الشراسة. من الممكن أن تنطبق هذه الخصوصية بصورة أكبر على بعض البحارة، وهم بعض أفراد طاقم السفينة التى وصلت من الساحل الإسبانى، وقد وفدوا من الميناء لمشاهدة ما يحدث من مفارقات فى يوم الاقتراع.

كانوا من هيئتهم الخشنة ما دل على نزقهم، بوجوه أكلحتها الشمس ولحى كثة، وسراويل قصيرة وواسعة. أحكموا لفها حول الوسط بأحزمة اعتادوا تحليتها بقطع من الذهب الخالص، ودعمها فى أغلب الأحوال بخنجر، وفى أحوال أخرى بسيف. لمعت أعينهم من تحت قبعاتهم عريضة الحواف، والمصنوعة من سعف النخل، تلك العيون التى حتى فى حالات إحساسهم بالراحة والاستقرار، تحمل نوعا من الشراسة والجموح. تجاوزوا دون خشية أو رادع كل قواعد السلوك، التى يخضع لها البشر سواء، وذلك بنفثهم السيجار تحت أنف الشماس ذاته، مع أن نفثة واحدة منه قد تكلف الواحد من أهل المدينة شلنا، وتجرعهم بارتياح رشفات من الخمر أو الويسكى من قنينة، يحتفظون بها فى جيوبهم، ويقدمونها دون رادع للمحيطين بهم. حدد وبشكل قاطع جوانب النقص فى سلوكيات هذا العصر، على ما

يمارسه من صرامة، فكان يترك الحبل على الغارب للعاملين في البحر، بإظهار طيشهم ليس على الساحل فحسب، بل وبانتهاك السلوك العام في أي مكان يحلون به. ربما كان البحار في تلك الأيام يصل إلى حد اتهامه بالقرصنة في أيامنا هذه. أثير مثلا بعض الشك، في أن طاقم نفس هذه السفينة رغم نبذهم من إخوانهم العاملين في الملاحة، كانوا من المتهمين، بخرق القانون التجاري الإسباني، وهو ما كان يعرضهم للمساءلة أمام القضاء في أيامنا.

لكن البحر في تلك الأزمنة السالفة، كان كثيرا ما يجزر ويبتلع ويزبد كيفما شاء، ولا يخضع إلا للريح العاتية، مع تعسر محاولات إخضاعه لقوانين البشر. كان يمكن لقرصان في البحر أن يكف عن دعواه، ويصبح على الفور أن اختار ذلك، رجلا مستقيما على اليابسة، ولا يوصف حتى مع إحرازه النجاح في حياة بلا طائل، كشخص معروف بسوء السمعة من قبل العاملين في مجال التجارة أو ممن يصدف تعامله معهم. لذا كان كبار البيوريتان، بمعاطفهم السوداء، وأربطتهم المنشاة وقبعاتهم التي تشبه برج الكنيسة، يبسمون ملء الأفواه للسلوك الجامح والفج لأولئك البحارة اللاهين، ولم يحسوا بالاستغراب والحيرة، حين شوهد صاحب الصيت والمتحضر والطبيب روجر شيلينج وورث، وهو يدخل ساحة السوق، متحدثا بود إلى قبطان السفينة المارقة.

كان الأخير من أكثر الشخصيات ظهورا وتأنقا، أينما حل وسط الجموع. كان يضع على ثوبه عددا لا بأس به من النياشين، وعلى قبعته شريط مذهب وأحاطها بسلسلة ذهبية، وتوجها بريشة،

وحمل سيفا فى جنبه وفى جبهته ظهرت ندبة من جرح قديم، بدا من تصفيفة شعره تعمده إظهارها وليس إخفاءها. من الصعب على رجل يعيش على اليابسة، أن يضع عليه مثل هذا الزى، وأن يظهر بهذا الوجه، وأن يفعل ذلك بطريقة راقصى الجاليار القدامى، دون أن يواجه استجوابا صارما أمام قاض من القضاة، وربما تعرض للتوقيف أو الحبس، وربما للعرض فى سوق الرقيق.

إذا عدنا إلى قبطان السفينة المذكورة، فإن نسبته إلى شخصه من حيث المظهر، كنسبة السمكة إلى قشورها اللامعة.

بعد انفصاله عن الطبيب، جال متسكعا عبر ساحة السوق حتى تصادف وصوله إلى المكان الذى تقف عنده هيستير براين، وبدا أنه يعرفها، لم يتردد فى مبادرتها بالحديث. وكما كان يحدث غالبا وقفت هيستير فى مساحة صغيرة خالية كالدائرة السحرية تشكلت تلقائيا حولها، ورغم أن الناس كانوا يتزاحمون فى مساحة صغيرة، فإن أحدهم لم يكن يجرؤ على المخاطرة، أو كان لديه الدافع بالدخول فيها. كان هناك شكل من أشكال القهر فى تلك العزلة المعنوية التى أحاط بها الحرف القرمزى حاملته، ويعود بعض ذلك إلى التحفظ منها، والبعض الآخر يعود إلى تراجع تلقائى من أهل بلدتها رغم أنهم لم يعودوا إزاءها بالغى القسوة. حقق الحرف الآن شيئا طيبا، وما كان لذلك أن يتحقق قبل الآن، فى تمكن هيستير والقبطان، من تبادل الحديث معا دون خشية من متابعة أحد لهذا الحديث، لأن نظرة الناس لهيستير أصابها تحول كبير، ولأنه استحال على أكثر سيدات المجتمع

صبيتا باتباع قواعد السلوك الصارمة، إجراء مثل هذا الحوار معه دون أن تقل عاقبة ذلك عن فضيحة فى حالة ضبطها.

قال القبطان: "عفوا، سيدتى، ينبغى لى إصدار أوامرى إلى المـشرف على الرحـلة لحجز مكان آخر، غير الذى قمت بحجزه! لا خشية من داء الأسقربوط أو حمى السفن فى هذه الرحلة. وطالما كان برفقتنا جراح السفينة ومعه طبيب آخر فلن تكون هناك خشية إلا من العقاقير والأقراص، وقد أخذنا ذلك فى الحسبان؛ حيث يوجد كم من الدواء على ظهر السفينة، قمت بمقايضته مع إحدى السفن الإسبانية".

استفسرت هيستير وقد أصابها هلع، لم تسمح لنفسها بإظهاره: "ماذا تعنى، ألديك راكب آخر؟".

هتف القبطان قائلا: "لماذا، ألا تعلمين بأن هذا الطبيب الواقف هناك روجر شيلينج وورث، كما يسمى نفسه، قد أزمع حجز كابينة معك؟ وي! وي! لابد أنك كنت تعرفين ذلك، لأنه يزعم لى بأنه من جماعتك، وهو صديق مقرب للسيد الذى حدثتنى بشأنه ذلك المعرض لخطر من قبل أولى الأمر من قساة من البيوريتان!".

قالت هيستير، وهى تتصنع الهدوء، رغم أنها الآن فى حيص بيص: "يعرف كلاهما الآخر جيدا، فهما يقيمان معا منذ مدة".

لم يدر أكثر من هذا الحديث بين القبطان وهيستير براين. لكنها فى تلك اللحظة، لمحت العجوز روجر شيلينج وورث، يقف فى الركن الأقصى من ساحة السوق.

ويرسل إليها ابتسامة، ابتسامة عبرت الميدان الفسيح والمكتظ بالبشر، ومرت بالأحاديث والضحكات، وتباين أفكار وأمزجة واهتمامات الجموع وحملت معنى خفيا رهيبا.

٢٢

الموكب

قبل أن تتمكن هيستير براين من جمع شتاتها، كى تقرر ما يمكنها أن تفعله إزاء ما استجد من أمور باعثة على القلق، سمعت ألحان الموسيقى العسكرية قادمة من الشارع المجاور. كانت الألحان تشير إلى تقدم الموكب الذى يضم رجالات الدولة والمدنيين، وهم فى طريقهم إلى المصلى؛ حيث جرت العادة منذ بدء تأسيسها على نفس ما هى عليه الآن، ووفقا للمراسم، كان على السيد الموقر ديميسديل إلقاء عظة يوم الاقتراع.

فى تلك اللحظة ظهر مقدم الموكب، متحركا على إيقاع رتيب مهيب، متحولا من أحد الأركان وشاقا طريقه عبر ساحة السوق. أتت فرقة الموسيقى فى المقدمة. شكلت من عدد من الآلات، ربما شذت إحداها عن الأخرى، فلا يتميز الأداء لكنها فى الوقت نفسه كانت تحقق ما تصبو إليه، فالبوق والطبلة، قد حققا ذاتيتهما أمام الجمهور بإضفائهما روح البطولة والسمو على المشهد الحى المار أمام أعينهم. كانت الصغيرة بيرل فى البداية تصفق بيديها، لكنها بعد ذلك فقدت الإحساس بالإثارة المسببة للقلق، تلك التى جعلتها فى حالة فوران متصل خلال الصباح، وحدقت فيما تشاهده فى صمت، وبدا أنها تتحمل الموقف بصبر، كطائر البحر المحلق فى الجو، فوق ضجيج الأصوات وصخبها. لكنها ما لبثت أن عادت مرة أخرى إلى سابق

حالها، بسبب انعكاس ضوء الشمس من الأسلحة والحراب اللامعة التى تحملها فرقة الجيش، التى تسير خلف فرقة الموسيقى، وشكلت حالة التجانس المصاحب للموكب. لم تكن فرقة العسكر هذه تضم أحدا من عناصر المرتزقة، فلا تزال تحتفظ بكيانها المتماسك، والذى ينحدر من أزمنة عرفت بالعراقة والمجد. شغل رتبها سادة، حفزتهم نخوة الدفاع عن الوطن فسعوا إلى إنشاء الكلية الحربية، تلك التى أسست على شاكلة المؤسسة الداوية العسكرية(*) يتلقى الطلاب فيها العلوم المدنية وقت السلم، إلى جانب تدريبهم على فنون القتال. كانت الشخصية العسكرية تحظى بتقدير كبير، فكان كل فرد فى الفرقة العسكرية ينظر إليه بعين التقدير والاحترام.

حظى بعضهم بالفعل بألقابهم، بما قدموا من خدمات في هولندا وفى ساحات المعارك الأوروبية الأخرى لتحقيق الصيت والرفعة فى المجال العسكرى. وحين كان المظهر العام للجنود، يتجلى فى بريق الفولاذ والريش المتدلى من خوذاتهم، فقد حظى هذا بإشراقة العرض الذى لا يستطيع عرض حديث أن يضاهيه. كان أيضا البارزون من العاملين فى الخدمة المدنية، ممن جاءوا فى الترتيب بعد فرقة العسكر أكثر استحقاقا لنظرة تأملية، حتى أنهم ظهروا بمظهر الأبهة، مما جعل خطوة العسكر التى تحمل الخيلاء تبدو عادية بالمقارنة، إن لم تكن باعثة على التهكم. تراجعت كثيرا فى هذا العصر ما ندعوها بالألمعية، ولكن فاقتها بكثير تلك المقومات الضخمة التى كانت تحقق

(*) المؤسسة الداوية العسكرية: منظمة دينية عسكرية، أنشئت فى القدس عام ١١١٨ لحماية الحجاج والقبر المقدس. يطلق عليها جماعة فرسان الهيكل.

استقرار وكرامة الشخص. حظى الناس بحق إرثهم بالظهور بمظهر الوقار، الذى لو توفر فى أحفادهم أصلا، لكان فى المستوى الأدنى، فضلا عن انعدام القدرة لدينا على فرز المبرزين من رجال الخدمة العامة. فالتغيير إما أن يكون للأحسن أو الأسوأ وربما يكون فى جانب منه إلى الاثنين معا. فالمستوطن الإنجليزى فى تلك الأيام، بعد أن خلف وراءه الملك والنبلاء، وكل طبقات السلم الاجتماعى المنفرة، ولا يزال محتفظا فى داخله ببسمة الوقار ومتطلباته، فإنه وهب ذلك كله من مشيب العصر ووجهه الوقور، واستقامة أصقلتها التجارب، ومن حكمة راسخة، وتجارب صعبة، وعطايا نظام راسخ وقور، يقدم لفكرة الإصرار على البقاء، ويدرج تحت معنى عام هو الجدارة بالاحترام. يبدو أن رجال الدولة الأقدمين أمثال، براديستريت، أنديكوت، دودلاى، بيللينجهام، وآخرين من دونهم، ممن احتلوا مواقع السلطة باختيار الناس المبكر لهم، وقد بدا غالبا عدم تحقيقهم للنبوغ، ولكنهم تميزوا برصانة حتى الملل، أكثر مما ميزتهم حدة الذكاء. تجسدت سمات الشخصية المشار إليها فى ملامح وجه يتسم بالرصانة، وبنية جسدية هائلة لدى حكام المستعمرة الجديدة. أما بالنسبة لممارسة السلطة عامة، فلم تطرأ نقيصة يخجل منها وطنهم الأم وهو يطالع أولئك الرواد من الرجال الذين مارسوا الديمقراطية الحقيقية بالاختيار العام، داخل مجلس الأشراف أو الذين شكلوا المجلس الاستشارى الحاكم.

أعقب رجالات الدولة فى الموكب، رجل الدين البارز الشاب، الذى يتوقع أن تنطق شفتاه بالخطبة الدينية فى هذه الاحتفالية. قدمت

مهنته فى تلك الفترة، التى كانت تفصح فيها القدرات العقلية عن نفسها بأكثر مما يفعل العمل بالسياسة ولنطرح الدافع إلى الرقى جانبا، قدمت ما يكفى من دوافع ومغريات كادت أن تصل إلى حد تقديس المجتمع لها، للظفر بكل ما تطمح إليه النفس فى ظل خدماتها. حتى أن السلطة السياسية، كما كان الأمر مع أنكريز ماثر(*) كانت فى قبضة رجل الدين.

كان رأى من رأوا القس فى تلك اللحظة، أنه لم يحدث مطلقا، منذ وطأت قدما السيد ديميسديل شاطئ مدينة نيو إنجلاند، أن ظهر بهذا القدر من النشاط الذى لوحظ عليه فى طريقة سيره وفى مظهره العام فى محيط موقعه فى الموكب. لم يظهر تعثر فى خطاه، كما حدث فى السابق، ولم يلحظ عليه انحناء، ولم يكن هناك ما ينذر بشؤم من وضع راحته على قلبه. بدا أن قواه، إن كان لنا أن نقيّمه على الوجه الصحيح، لم تكن نابعة منه. ربما صدرت عن روحه، بعد أن تزود عن طريقها بمدد ملائكى. وربما صدرت عن حالة انتعاش من قلب معافى، لا يقطر على غير وميض نار فكره الجاد والتقدمى. أو ربما نشطت حساسيته المفرطة على إيقاع الفرقة الموسيقية ودويها؛ حيث دوى لحنها فى الأعالى صادحا، فرقت به نبذباته الصاعدة. ومع نظراته المجردة من أى تعبير، كان هناك شك فى سماعه صوت الموسيقى من عدمه؛ لأن جسده هذا، كان يتحرك إلى الأمام بقوة لم يألفها. ولكن أين كان عقله؟ كان بعيدا شاردا فى العالم الخاص به، منشغلا بقوى الطبيعة الخارقة، لتنظم له موكبا من الأفكار المعتبرة،

(*) أنكريز ماثر : آخر الحكام من البيوريتان (١٦٣٩ - ١٧٢٣).

بعد أن وجدت لها مخرجا فى هذا المكان، وهكذا فإنه لم يكن يرى شيئا؛ ولا يسمع شيئا، ولا يعرف شيئا، عما كان يدور حوله، لكن الجانب الروحى فيه، استنهض الجسد المريض، وتقدم حاملا إياه، غير عابئ بثقل هذا الحمل، ناقلا ذلك العبء إلى روح كتلك الروح. يحظى الرجال الذين يتمتعون بهذا القدر من الذكاء الذى تأصل فيهم منذ نشأتهم، بتلك القوى اللحظية التى تستنفد جهدا خارقا، والتى تشاطرهم الحياة لعدة أيام ثم لا تلبث أن تهمد فيهم أياما أخرى. لم ترفع هيستير براين عينيها عن القس، وهى تشعر بالفزع، ولكن منذ متى وفيم كانت لا تعرف الفزع، لكنه كان بمعزل عن عالمها، ومن العسير بالمرة أن تلحق به. تصورت أن إشارة تنبيه إليه، ينبغى أن توصل ما انقطع بينهما. فكرت فى الغابة الموحشة بواديها القفر الصغير وفى الحب والعذاب وجذع الشجرة المطحلب؛ حيث كانا يجلسان متشابكى الأيدى ويمزجان حديثهما الشجى، المشوب بالعاطفة، برقرقة النهير الحزين. كم كان يتفهم كلاهما الآخر فى لحظة كتلك!، وهل هذا هو نفس الرجل؟ من العسير أن يتعرف عليه الآن أحد! يتقدم فى زهو، متأثرا فى الظاهر بالألحان المدوية بصحبة ركب الآباء ذوى المهابة والوقار، ولذلك كان يصعب إدراك الجسد، وهو على حاله تلك، محلقا فى الأفق البعيد بأفكار لا تهدأ، وبالصورة التى تطالعه بها الآن! شغلتها كثيرا فكرة أن ما يحدث لا يزيد عن كونه دربا من الخيال وأنه بقدر ما ينبض من حياة، قد انعدم وجود رابط يربطها بالقس. وهكذا أصبح فى داخل هيستير أكثر من امرأة و كان صعبا عليها أن تغفر له، لسبب بسيط هو أن يحدث ذلك كله فى الوقت الذى كان صوت وقع خطاهما على دربهما المحتوم يقترب

ويقترب، ويقترب، أن تغفر جرأته على الانسحاب من عالمهما الأوحد، وفى الوقت الذى كانت تتلمس طريقها فى الظلام، وتمد إليه يديها الباردتين فلا تجد له أثرا.

أما عن بيرل فإما أنها لاحظت واستجابت لمشاعر أمها، أو أنها أحست تلقائيا، بالعزلة والغموض اللذين أحاطا بالقس. كانت الطفلة تشعر بقلق مع تقدم الموكب، فتقفز أعلى وأسفل، كطائر بصدد تحليقه في الجو. وحين وصل الموكب أمامها نظرت إلى وجه هيستير ثم قالت: "أماه، أهذا هو نفس القس الذى قبلنى عند الغدير؟".

همست أمها بقولها: "مهلا يا طفلتي العزيزة بيرل، فلا يجدر بنا أن نتحدث فى ساحة السوق عما جرى لنا فى الغابة!".

أردفت الطفلة قائلة: "إننى لست على يقين من أنه هو، فقد بدا غريبا ولا أعرفه، وإلا كان على أن أهرع إليه، وآمره بتقبيلى الآن، أمام كل الناس، حتى إن كان ذلك قد حدث فى الظلام بين الأشجار المعمرة. ماذا سيقول القس يا أماه؟ أيعقد يديه فوق قلبه، ويعبس فى وجهى ويأمرنى بالابتعاد عنه؟".

أجابت هيستير: "ماذا ينبغى أن يقول يا بيرل، ناهيك عن أن هذا ليس وقتا لتبادل القبل، وأن القبلات لا تعطى هكذا فى ساحة السوق، والأفضل لك أيتها الطفلة الحمقاء ألا تتحدثى إليه".

خاطرة أخرى مشحونة بنفس المشاعر، تجاه السيد ديميسديل، عبرت عنها إحدى الشخصيات، التى قادها طيشها أو جنونها، كما نحسبها نحن، إلى أن تفعل ما يخاطر على الإقدام به قلة من أهل

البلدة، وذلك بمبادرة حاملة الحرف القرمزى بالحديث على الملأ. تلك هى السيدة هيبينز، التى تظهر الآن بكامل أبهتها فى ياقة رقبة ثلاثية الحواشى، وصدار موشى، وثوب مخملى فضفاض، وعصا مثبت بأعلاها قطعة ذهبية، وها هى قد حضرت لمشاهدة الموكب. ولأن هذه الحيزبون كانت معروفة (وهذا ما كلفها بعد ذلك ثمنا ليس بأقل من حياتها)، بأنها الممثل المسئول عن كافة أعمال السحر فى البلدة، وكانت تلك تشهد تطورا مستمرا؛ لذلك أفسح لها الجمهور الطريق، وبدوا فى خشية من مجرد لمس ردائها، وكأنه كان يحمل داء الطاعون، بين طياته المزركشة. ولرؤيتهم لها واقفة بجوار هيستير براين، ولأن كثيرا منهم الآن كان يشفق على الأخيرة منها، تضاعفت خشيتهم عليها بسببها، وقد أشاعت القلقلة في المكان الذى وقفت فيه الاثنتان.

همست العجوز لهيستير دون تردد: "ما خطر ذلك ببال أحد قط. أهذا رجل الدين. ذلك المقدس فوق الأرض، كما يعتبره الناس، يجدر بى أن أذكر أنه يبدو كذلك بالفعل! إن من يراه الآن مارا فى الموكب، يشغله قدر قصر المدة التى قضاها منذ خروجه من مكتبه وهو يلوك فى فمه ما اعتقد أنه نص عبرى من الإنجيل للقيام بنزهة فى الغابة! آها! إننا نعرف يا هيستير براين ما يعنيه ذلك! لكننى فى الحقيقة أظن أن من العسير الاعتقاد بأنه هو نفس الرجل! رأيت كثيرين من أعضاء كنيسته سائرين خلف الفرقة الموسيقية، يتراقصون معى على نفس الإيقاع، بينما هناك من هو لاه عنا، وكان متاحا أن نتبادل الأعمال بالأيدى مع هندى من الباوباو أو مع أحد السحرة! لا يخرج الأمر عن كونه هراء، أن تصبح امرأة على دراية

بالعالم. لكن هذا القس! أيمكنك يقينا يا هيستير أن تذكرى لى، إن كان هذا هو نفس الرجل الذى التقيته فى الغابة".

أجابت هيستير، وهى تشعر بأن السيدة هيبنز تتصرف كمن فقدوا عقولهم ولكنها فزعت وروعت من الثقة التى أكدت بها وجود علاقات خاصة بين أناس كثيرين (وهى منهم) وبين الشيطان: "سيدتى، إننى لا أعرف عمن تتحدثين، ولا يليق بى التحدث باستخفاف عن قس مفوه وعالم ورع، كالسيد الموقر ديميسديل!.

هتفت العجوز وهى تشيح بإصبعها لهيستير: "تبا لك، يا امرأة، تبا لك، أتظنين أننى أزور الغابة مرات عدة، وتجهلين أننى لست على دراية بمعرفة من يكون هناك أيضا؟ بلى، مع أنه ما من وريقة فى أكليل زهر برى، يتزين بها الراقصون تظل باقية فى شعورهم! إننى أعرفك، يا هيستير، لأننى أرى الشارة! وربما يراها الجميع فى وضح النهار متقدة كاللهب الأحمر فى الظلام. إنك تحملينها على الملأ، وليس هناك من حاجة للشك فى هذا. ولكن هذا القس! دعينى أهمس فى أذنك بشىء! إن الرجل الأسود حين يرى واحدا من رعاياه، قد وقع له ووضع عليه خاتمه ثم يخجل تماما من ذلك الرباط، كالسيد الموقر ديميسديل، فإن له طريقة فى تدبيره للأمر حتى يجعله يكشف عن الشارة أمام أعين الناس كافة! ما سبب إخفاء القس إياها، براحتيه اللتين يضعهما فوق قلبه دائما؟ آها، يا هيستير براين!".

سألت الصغيرة بيرل بشغف: "ما هو أيتها السيدة الطيبة هيبينز؟ أرأيته بعينيك؟".

ردت السيدة هيبينز وهى تولى بيرل احتراما من الأعماق: "لا شك فى ذلك ياعزيزتى! لأنك سترينه بنفسك، فى فرصة أو أخرى. إنهم يقولون يا ابنتى بأنك من نسل أمير الفضاء! أتركبين معى فى إحدى الليالى الجميلة كى تلقى أباك؟ ستعرفين آنئذ سبب وضع القس راحته على قلبه".

بضحكات مجلجلة، تمكن من فى السوق من سماعها، غادرتهما العجوز الشمطاء.

كانت صلاة الاستفتاح تؤدى فى المصلى. وكانت تسمع نبرة صوت السيد ديميسديل وهو يستهل خطبته. ألح على هيستير شعور بأن تبقى على مقربة من هذا المكان. فى الوقت الذى كان المبنى المقدس ممتلئا عن آخره بالبشر بحيث لا يسمح بمزيد من الحضور، اتخذت لها مكانا متاخما لسارية العقاب مباشرة. كان هذا المكان كافيًا على وجه التقريب، لوصول الخطبة الدينية إلى أذنيها، واضحة بصوت القس المميز، بدرجاته ما بين الانخفاض والعلو.

كان هذا الأرغن الصوتى فى ذاته هبة عظيمة، حتى أن المستمع وهو لا يدرك اللغة التى يتحدث بها الخطيب، يظل متمايلا يمنة ويسرة مع نفس إيقاعه ولحنه. حركت هذه النغمة ككل ما عداها من ألحان لواعج الشجن والرثاء، ورققت الأحاسيس أو سمعت بها، بلغة ألفها قلب الإنسان أينما عرفت طريقه. استمعت هيستير بتركيز شديد إلى الصوت رغم انخفاضه لوصوله إليها عبر جدران الكنيسة، وتجاوبت معه بحرارة لأن الخطبة الدينية، كانت تحمل مضمونا كليا

يتعلق بها، بغض النظر عن عباراتها الغامضة. ربما لو وصلت إليها بوضوح أكبر، لكانت مجرد وسيلة أكثر فجاجة، ولأبطلت فيها المشاعر الروحية. تمسكت الآن بالنبرة الخفيضة، التى تشبه ريحا تخف حدتها، كى تلتقط أنفاسها ثم تعلو معها، كلما رقت عبر مراحل متقدمة من الطلاوة والقوة، حتى بدا أن درجة الجهر فيها، قد أحاطتها بجو من الرهبة، والجلال المقدسين. فضلا عن أنه فى بعض الأحيان وبقدر ما فى الصوت من مهابة، كان يتسم بوضوح لا يفك عنه. ظلت طريقة التعبير عن الكرب والبلاء بصوت عال أو منخفض بالهتاف وبالهمس، وأينما أدركت ذلك النفس البشرية المعذبة، فقد مس هذا الأسلوب مكنون كل صدر! كانت تسمع آهات الرثاء العميقة فى أوقات ولا تسمع فى أخرى، بزفرات تتخلل الصمت الرهيب. ولكن حتى حين انجلى صوت القس راعدا، ومتوعدا، ومطبقا فى الآفاق دون تراجع، وحين وصل إلى قمة عنفوانه وسعته، وملأ أرجاء الكنيسة كى يشق طريقه عبر الجدران الصلبة، وينتشر فى الفضاء الفسيح، ظل هذا الأسلوب فى التعبير إن كان السامع فى قمة تركيزه، وتواصله، قادرا على أن يكشف عما يتضمن من نفس صرخة الألم. فماذا كان مضمونه إذن؟ إن شكاية قلب إنسان مكروب، شاءت الظروف وقوعه فى الإثم، يتحدث عما يواريه، من إثم أو أسى إلى قلب الإنسانية الكبير، فإنه بذلك يلتمس منه العطف أو المغفرة، فى كل لحظة، وفى كل خلجة من خلجاته، ولن يذهب ذلك سدى! كانت النبرة الخفيضة والعميقة والمتواترة هى التى منحت رجل الدين أقصى قواه انتحالا.

كانت هيستير براين طوال هذا الوقت، أشبه بالتمثال أسفل السارية. إذا لم يكن صوت القس هو ما أبقاها هناك، فإن هذا المكان مع ذلك، كانت تحكمه جاذبية مطلقة، منذ أن قضت فيه أول ساعة للإعلان عن عارها. كان بداخلها إحساس لم يرق إلى الخاطرة، ولكنه كان يلح بقوة على عقلها، ذلك أن فلك حياتها، فى البدء والمنتهى على السواء مرتبط بهذا المكان، كمكان وحيد قدم لهذا الفلك وحدته.

كانت بيرل فى ذلك الوقت تلهو كما يحلو لها فى ساحة السوق بعد أن غادرت أمها. أثارت جوا من البهجة فى الجموع الواجمة، ببريقها اللامع، والغريب حتى وهى كالطائر الذى يبعث الضياء بريشه البراق فى أرجاء الشجرة متشابكة الأغصان، متنقلا عليها هنا وهناك، فيظهر تارة، وتارة يختفى، وسط بصيص الضوء المنعكس من الأوراق اللامعة الخضراء. كانت حركتها متماوجة، لكنها كان يغلب عنيها التلقائية والنشاط. كانت تشير إلى نشاط ينبع منها ولا يهدأ فيتضاعف فى هذا اليوم رقصها الإيقاعى بلا كلل، لأنه كان يلعب على نفس أوتار القلق الذى أصاب أمها. حينما كانت بيرل تلحظ شيئًا يثير نشاطها الطبيعى وفضولها الغريب، كانت تهرع إليه، ثم تتشبث بهذا الشخص أو الشيء وكأنه ملك لها إلى أن تستنفد رغبتها منه، ولكن دون أن تتنازل لحظة حتى يتحكم فى مشاعرها بالمقابل. كان البيوريتان يتابعونها، فإن تبسموا من سحر جمال أخاذ وغرابة أطوار، يشعان من جسدها الصغير ويومضان مع حركته ونشاطه، فإنهم كانوا لا يتزحزحون قيد أنملة عن اعتبارها نسل شيطان. انطلقت عدوا ثم نظرت فى وجه الهندى الشرس، فبات مدركا لطبع

أكثر من طبعه شراسة. انطلقت بعد ذلك بجرأة متأصلة فيها، ولكن مع تمسكها بتحفظها، وسط جماعة من البحارة الأشرار كالحى الوجوه، وراكبى البحر كما الهنود فوق اليابسة، وقد تفرسوا بيرل فى حيرة واستغراب، وكأن رغاء من زبد البحر، تشكل فى هيئة حورية صغيرة، بعد أن وهب روحا، من لهب البحر، تصدر وميضها تحت سطحه فى الليل البهيم.

كان أحد رجال البحر أولئك هو القبطان الذى سبق لهيستير مبادلته الحديث، قد أخذ بمظهر بيرل حين حاول وضع راحته عليها، دون تطلع منه إلى الظفر بقبلة. وحين رأى استحالة لمسها، كمحاولة الإمساك بطائر يحلق فى الفضاء، خلع السلسلة الذهبية من قبعته التى أحاطها بها ببراعة يحسد عليها، ثم ألقى بها إلى الطفلة. فبدت للناظر إليها، كجزء منها لا يتجزأ ومن الصعب تخيلها بغيرها.

قال القبطان: "هذه أمك الواقفة هناك ومعها الحرف الأحمر. أتحملين إليها رسالة منى؟".

أجابت بيرل: "أفعل ذلك، إن كانت الرسالة تسرنى".

أردف البحار: "أخبريها إذن، أننى تحدثت مجددا إلى الطبيب العجوز معيب الخلقة، أحدب الظهر، وهو يتعهد بإحضار صديقه، ذلك السيد الذى تعرفه، على ظهر السفينة، لذا أخبرى أمك بألا تشغل بالها، وأن تشغل بالها بما يهمها فحسب أتخبرينها بذلك أيتها الساحرة الطفلة؟".

قالت بيرل بابتسامة الطفلة الماكرة التى تتميز بها: "إن السيدة هيبينز تقول بأن أبى هو أمير الفضاء فلو أنك دعوتنى بهذا اللقب، فإننى سأخبره بشأنك ليتعقب سفينتك برياحه العاتية!".

عادت الطفلة إلى أمها، بعد أن واصلت سيرها بطريقتها الحلزونية، ونقلت ما قاله البحار لها. انسحقت نفس هيستير الصابرة على المكاره والقوية، والهادئة وهى تشهد فى نهاية المطاف، هذا الوجه العبوس والكئيب، لقدر الشؤم المحتوم الذى ظهر من تلقائه، فى نفس اللحظة التى بدا باب من الأمل ينفتح أمام القس وأمامها، للخروج من شرك الأزمة، وذلك دون أن يمنحهما حق العودة من منتصف دربهما.

أصيبت بحيرة بالغة أوقعتها فيها رسالة قبطان السفينة، فضلا عن أنها كانت بصدد استبدال تلك الرحلة بأخرى. كان من بين الحضور لمشاهدة الموكب كثير من أهالى القرى المجاورة، ممن كانوا في الغالب قد سمعوا بالحرف القرمزى، وكان يمثل بالنسبة لهم أعجوبة، بسبب الأقاويل الكثيرة التي بالغت فى شأنه و لم يكونوا قد ألقوا عليه نظرة من قبل. تجمع هؤلاء فى هذه اللحظة حول هيستير بشكل فيه تطفل وفجاجة، بعد أن أصابهم الملل من متابعة وسائل التسلية الأخرى. اقتربوا منها رويدا رويدا فى وقاحة، حتى توقفوا على مسافة بضع ياردات من الدائرة. توقفوا عند هذا الحد عملا بالأنظمة المتبعة مصوبين قوى المقت المسددة من أعينهم إليها، والتى أوحت بها إليهم الشارة العجيبة. فضلا عن ذلك فإن عصابة البحارة، بعد أن لاحظوا تدافع المشاهدين وعلموا بقصة الحرف القرمزى،

أقدموا أيضا وزجوا بسحنهم المشبوهة والكالحة داخل الحلقة. حتى الهنود بعد أن أصابهم تجرد من المشاعر من فضول الرجل الأبيض، تسللوا بين الجموع، و ثبتوا أعينهم السوداء التى تشبه عيون الأفعى على صدر هيستير، ربما إدراكا منهم بأن حاملة هذه الشارة المحاكة بإتقان، لابد وأن تكون شخصية ذات شأن بين قومها. توجه أهل المدينة آخر الأمر فى تراخ بعد أن فقدوا اهتمامهم بالموضوع وبعد أن تحول من تلقائه إلى إحساس بالإشفاق فيما يرون من مشاعر الآخرين تجاهها، توجهوا غير عابئين بالأمر كثيرا إلى نفس المربع، وسببوا لهيستير عذابا، ربما فاق ما سببه الآخرون، وذلك لبرودهم، ولنظرتهم التى طالما عرفتها، إلى عارها المعلن. رأت هيستير وتعرفت على نفس الوجوه المألوفة لجماعة من سيدات المجتمع، اللاتى كن يترقبن خروجها من باب السجن منذ سبع سنين، خلا واحدة، وهى أصغرهن وتعد الوحيدة من بينهن التى كانت تحمل رقة فى المشاعر، وقد صنعت لها رداء الدفن منذ زمن. فى اللحظة الأخيرة التى أوشكت أن تتخلص من الحرف المتقد، كان من الغريب أن يصبح أكثر لفتا للأنظار واستثارة لها وكان على هذا النحو يجعل وسمه فى صدرها أكثر إيلاما، وأكثر من أى وقت آخر منذ أن حملته للمرة الأولى.

بينما كانت هيستير تقف فى دائرة العار السحرية، التى بدت فيها براعة القسوة فى تنفيذ العقوبة المقررة عليها موصومة بها إلى الأبد، كان الخطيب المفوه، ينظر تحته من فوق المنبر المقدس إلى الحضور، أولئك الذين سلموا أرواحهم بأكملها إليه. القس المقدس فى

الكنيسة! والمرأة حاملة الحرف القرمزى فى ساحة السوق! فأى خيال مـهما جاوز الحدود أمكنه أن يحزر أن نفس الوشم المحرق كان وقعه على الاثنين معا؟..

٢٣

آية الحرف القرمزى

تسامى صوت الواعظ البليغ بالمنصتين من الحضور عاليا، كأنه اعتلى أمواج البحر العالية ثم توقف فى النهاية، ران صمت قصير، عميق كالذى يلى النطق بالوحى. دار بعده همس ولغط، وكأن الحضور قد تحرروا من نوبة ارتقاء، نقلوا بها إلى موضع فيهم بذاكرة مختلفة، وعادوا إلى ذواتهم، محملين مهمومين بالرهبة والحيرة. بدأت الحشود بعد ذلك فى التدافع للخروج من أبواب الكنيسة. أما وقد انتهى الآن كل شىء، فقد كان عليهم التقاط أنفاسهم، كى يكونوا أكثر قدرة على احتمال الحياة بماديتها وربقها، بعد أن عادوا من احتمالهم الحالة التى نقلهم إليها الخطيب بعبارات ملتهبة، محملة بأريج فكره الخصب.

قطع انتشاءهم تبادلهم الحديث فيما بينهم فى الهواء الطلق. تنقلت الثرثرة فى ساحة السوق من موضع لآخر، بعبارات عرفان للقس. لم يهنأ لمن استمعوا إليه بال قبل أن يخبر أحدهم الآخر بأنه يعرف أكثر مما أخبر به أو استمع إليه. وطبقا لشهاداتهم المجمع عليها، لم يسبق أن كان هناك من تفوق على القس فى النطق بهذا القدر الكبير من القداسة والسمو، ولا ثبت أن تفوق عليه فى استلهام ما نطقت به شفتاه الفانيتان. كان يمكن ملاحظة تأثرهم الواضح، يزداد نحوه ويستحوذ عليه، ويواصل الارتقاء به فوق الخطبة المكتوبة

والموضوعة أمامه، وأن يشحنه بأفكار نالت إعجابه وإعجاب سامعيه. تبين أن مضمون الخطبة كان بحث العلاقة بين الألوهية والمجتمعات الإنسانية، مع وضع أهل نيو إنجلاند فى الاعتبار، أولئك الذين يأهلون بالبرارى هنا. حين وصل إلى نهاية الخطاب باغتته كما هو حال الأنبياء، آمرة إياه باتباع سبيلها بعزم، كما أمرت أنبياء بنى إسرائيل من أولى العزم، مع فارق وحيد، هو أنه بينما استنكر العرافون من اليهود العقاب والدمار الذى حل ببلادهم، فإن رسالته هى التنبؤ بمصير مشرق بهيج لمن التئم شملهم من جديد، حبا فى الله. كانت هناك طوال الوقت، وخلال العظة برمتها، نغمة حزينة خفيضة، مثيرة للرثاء، لا يخرج مضمونها عن إحساس بالندم المتأصل فى إنسان على وشك الرحيل عن الدنيا. أجل فراهبهم الذى طالما أحبوه، وأحبهم جميعا، لم يشأ الرحيل إلى السموات العلى دون تنهيدة، بعد أن أتاه نذير الشؤم بنبأ برحيله قبل أوانه، وهو الآن بسبيله إلى مفارقتهم، وسط العبرات! قدمت الفكرة الخاصة ببقاء القس المؤقت فوق الأرض، دعما معنويا لما أحدثه الخطيب من أثر، وكأن ملاكا، فى طريقه إلى السماء قد هز جناحيه الوضائين، فوق الناس لوهلة، فبدا النور والظل فى التو، وأمطرهم بوابل من الحقائق الإيمانية القيمة.

هكذا قد أتى على السيد ديميسديل حين فى حياته (وهو ما يحدث للبعض فى شتى المجالات، رغم جهلهم به إلا بعد مرور زمن طويل عليه)، كان الأكثر إشراقا، واحتفاء بالانتصارات، من أى فترة سابقة، أو تالية إن أمكن حدوثها. وقف فى هذه اللحظة، على أعلى درجات الشموخ، تلك المكانة التى كانت فيها القدرات العقلية

والمعارف المكتسبة تظفر بالبلاغة، وحقق سمعة طيبة بسلوكه أسمى آيات الورع، تمكن رجل دين فى تاريخ نيو إنجلاند الأول من تحقيقها، ذلك فى الوقت الذى كانت طبيعة المهنة تحتل فى ذاتها منزلة رفيعة. كانت المكانة هى التى احتلها القس، وهو يحنى رأسه أمام وثار منبره، فى نهاية خطبته الدينية بمناسبة يوم الاقتراع. حدث ذلك فى الوقت الذى كانت تقف هيستير براين بجوار سارية العقاب، والحرف القرمزى لا يزال متقدا على صدرها.

سمع مجددا صوت الموسيقى عاليا، والخطى المنتظمة للفرقة العسكرية قادمة من باب الكنيسة. كان الموكب متجها نحو دار البلدية حيث تختتم مراسم احتفالية اليوم بمأدبة حافلة.

لذلك شوهد أكثر من مرة تحرك ركب الآباء أصحاب الهيبة والوقار عبر ممر أفسحه الناس لهم بعد أن تراجعوا إجلالا على الجانبين، فى حين كان الحاكم وأولو الأمر، والحكماء وكبار السن، ورجال الدين الموقرون، وأصحاب المكانة وذوو الصيت يواصلون تقدمهم. حين ظهروا فى ساحة السوق، قوبلوا بالهتاف. كان هذا يعكس ولا شك أنه كان يقدم قوة مضافة وزخما بسبب الولاء الأرعن، الذى منحه العصر لحكامه فورة يصعب كبحها لحماسة التهبت بين الحضور نتيجة الأسلوب البلاغى، الذى يتردد الآن صداه فى أسماعهم. فكل كان يحس بهذا الدافع فى ذاته وأنه فى الوقت نفسه قد استأثر به لنفسه دون سواه. كان من الصعب أن يظل هذا الدافع محاصرا داخل جدران الكنيسة، وتحت صفحة السماء، بل اخترق

أجواز الفضاء. كان هناك ما يكفى من بشر ومن مشاعر مهتاجة ومتناغمة، لإخراج ذلك الصوت الأكثر تأثيرا، من صوت الأرغن الراعد، أو من الرعد ذاته، أو هدير البحر، ذلك حتى وإن تعدد عتوها فى أصوات عديدة، امتزجت فى كتلة صوتية بسبب الدافع العام الذى أخرج أيضا قلبا كبيرا من من قلوب شتى. لم يسبق أن خرج مثل هذا الهتاف من أرض نيو إنجلاند!، ولم يسبق أن وقف على أرض نيو إنجلاند رجل حظى بمثل هذا التكريم من قبل إخوانه من بنى البشر مثلما حظى هذا الخطيب. كيف صار الأمر معه إذن؟ ألم تكن هناك هالة من جسيمات مضيئة تحيط برأسه؟ تسمو بالروح قدر ما سما، ومن المجد قدر ما قدم له مريدوه من إجلال، ذلك إن كانت خطاه فى الموكب تلمس الأرض بالفعل؟.

حين مر أصحاب الرتب من العسكريين، ومن كبار العاملين فى الخدمة العامة اتجهت الأنظار إلى المكان الذى يشغله القس بينهم. تحول الهتاف إلى الهمس حين نالت جماعة من الحشود بعد الأخرى لمحة منه. كم كان يبدو عليه المرض والشحوب، وسط كل مظاهر النصر هذه! لقد تخلى عنه النشاط أو فلنقل قوى الوحى التى سبق أن دعمته، حتى تلقى الرسالة المقدسة، التى جلبت معها مددها من السماء وهو الآن يكون قد أدى رسالته على خير وجه. خبا الوهج الذى كانوا يرونه قبل لحظات متقدا فى وجنته، كلهب خمد تماما فى حطب هامد. مجال أن يكون هذا الوجه لرجل لا يزال على قيد الحياة، بل هو لرجل فى عداد الأموات، ذلك أنه كان مكبل الخطى فى الطريق، ثم لا يلبث أن يحث خطاه حتى لا يسقط على الأرض.

كان أحد إخوانه من الرهبان، وهو السيد ويلسون متابعا الحالة التى كان عليها السيد ديميسديل، فاقدا للوعى والشعور، فتقدم مسرعا ليقدم له العون.

رد القس ذراع العجوز مرتعدا ولكن دون تردد، مضى فى طريقه، لو كان لنا أن نصف حركته فإنها كانت تشبه حركة مضطربة لطفل صغير بينما وذراعا أمه ممتدتا إلى الأمام، لتغرى إياه على السير. وصل القس إلى السارية التى يعرفها حق المعرفة، التى أكلحتها عوامل الطقس، وقد تعثرت خطاه، لا يدرى بما يدور حوله، إنها تلك السارية التى واجهت عليها هيستير براين، منذ زمن، ولا تزال تواجه حتى هذه اللحظة مع وضع الفترة الكئيبة ما بين الفترتين فى الحسبان عارها فى عيون الناس. ها هى ذى هيستير، وقفت، ممسكة بيدها الطفلة بيرل!، وها هو ذا الحرف القرمزى على صدرها! وها هو القس، وقد توقف فى مكانه، مع أن الفرقة الموسيقية، كانت تواصل ألحانها العسكرية المهيبة والمحفزة للهمم والتى كان يتحرك الموكب على إيقاعاتها. إنها تدعوه للتقدم إلى الأمام، التقدم إلى الحفل الكبير! ولكنه توقف عن السير!.

منذ لحظات قليلة مرت، كان بيللنجهام يتابعه بعين قلقة. ترك موقعه فى الموكب، وتقدم لتقديم العون له، ظنا منه، وهو يرى الحالة التى كان عليها السيد ديميسديل أنه بسبيله إلى السقوط على الأرض. ولكن بدت على وجه الأخير علامة تحذير للحاكم بالرجوع، مع أن الرجل لم يكن مستعدا للرضوخ لإيماءات مبهمة تصدر من طرف إلى آخر. فى هذا الوقت غشيت الحيرة والخشية الجموع. كان فى

رأيهم أن هذا الدوار الدنيوى مجرد جانب آخر من جوانب قوى القس العلوية، ولا يعد فى نظرهم من المعجزات الكبرى التى تصنع لامرئ بلغ من القداسة منزلة عالية، أن صعد أمام أعينهم، ليذوب فى خفة ثم يذوى، ثم يختفى فى نهاية الأمر، فى النور السماوى.

التفت نحو السارية، ومد يديه إلى الأمام. وقال: "هيستير، اصعدى هنا! تعالى يا طفلتى بيرل".

كانت النظرة التى أشار إليهما بها مروعة، بل كان فيها شيء من حنان اللحظة، والإحساس بالنصر. انطلقت الطفلة إليه بحركة كالطائر أصبحت من سماتها، ولفت ذراعيها حول رقبته. اقتربت هيستير براين هى الأخرى، ببطء وكأن الذى يحركها قدر لا فكاك منه، يتحدى إرادتها القوية، لكنها توقفت قبل أن تدركه. فى هذه اللحظة، زج العجوز روجر شيلينج وورث بنفسه بين الحشود، وربما انطلق خارجا من مكان سفلى وعلى وجهه علامات الشر، والفزع ليرد ضحيته بقوة عما هو بصدد القيام به! وكى يحقق ذلك، اندفع العجوز إلى الأمام وأمسك بذراع القس. وقال له هامسا: "توقف، أيها المجنون، رد تلك المرأة وأبعد الطفلة، لا تلوث اسمك، وتفنى فى العار! إننى استطيع إنقاذك الآن! أتجلب لمهنتك المقدسة العار؟".

أجاب القس مسددا بصره إلى عينى العجوز فى هلع وبنظرة لا تلين: "يا لك من غوى! أظنك جئت بعد فوات الأوان، ولم تعد قوتك كما كانت عليه فى السابق، يمكننى بعون الله أن أفلتك الآن!".

مد يده مجددا إلى المرأة حاملة الحرف القرمزى. ثم هتف بصوت مدو: "هيستير براين، باسمه هو، بالغ الرحمة، شديد العقاب، من يمنحنى القوة الروحية، كى أقدم فى هذه الساعة الأخيرة (لما ارتكبت من كبيرة، ولمعاناتى الرهيبة) على ما كففت نفسى منذ سبع سنوات عن القيام به، فتعالى إلى الآن واحتوينى بقوة منك! قوة منك، يا هيستير، بل دعيها تستدل بالمشيئة التى كفلها الله لى! أن هذا العجوز الظالم والقمىء يتحدى تلك المشيئة بكل ما أوتى من قوة! بكل قواه وبالشيطان! هلمى إلى هيستير، هلمى! ساعدينى كى أرقى السارية".

ساد الاضطراب الجموع. فأصحاب السعادة والفخامة، الذين التفوا على الفور حول رجل الدين، مباغتين بما حدث، وحائرين فى تفسير ما رأوا بأعينهم وعاجزين عن قبول تفسير الصورة الواضحة تماما للواقع، أو تصور أى تفسير سواه، وظلوا صامتين، وشهودا سلبيين على العقاب الإلهى الذى بدا أن السماء توقعه الآن. رأوا القس متكئا على كتف هيستير، ومستعينا بذراعها الملتف من حوله، متقدما نحو السارية، وصاعدا درجها، فى حين ظلت يد ابنة الخطيئة الصغيرة متشبثة بيده. تبعهم العجوز روجر شيلينج وورث، كأحد الضالعين فى مسلسل إحداث الإثم والعذاب، والجميع فيه كانوا يؤدون أدوارهم، ولذلك خول إليهم جميعا حضور المشهد الأخير.

قال وهو ينظر إلى رجل الدين نظرة مقت: "لو أنك جلبت البسيطة كلها، فلن يخفى على مكانه، أكان فى الذرى أو فى قرار مكين، نستطيع أن تفلت منى إليه باستثناء وقوفك فوق السارية".

أجاب القس: "حمدا لك يا من هديتني إلى هذا المكان".

أصابته رعدة، ثم التفت إلى هيستير، وفى عينيه علامات الشك والقلق، لم تخفها ابتسامة باهتة بانت على شفتيه. غمغم قائلا: "أليس هذا بأفضل مما كنا نحلم به فى الغابة؟".

ردت على الفور: "لا أدرى، أفضل؟ أدرى! أجل، ويجب هكذا نلقى حتفنا معا وتموت معنا بيرل هى الأخرى!".

قال القس: "أما فيما يتعلق بك وببيرل، فما شاءه الله يكون، والله رحيم! دعينى الآن أنفذ المشيئة التى كشف عنها أمام ناظرى! لأننى يا هيستير رجل يحتضر. فدعينى أسرع بحمل مغبة عارى الآن".

توكأ السيد الموقر ديميسديل فى جانب على هيستير براين، وأمسك فى الجانب الآخر بيد الصغيرة بيرل، والتفت إلى أصحاب العزة والموقرين وأصحاب النيافة، وهم إخوته، وإلى الناس أجمعين وقد أصاب قلبهم الكبير الهلع، وفاض بسيل من العبرات، حين علموا بأن شيئا خفيا، مسألة حياة أو موت إن أحاطت به الخطيئة من كل جانب، فقد كان كله مشوبا بالبلاء فضلا عن الندم وهذا الشيء بسبيله إلى الكشف عنه الآن. كان الوقت يتجاوز الهاجرة بقليل، والشمس تشمل جسد رجل الدين بضيائها، فتزيد تميزه، حيث وقف بمنأى عن البسيطة، ليعلن دعواه بشأن ما ارتكب من إثم أمام ساحة العدالة السماوية.

هتف قائلا بصوت هبط فوق رءوسهم، يحمل الرهبة والمهابة والخشوع، بل تتخلله خلجة، وصراخ أحيانا، وقد تعمد صدوره عن إحساس عميق بلا قرار بالندم والحسرة: "يا أهل نيو إنجلاند، يا من أحببتمونى، وأنزلتمونى منزلة القديسين! انظروا إلى، أنا أحد الآثمين! أخيرا! أخيرا! آتى لأقف فى هذا المكان الذى كان يجدر بى الوقوف عليه منذ سبع سنين، هنا مع هذه المرأة، التى فاقت قوة ذراعها قواى الخائرة، التى تسلقت بها وصولا إلى هذا المكان، وحال بينى وبين الانبطاح على الأرض! انظروا إلى هذا الحرف القرمزى الذى تحمله هيستير! إن فرائصكم ترتعد منه! إنه يلقى حولها بومض من لهيب الرهبة والمقت الشديد، أينما سارت، وأينما تحملت البلاء، أملا فى العثور على مستقر ومستقر. لكن هناك من يقف بينكم، ثم لا ترتعد فرائصكم من وسم عاره وخزيه".

بدا وكأن القس هنا، لابد أن يترك باقى سره مكتوما. لكنه قاوم مع انهياره الجسدى فضلا عن بذل مجهود أكبر فى مكابدة ضعف فى القلب ذلك الذى كان يجاهد بقاء السر معه. تخلى عن كل عون، واندفع فى غضب خطوة إلى الأمام مقابل المرأة والطفلة.

أردف فى شىء من الجسارة الدالة على أنه كان بصدد الإفصاح عن الأمر برمته: "كان يحمله! وكانت عين الله تراه! والملائكة تشير دوما إليه! والشيطان يعرفه جيدا، ويزيد من تقيحه، بمجرد إشارة من إصبعه المؤججة باللهب! لكنه برع فى خفائه عن الناس، وسار بينكم بمظهر امرئ معنى، بلغ من الطهر قدرا كبيرا فى عالم آثم! وحزين لأنه افتقد ارتباطه بالسماء! الآن وفى ساعة المنية

هذه، يقف أمامكم! لينهاكم عن النظر مجددا إلى حرف هيستير القرمزى! ويقول لكم إنه مع كل ما يحسه من رعب خفى، فإن ذلك ليس سوى ظل ما يحمل على صدره، وأنه حتى والحال هكذا، تصبح وصمة العار الحمراء، علامة تكوى قلبه فى الأعماق! فهل يقف بينكم من يطالب بقصاص الله فى إثم؟ انظروا! انظروا وكونوا عليه من الشاهدين!.

انتفض من مكانه ومزق وشاح الكهنوت من على صدره. فكشف عنه! ولكن لا يحق لنا وصف ذلك الانكشاف. تركزت أنظار الجموع لوهلة وقد لفها الرعب، على المعجزة الرهيبة، فى حين وقف القس وعلى وجهه علامة النصر كمن يحقق انتصارا فى مصيبة مصحوبة بأحد. وانهار فوق السارية. رفعته هيستير قليلا ثم أسندت رأسه على صدرها. انحنى العجوز روجر تشيلينج وورث بجانبه، وعلى سحنته الشرود والوجوم، فى حيرة من أمره بأن الحياة أشرفت على الختام.

ردد أكثر من مرة: "لقد أفلتت منى. لقد أفلتت منى!".

قال القس: "قد يغفر الله لك، فإنك أيضا حملت وزرا عظيما".

حول عينى الاحتضار عن العجوز، وثبتهما على المرأة والطفلة. ثم قال فى ضعف وعلى شفتيه بسمة رقيقة، كأن روحا تنفذ إلى مستقر مكين، ليس هذا فحسب بل لقد زال عنه الحمل الآن، وبدا مهيأ لملاطفة الطفلة: "ابنتى بيرل، عزيزتى الصغيرة بيرل، أتقبليننى الآن؟ إنك لم تفعلى ذلك فى الغابة! ولكن أتفعلينه الآن؟".

قبلت بيرل شفتيه. فبطل السحر. أظهر مشهد الكرب العظيم والذى أدت فيه الطفلة الشرسة دورا، كل ما لديها من مشاعر نحو الآخرين، وحين سقطت عبراتها على خدى أبيها، كانت تلك العبرات ضمانة على أنها ستترعرع بين أفراح وأتراح البشر، ولن تدخل إلى الأبد صراعا مع الناس، لكنها ستصير بينهم امرأة. كان طيش بيرل وهو علامة على عذاب أمها، قد حقق الغرض منه تماما.

قال القس: "الوداع يا هيستير".

همست وهى تميل برأسها قريبا من وجهه: "ألن نتقابل مجددا؟ ألن نقضى معا حياتنا السرمدية؟ من المؤكد، المؤكد، أن كلينا قد خلص الآخر من ذنوبه فى كل هذا البلاء! تبدو بعيدا فى الأبدية، بهاتين العينين المحتضرتين الوامضتين! أخبرنى إذن عما تراه".

قال لها بخشوع الرهبة: "صه، هيستير، صه، أما القانون فقد خرقناه! وأما الخطيئة فها هى قد كشف عنها كلية! دعى هذين فى بالك فحسب! إننى أخشى! أخشى! يبدو أننا حين نسينا ربنا، وحين تجاوزنا ما كان لدينا من حشمة، كلا من أجل الآخر، كان من العبث منذ ذلك الحين أن نأمل فى أن يلتئم شملنا بعد الآن، فى رباط طاهر أبدى. يعلم الله ذلك وهو الرحيم! إنه يظهر فى آلامى رحمته وهو أرحم الراحمين. وقد وهبنى هذا العذاب المؤجج لأحمله فوق صدرى! وأن يبعث بهذا العجوز الكئيب والمليء بالشر، كى يظل هذا العذاب إلى الأبد! وأن يجيء بى إلى هنا كى أموت ميتة عار المنتصر أمام الناس! فإن نقص أى من هذه الآلام، أكون قد ضعت إلى الأبد! تقدس اسمه! وما شاء كان! وداعا!.

جاءت تلك العبارة الأخيرة مرافقة خروج نفس القس الأخير. كانت الجموع صامتة حتى تلك اللحظة ثم ما لبثت أن انطلقت بصوت يحمل من الغرابة والعمق قدر ما فيه من الرهبة والحيرة، اللتين أفقدتهم القدرة على النطق، بغض النظر عما حوت أصواتهم من همس، كشف فحواه بعد رحيل القس.

٢٤

خاتمة

بعد عدة أيام، وحين مضى ما يكفى من وقت، يرتب فيه الناس أفكارهم بشأن ما شاهدوه فى المشهد السابق، كان هناك أكثر من رأى فيما حدث فوق السارية.

شهد أغلب الرائين برؤيتهم الحرف القرمزى فوق صدر القس المسكين صنو الحرف الذى تحمله هيستير براين مدموغا فى لحمه. وبشأن مصدره كانت هنالك عدة تفسيرات، يرجع أغلبها بالضرورة إلى التخمين. أكد البعض أن السيد المبجل ديميسديل، قد بدأ يسلك سبيل التكفير عن ذنبه، فى نفس اليوم الذى حملت فيه هيستير براين شارة العار، ذلك السبيل قد سلكه بعد ذلك بأساليب كثيرة وعبثية وذلك بتوقيع العذاب بنفسه فى الخفاء. اقتنع آخرون بأن وشم أو كى حرف العار، لم يكن قد تم لفترة طويلة لاحقة، إلى أن تسبب العجوز روجر شيلينج وورث، كساحر لا يشق له غبار، فى إظهاره، من خلال الوكالة بالسحر وبالعقاقير السامة. همس آخرون مجددا، وكانوا الأكثر قدرة على تقدير الحسية الشديدة فى طباع القس من حساسية مفرطة، والحكم على القوى الغريبة التى ثبتت الروح بها الجسد، بان الشارة الرهيبة، كان لها وقع النهش فى اللحم بأنياب الندم الحادة، بدءًا من ظاهر شغاف القلب، وكى يتأكد انتقام السماء المروع فى ظهور الحرف للعيان. للقارئ أن يختار ما بين هذه الآراء. وعلينا أن نلقى

ما يتيسر لنا من ضوء على المعجزة، وسوف يكون من دواعى سرورنا أن تؤدى الآن بأداء رسالتها، وذلك بمحو ما كمن فى عقولنا من انطباعات، انشغل العقل بها فترة طويلة ورسخها بنفس وضوح الصورة غير المستساغ.

ومع ذلك فمن الغريب أن أشخاصا بعينهم، كانوا من شهود الحدث برمته، وأقروا بأنهم لم يرفعوا بصرهم لحظة واحدة عن السيد المبجل ديميسديل، قد أنكروا وجود أى شارة على صدره، ولم يكن هناك سوى ما يرونه فى طفل رضيع حديث الولادة. طبقا لرواياتهم فإنه لم يكن هناك ما ذكر من عبارات احتضار وردت على لسانه، ولم يرد ما يشير، إلى أدنى صلة من جانبه، بالإثم الذى بسببه حملت هيستير براين الحرف القرمزى لزمن طويل.

كان القس من وجهة نظر أولئك الشهود المحترمين، وهو يدرك قرب منيته ويدرك أيضا أن تقدير الجموع له قد أبلغه منزلة الملائكة والقديسين، قد رغب وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعى المرأة الساقطة، فى التعبير للناس عن قدر تواضع فكرة حق الإنسان المطلق فى اختيار سبل قوامته.

فبعد حياة حافلة بالمعاناة، بذل فيها القس جهدا جهيدا لخير النفس الإنسانية، جعل من طريقة موته أمثولة، كى يطبع فى ذهن مريديه الدرس العظيم والملىء بالعبر، وهو أننا أمام العفة المطلقة فى الخطيئة سواء بسواء. كان يعلمهم أن الأقدس فينا، يفوق أقرانه حين يدرك تماما أن الرحمة هى التى تزدرى وتنكر كلية الوهم المسمى بتميز البشر، الذى يعد أكبر مطمح لهم. لابد، ودون أن ندخل فى

خصومة مع حقيقة كبرى كتلك، أن يتاح لنا تناول هذا التعديل فى هذا السرد عن السيد ديميسديل، على أنه خير دليل على توخى الصواب عند انحياز الأصدقاء لصديقهم أحيانا، خاصة إذا كان هذا الصديق رجل دين، وحين تؤكد كل الأدلة، بجلاء كجلاء الحرف القرمزى فى وضح النهار، أنه مخلوق كأى مخلوق، وأنه كاذب ومدنس بالإثم.

تؤكد المرجعية التى تتبعنا أصل مصدرها وهى المخطوط القديم الذى أسس على ما ورد على ألسنة أشخاص بعضهم كانوا يعرفون هيستير براين بينما سمع الآخرون، من شهود معاصرين لهم، وجميعها يؤكد ما ورد فى الصفحات السابقة. أننا من بين كل العبر، التى نستخلصها من تجربة القس المؤلمة، نلخص ذلك فى عبارة واحدة هى: "توخ الصدق! توخ الصدق! اظهر أمام الناس إن لم يكن بأسوأ ما فيك من سمات، فببعض ما يشير إلى الأسوأ منها!".

لم يكن هناك ما يستحق لفت الانتباه، أكثر من التغيير الطارئ على المكان بعد رحيل القس مباشرة، ويتمثل فى ظهور العجوز المعروف بروجر شيلينج وورث وبمسلكه. فقد بدا على الفور وقد تخلى عنه نشاطه كلية وقواه، وتخلى عنه كل ما كان لديه من قدرات ذهنية وحيوية لدرجة تؤكد إصابته بالذهول، والنحول وكاد أن يتلاشى عن أعين الناس، كعشب برى اجتث من جذوره ليذبل تحت الشمس. لقد كان الهدف الوحيد فى حياة هذا الرجل التعس، الممارسة المنتظمة للرغبة فى الانتقام، وتقفى أثرها جعل هذا التعس همه الأوحد فى الحياة، وقفا على السعى وراء شهوة الانتقام والممارسة الفعلية

لتحقيقه، وحين ترك ذلك الهدف الحافل بالشر دون أن يلحق تحقيق النصر المؤزر واكتماله، شيء ملموس يؤكد حدوثه، وحين لم يعد له فى النهاية، عمل شرير يؤديه، ولم يبق سوى مخلوق تجرد من إنسانيته يذهب بنفسه إلى حيث وجده سيده مؤديا مهامه بنجاح، فيوفيه أجره. لكننا نود أن نكون رحماء بتلكم الكيانات الغامضة، ممن طالت معرفتنا بهم عن قرب، أمثال السيد روجر شيلينج وورث. إن ما يثير فضول الباحث وتمحيصه، ما إذا كان الحب والكره لا يمثلان نفس الجوهر. فكل فى طوره الأخير، يفترض وجود درجة كبيرة من الحميمية، وفهم شخصية الطرفين كلٌ للآخر، حيث يتخلى الواحد عن ذاته ليصير معتمدا على الآخر فى تغذية مشاعره وحياته الروحية، وكل يترك حبيبه الواله، أو عدوه الكاره يائسا محطما بتراجعه عن هدفه. لذا يعتبر الاثنان فلسفيا، متشابهين فى الجوهر، عدا أن أحد الاثنين ينظر إليه عادة وسط هالة من الضياء، والآخر وسط اللهب المحترق والعتمة. وفى أعماقهما لم يكن القس ولا الطبيب، رغم اعتبارهما ضحيتين لنفس الحدث، يدركان أنهما كانا بصدد العثور على بضاعتهما الفانية من كراهية وحقد، قد تحولت إلى محبة خالصة.

لنتوقف عن هذا الجدل، لأن لدينا أمرا ذا شأن يهم القارئ. فعند رحيل العجوز روجر شيلينج وورث، عن الدنيا، (وقد حدث بعد عام) ونزولا على إرادته وتنفيذا لوصيته، التى تولاها كل من الحاكم

بيللنجهام والسيد ويلسون، فإنه وهب جزءًا هائلا من ممتلكاته، سواء التي في نيو إنجلاند أو في إنجلترا، للطفلة بيرل، ابنة هيستير براين.

هكذا أصبحت بيرل، الطفلة الجنى، التي كان أناس ذلك العصر يصرون على اعتبارها نسل شيطان، أصبحت أغنى وريثة في العالم الجديد، في عهدها. مما لا يدع مجالا لشك في أن هذا الحدث قد أجرى تغييرا ملموسا في تقييم الناس لهما لأن كلا من الأم والطفلة، إن كانت قد بقيتا في المدينة، لحدث عند بلوغ الطفلة بيرل سن الزواج، أن اختلط دمها الوحشي بدم أحد من ينحدرون من أكثر سلالات البيوريتان ورعا. لكن وبعد فترة قصيرة من وفاة الطبيب، اختفت حاملة الحرف القرمزي، ومعها بيرل. ولعدة أعوام ورغم أن أخبارا مشوشة، كانت تجد طريقها عبر البحر، من حين لآخر كقطعة من الخشب أصابها البلى، تطفو قرب الشاطئ وعليها حروف متفرقة للقب ما - إلا أنه لم ترد عنهما أخبار يمكن الاعتماد عليها أو الوثوق بها. تحولت قصة الحرف القرمزي إلى أسطورة. ومع ذلك ظل للحرف سحر طاغ، كما احتفظت السارية بوجهها الكئيب، وهي التي قضى عليها القس نحبه، فضلا عن بقاء الكوخ القريب من شاطئ البحر، حيث كانت هيستير براين تقيم. بعد ظهيرة أحد الأيام وبالقرب من هذا المكان، وحين كان بعض الأطفال منهمكين في لهوهم، رأوا امرأة طويلة القامة، ترتدي ثوبا رماديا، اقتربت من باب الكوخ. لم يكن باب الكوخ قد فتح طوال تلك السنين، هل فتحته؟ ربما، وربما لأن في يدها بعد تآكل الحديد والخشب، أم تراها قد انسلت عبر

موانعه تلك، ورغم كل ما سبق ذكره من احتمالات، تهيأت لدخول الكوخ.

توقفت فوق عتبته، ثم تلفتت قليلا حولها، فلعل فكرة الدخول بمفردها، وفى حالتها تلك الكوخ، وبعد أن عانت فى السابق الأمرين فيه، أما الآن فقد صار أكثر عزلة ووحشة، ولا يمكن لها أبدا أن تتحمله هكذا. لكن ترددها لم يدم سوى لحظات، رغم مرورها عليها كدهر، لكنها كانت كافية للكشف عن الحرف القرمزى الذى على صدرها.

ها هى ذى هيستير براين قد عادت، مستأنفة الكشف عن عارها القديم بعد أن عفا عليه الزمن. ولكن أين هى الطفلة بيرل؟ لابد أنها الآن إن كانت على قيد الحياة أن تصبح على مشارف الأنوثة، بنضارتها وريعانها. لم يؤكد أحد إن كانت الطفلة الجنى قد أصبحت من ساكنى القبور قبل الأوان و فى مرحلة العذرية، أو أن تغددية شخصيتها وجموحها، قد تحولا إلى الرقة والدعة، وأنها كانت مؤهلة للسعادة الرقيقة فى المرأة. ولكن على مدى ما تبقى لدى هيستير من عمر، كان هناك ما يشير إلى أن انعزالية الحرف القرمزى، صارت دافعا لحب ورعاية مستوطن من بلد آخر. وردت رسائل، مختومة بشعار النبالة، مع أنها لا تمت إلى شعار النبالة الإنجليزى بصلة. كان فى الكوخ من وسائل للراحة والترف تلك التى لم تكن تأبه هيستير باقتنائها، ولا يقدم على ابتياعها سوى الثروة، والعاطفة المتوهمة تجاهها. كانت هناك أيضا أشياء بسيطة وزخارف بسيطة، وشارات جميلة تحمل الذكريات المتصلة، ابتكرتها بالضرورة

بأنامل ماهرة. بدافع من قلب محب. وحين كانت هيستير ترى وهى تحيك ثوب رضيع، يمثل بذلك العطاء الذى لا ينضب، والنابع من خيال راق، فإن ذلك قد يحدث اضطرابا عاما، فحواه أن أى رضيع، تزيى بمثل هذا الزى، ليظهر به فى وجه مجتمعنا العبوس، اعتقد بعض ناقلى الأخبار فى تلك الأيام، كما اعتقد أيضا، المفتش بيو الذى كان قد أجرى استقصاءاته بهذا الشأن بعد قرن من الأحداث، ويؤيد نفس الاعتقاد، أحد الذين شغلوا منصبه حديثا، اعتقدوا جميعا أن بيرل لم تكن فقط حية ترزق، بل تزوجت، وهى تعيش فى سعادة، وترعى أمها، وأنها كانت أكثر إحساسًا بالسعادة فى بيتها، وهى تسرى عن تلك الأم التى قضت حياتها فى العزلة والهموم.

ولكن كان لهيستير براين فى نيو إنجلاند مقام أكثر مغزى من حياتها فى ذلك المكان الذى لم يعرفه أحد والذى عثرت فيه بيرل على مقر لها. ذلك لأنها فى هذا المكان ارتكبت خطيئتها، وفى هذا المكان كانت معاناتها، وكان أيضا يشهد توبتها. لذلك عادت، وبوازع منها، لأنه لم يعد هناك حاكم جهم يجبرها على مواصلة حمل الشارة التى سردنا قصتها الأليمة. لم تفارق بعد ذلك صدرها البتة. ولكن خلال سنوات العناء والتأمل وإنكار الذات، التى شكلت حياة هيستير، كف الحرف القرمزى عن أن يكون رمزا للعار، بعد أن جذب إليه تهكم الناس وسخريتهم، بل صار مثار أسى، ينظر إليه بعين الرهبة، فضلا عن الخشوع. وحيث إن هيستير براين لم يكن لديها أى تطلعات، فضلا عن أنها لم تعش من أجل متعة أو منفعة ذاتية، قصدها كل ذى كرب وبلاء، وطلبوا منها النصح، كأحد الذين يلاقون الأهوال. جاء

إلى كوخ هيستير، النساء خاصة، أولئك اللواتى تكررن ما واجهنه من تجارب حافلة بالألم والضياع والظلم والهجران، أو من علاقات دنستها الخطيئة والزلل، أو ممن عانين جحود القلوب عن اهمال لهن أو نبذ، سعين إليها طالبين معرفة سبب نبذهن، والسبيل إلى النجاة! كانت هيستير تهدأ من روعهن، وتقدم لهن النصح، قدر ما تستطيع. كانت أيضا تؤكد لهن اعتقادها الجازم، بأن عهدا مأمولا، يصل فيه البشر بالضرورة إلى قمة نضجهم، وبإرادة الله، سوف يكشف عن واقع جديد، توضع فيه أسس كاملة للعلاقة بين الرجل والمرأة، على قواعد أكثر رسوخا، لإرساء حياة هانئة فيما بينهما. كان من باب العبث فى حياتها أبدا أن يطرأ على بال هيستير أن تكون النبية المنتظرة، ولكن مر زمن طويل أقر خلاله باستحالة إسناد أى رسالة وحى من السماء، إلى امرأة وصمت بالخطيئة، وأحنى ظهرها العار، أو حتى لمجرد معاناتها الكرب لفترة طويلة.

ينبغى لملك الوحى القادم أو حوارييه أن يكون امرأة، بل ينبغى لها أن تتحلى بالنبل والطهر والجمال، والحكمة، ولا ينبغي أيضا أن يحدث ذلك من خلال مأساة سوداء، بل من فرح بالنور الآلهى، وبإظهار كيفية أن الحب المقدس لابد أن يؤدى إلى السعادة، بأن المعيار الحق لسيرة نجاح إنسان فى نهاية كتلك.

هكذا قيل إن هيستير براين ظلت عيناها الحزينتين معلقتين بالحرف القرمزى. وأنه بمرور السنين تلو السنين، حفر قبر جديد، بالقرب من قبر قديم غائر فى العمق، فى الجبانة الملازمة لكنيسة الملك القديمة. وكان فضلا عن قربه من ذلك القبر العميق، تفصل

بينهما مساحة، وكأنه ليس من حق رماد الراقدين أن يمتزج. جعل أيضا شاهدى قبرين لكل منهما. تحيط بهما من كل جانب نصب تحمل شعارات النبالة، وعلى هذه اللوحة البسيطة من صخر الإردواز وحيث يشبع ذلك فضول المتقصى للأحداث، والمعنى بما تتضمنه، ظهر محفورا عليها ما يشبه شعار النبالة. حمل هذا الشعار عبارة بلاغية، وصيغ بكلمات فيها من النبل ما يجعلها بالضرورة تصلح أن تكون شعارا، ووصفا وجيزا لأسطورتنا التى بلغت الآن هذه النهاية الحزينة، ولم تخلف وراءها سوى لمحة مضيئة على الدوام، تصدر من نور أكثر عتمة من ظل :

يظهر الحرف A ببصيص الضوء الأحمر القاتم على البقعة حالكة السواد.

انتهـــت

المؤلف فى سطور:

ناتانييل هووثورن

- ولد سنة ١٨٠٤م فى مدينة سالك بماساشوستس.
- تخرج فى كلية بوداين بيرونسويك عامر ١٨٢٥.
- بدأ العمل فى الكتابة عام ١٨٣٧.
- توفى سنة ١٨٦٤م.
- له العديد من المؤلفات منها:
  - قيل مرتين
  - موبى ديك
  - البيت ذو الجمالونات السبعة
  - العرس السعيد

المترجم فى سطور:

عبد الباقى بركات

- مترجم وباحث مصرى نشر عددا من المقالات والدراسات والمسرحيات المترجمة بالصحافة الثقافية المصرية.

التصحيح اللغوى: أمل عبد الفتاح

الإشراف الفنى: حسن كامل

الحرف القرمزى (قصّة) سوداوية، ليس فيها سوى بقعة فاتحة اللون، ويمكن أن تظل أكثر روايات الطراز الأول فى اللغة الإنجليزية إثارة للهموم، ويمكن أن نطلق عليها "رائعة" كاتبها. ربما كمن موضوع القصّة فى ذهن هوثورن لمدة طويلة - كما تنزع إلى ذلك كل موضوعات قصصه - وذلك إلى أن يشعر أنه امتلك ناصيتها، وعرفها وأحس بها. كان من الصّعب تفسير قدر أهميّة الحرف A بالنسبة إلى هنرى چيمس الطفل. لكنّ اللغز زال فى النّهاية جزئيّا لديه، حين أخذ ببعض الصور المعروضة فى معرض الأكاديمية الوطنية، والتَقى بصورة لامرأة أنيقة بدا عليها الشّحوب، تضع عليها ثوبًا غريبًا أسود، وعلى رأسها قلنسوة، تمسك بين ركبتيها بطفلة صغيرة، أشبه بالجنى الصّغير، وقد وضعت على رأسها تاجًا من الزّهور، حيك على صدر المرأة الحرف A الكبير باللون القرمزى. كانت الطفلة تنظر خارج إطار الصورة نظرة غريبة، وتعبث بالحرف الذى على صدر الأم بطريقة تنم عن مكر ودهاء. قيل لهنرى چيمس الطّفل إن المرأة هى هيستير براين والطفلة هى [illegible] الصورة التى كانت قد انطبعت فى ذهنه، سببت له [illegible] وقلقًا، وبعد أن كبر وقرأ القصة، كان يشعر أنه قد قر[illegible] و يعرف جيدًا بطلتيها.

Bibliotheca Alexandrina
0750242

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح